لباب
LUBAB
للدراسات الاستراتيجية For Strategic Studies
السنة الخامسة - العدد 18 Issue 18 - Fifth year
"دورية محكمة تصدر عن مركز الجزيرة للدراسات" A Quarterly Peer- Reviewed Journal Published by Aljazeera Centre for Studies

الإسلام السياسي
بين الانحسار والتسوية التاريخية

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES
ISSN 2617- 8753
مايو/أيار 2023
May 2023

شروق الشرق وغروب الغرب

المجتمعات المهاجرة في تركيا

الجندي الصنعي وأسس القانون الدولي الإنساني

العلاقات الروسية-الإفريقية بعد الحرب على أوكرانيا

لباب
LUBAB

للدراسات الاستراتيجية

دورية محكمة تصدر عن مركز الجزيرة للدراسات

السنة الخامسة - العدد 18 - مايو/أيار 2023

رئيس التحرير
د. محمد المختار الخليل

نائب رئيس التحرير
أ.د. لقاء مكي

مدير التحرير
د. الحاج محمد الناسك

هيئة التحرير
د. عز الدين عبد المولى
العنود أحمد آل ثاني
د. فاطمة الصمادي
د. محمد الراجي
د. سيدي أحمد ولد الأمير
د. شفيق شقير
د. عبدالله العمادي
الحواس تقية
محمد عبد العاطي
يارا النجار

المراجع اللغوي
إسلام عبد التواب

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء الباحثين والكتّاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها المجلة أو مركز الجزيرة للدراسات

ترتيب الدراسات يخضع لاعتبارات فنية فقط

جميع الحقوق محفوظة

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

الدوحة – قطر
هاتف: 40158384 (974+)
فاكس: 44831346 (974+) – البريد الإلكتروني: E-mail: lubab@aljazeera.net

ISSN 2617-8753

تصميم الغلاف: **قطاع الإبداع الفني بشبكة الجزيرة الإعلامية**

الطباعة : مطابع قطر الوطنية - الدوحة - قطر - هاتف : 8452 4444 974+

Contents المحتويات

Studies and Research دراسات وأبحاث

Mohamed El-Moctar El-Shinqiti
The Rising East and the Setting West: The Shift of the Global Powers and the Destinies of the Islamic World 11

محمد المختار الشنقيطي
شروق الشرق وغروب الغرب: انزياحات القوى الدولية ومصائر العالم الإسلامي

Fatima Alsmadi
Migrant Communities in Turkey and Obstacles to Assimilation and Integration: An Ethnographic Study 67

فاطمة الصمادي
المجتمعات المهاجرة في تركيا: عقبات الاستيعاب والاندماج

Hmida Ennaifer
" Political Islam " in the emerging context Between Extinction and Historical Settlement 111

احميده النيفر
" الإسلام السياسي" في السياق المستجد بين الاندثار والتسوية التاريخية

Tarek Majzoub
The Artificial Soldier and International Humanitarian Law: A Summary of Military and Legal Ideas 133

طارق المجذوب
الجندي الصنعي وأسس القانون الدولي الإنساني -خلاصة أفكار عسكرية قانونية

Follow-ups متابعات

Saied Nada
The Future of Russian-African Relations after the War on Ukraine 163

سعيد ندا
مستقبل العلاقات الروسية-الإفريقية بعد الحرب على أوكرانيا

Book Review

Nizar Lafraoui

Chaos engineers
Internet algorithms at the service of rising populism

203

قراءة في كتاب

نزار الفراوي

مهندسو الفوضى
خوارزميات الإنترنت في خدمة الشعبوية الصاعدة

افتتاحية العدد

العالم الإسلامي وسط المتغيرات الدولية

يتضمن العدد الجديد من مجلة لباب مسعى لبناء مقاربة لموقع العالم الإسلامي في ظل المتغيرات العميقة وبعيدة الأثر التي يفرضها التنافس أو حتى الصراع على مواقع القوة والهيمنة الدولية، لاسيما الصراع الحالي بين الولايات المتحدة والصين، أو بينها وبين روسيا، وما يبدو من تشكيل محاور استقطاب سياسية جديدة في العالم، قد تعيدنا إلى أيام الحرب الباردة.

في دراسته المعمقة "شروق الشرق وغروب الغرب، انزياحات القوى الدولية ومصائر العالم الإسلامي"، يخوض الدكتور محمد مختار الشنقيطي غمار هذا التحدي البحثي، مستجليًا ظاهرة انزياح مركز الثِّقل في النظام الدولي، من الغرب الأطلسي إلى الشرق الآسيوي/ الأوراسي، من منظور الجغرافيا السياسية. وهي تضع هذا الانزياح ضمن سياق الصراع التاريخي بين القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى، ومعادلةِ العلاقة بين القوة الصاعدة والقوة السائدة. كما تتلمَّس الدراسة موقع العالم الإسلامي من هذا التحول في موازين القوى الدولية، داعيةً إلى شَحْذ العزائم لمواجهة هذا التحدي، بوعي سياسي، وحاسَّة إستراتيجية.

دراسة أخرى تضمنها العدد الجديد، للدكتور فاطمة الصمادي بعنوان " المجتمعات المهاجرة في تركيا: عقبات الاستيعاب والاندماج"، وتدرس فيه الباحثة من خلال المنهج الإثنوغرافي تجربة الأفراد والمجتمعات المهاجرة في تركيا بالتركيز على الجانب الإنساني والخصائص الاجتماعية، وتتخذ من المجتمعات العربية المهاجرة إلى تركيا وكذلك مجتمع الإيرانيين ومجتمع الأفغان مجتمعات لدراسة هذه القضية.

موضوع غلاف هذا العدد كانت دراسة للأستاذ الدكتور احميدة النيفر عنوانها "الإسلام السياسي" في السياق المستجد بين الاندثار والتسوية التاريخية، وفيه يقدم مراجعة نقدية لحركات "الإسلام السياسي" من خلال طرح جملة من الأسئلة، منها:

- لماذا انحسر خطاب الحركات الإسلامية في الحقل السياسي بما أعجزها عن أي

تغيير للمجال التديني في أبعاده الفكرية والثقافية والاجتماعية وركَّز لديها قيم الامتثال بعيدًا عن التحرر والتجديد؟

- كيف تحجز الفاعليات الإسلامية نفسها عن مراتع الاستبداد والفوضى؟ وكيف تتجاوز سياسات استدراجها لتكون مطية مستهدَفة داخليًّا وخارجيًّا؟

- كيف ينتهي الفرز الأيديولوجي المُنهك للثورات العربية من أجل تجاوز سياسة فرض النظام الليبرالي للعولمة على الإسلاميين خاصة وعلى النظام العربي عامة؟

- أية رهانات وأية شروط تحتاجها النخب الصاعدة اليوم في نضالها المجدد إن أرادت فاعلية سياسية مدنية وطنية، لتقطعَ مع حال المُخاطِب لذاته المُعرض عن واقعه الرافض لمكاسب عصره؟

ويخلص النيفر إلى دعوة (الإسلاميين) إلى "تسوية تاريخية" تخرج بهم، على حد وصف الباحث، من حال التشظي العام بما يواصل سيرورتهم ضمن الإسهام في تأسيس المشترك الذي يحرر الديني من سطوة الدولة بما يُعيد السياسة للعرب ويرأب الصدع الاجتماعي والإقليمي.

وفي بحثه الموسوم (الجندي الصنعي وأسس القانون الدولي الإنساني)، يقدم الأستاذ الدكتور طارق المجذوب تصورات سياسية وعسكرية وقانونية حول ما بات يسمى بالمقاتل الروبوت أو الجندي الصنعي (أي الجندي الذي يصنعه الإنسان ليحاكي السلوك البشري لجندي المشاة من القوات النظامية) ومترادفاته وأنواعه، وعرض التساؤلات القانونية التي يطرحها استخدام هذا النمط من الآلات القاتلة وإلى موقعها في الإستراتيجيات العسكرية لبعض الدول العربية.

وفي زاوية متابعات وقضايا، يتضمن العدد ورقة حول (مستقبل العلاقات الروسية-الإفريقية بعد الحرب على أوكرانيا)، وفيه تفصيل لجذور هذه العلاقة وتطورها، والوسائل والأدوات التي استخدمتها روسيا في سبيل ذلك، ومدى استجابة الدول الإفريقية لتلك للمساعي الروسية، وكيف أثرت الحرب الروسية على أوكرانيا على العلاقات الروسية-الإفريقية، بطريقة دفعت وستدفع أكثر باتجاه تمتين وتطوير العلاقات الروسية-الإفريقية، وتوسيع وتنويع مجالاتها.

وفي زاوية قراءة في كتاب، اختير في هذا العدد كتاب (مهندسو الفوضى)، وهو كتاب

يتناول الآليات التي تجري بها صناعة التيارات الشـــعبوية في الغرب، وهيمنتها على السلطة في بعض البلدان، وفيه جرى استعراض رحلة الكاتب وهو الباحث والكاتب الإيطالي-السويسري، جيوليانو دا إمبولي Giuliano da Empoli، في دهاليز صناعة هذا الزحف الشـــعبوي الجديد الذي لا يتردد البعض في اعتباره استئنافًا، ولو بصيغ أخرى، لمراحل سياســـية سابقة أثمرت التيارات اليمينية الفاشية والنازية التي دفعت بأوروبا والعالم إلى حرائق حرب عالمية مدمرة.

دراسات وأبحاث

شروق الشرق وغروب الغرب
انزياحات القوى الدولية ومصائر العالم الإسلامي

The Rising East and the Setting West: The Shift of the Global Powers and the Destinies of the Islamic World

* Mohamed El-Moctar El-Shinqiti - محمد المختار الشنقيطي

ملخص

تتناول هذه الدراسة ظاهرة انزياح مركز الثِّقل في النظام الدولي من الغرب الأطلسي إلى الشرق الآسيوي/الأوراسي، من منظور الجغرافيا السياسية. وهي تضع هذا الانزياح ضمن سياق الصراع التاريخي بين القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى، ومعادلةِ العلاقة بين القوة الصاعدة والقوة السائدة. كما تتلمَّس الدراسة موقع العالَم الإسلامي من هذا التحول في موازين القوى الدولية، داعيةً إلى شَحْذ العزائم لمواجهة هذا التحدي بوعي سياسي وحاسَّة إستراتيجية.

كلمات مفاتيح: الشرق والغرب، الجغرافيا السياسية، صعود الصين، أوراسيا، العالم الإسلامي.

Abstract:

This is a geopolitical study of the shift in global power from the Atlantic West to the Asian/Eurasian East, within the context the historic clash between the great land powers and great sea powers, as well as the relationship between emerging and established powers. The study also explores the impact of this shift on the Islamic World, emphasizing the need to face this challenge with determination, political awareness and strategic sense.

Keywords: East and West, Geopolitics, Rise of China, Eurasia, Islamic World.

* د. محمد مختار الشنقيطي، أستاذ الشؤون الدولية المشارك، قسم الشؤون الدولية، جامعة قطر.

Dr. Mohamed El-Moctar El-Shinqiti, Associate Professor of International Affairs, Department of International Affairs, Qatar University.

مقدمة

تتناول هذه الدراسة تجدُّد الانشطار في النظام الدولي في العَقدين الأخيرين، مع تركيز خاص على ما يفرضه هذا الانشطار الجديد من تحدِّيات على العالم الإسلامي. وقد ذهبنا هنا إلى أن هذا الانشطار الدولي الجديد سيعمِّق انزياح القوة من الغرب الأطلسي إلى الشرق الآسيوي/الأوراسي. ورغم أن هذه الظاهرة بدأت منذ عقود، وتسارعت منذ مطلع القرن الحادي والعشرين مع النهضة الاقتصادية في الصين، والصحوة الدينية-القومية في روسيا، فإن حرب أوكرانيا الحالية ستعجِّل بحركة التاريخ فيما يبدو، وستزيد تسارع هذه الظاهرة الجديرة بالتأمل، التي سمَّيناها هنا "شروق الشرق وغروب الغرب".

ونحن ندين بهذا المصطلح البديع لأحد بُلَغاء اللغة العربية المعاصرين، هو الكاتب المصري، أحمد حسن الزيات (1885-1968)، الذي استخدم هذا التعبير ضمن مقال له عام 1938 دفاعًا عن فلسطين، ختَمه مهدِّدًا المستعمر الإنكليزي المتواطئ مع الاحتلال اليهودي لفلسطين: "وفلسطين كانت منذ أنشأها الله بلاءً على المعتدي، وشؤمًا على الظالم. وقد التقى عندها الغرب والشرق مرَّةً في عهد عمر [بن الخطاب]، ومرة في عهد صلاح الدين [الأيوبي]، فكانت العاقبة في كلتا المرَّتين **غروبُ الغرب وشروقُ الشرق**"(1). وقد استخدم الزيات هذا التعبير المجازي ضمن حديثه عن التدافعات الحضارية بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ونحن نستخدمه في سياق التدافعات والصراعات الحضارية الحالية.

على أن المقصود بالشرق في عنوان هذه الدراسة ليس الشرق الإسلامي الذي قصده الزيات في مقاله، بل الشرق الآسيوي/الأوراسي، خصوصًا الصيني منه، ولا مشاحَّة في الاصطلاح. والسبب هو أن العالم الإسلامي -بمنطق الجغرافيا السياسية- ليس جزءًا من الشرق ولا من الغرب، وإنما هو منطقة بيْنِيَّة وسيطة بين الاثنين، وفضاء حضاري متميز له سماته الجيوستراتيجية الخاصة. وسنشرح ملامح الجغرافيا السياسية الإسلامية فيما بعد.

لقد انسكب الكثير من الحبر في الأعوام الأخيرة في الحديث عن صعود آسيا بشكل

عام، والصين بشكل خاص، إلى الصدارة العالمية، على حساب القوى الغربية السائدة، وفي الحديث عن الانبعاث الإستراتيجي الروسي في عهد فلاديمير بوتين، بعد أعوام التخبط والوهَن في ظل حكم ميخائيل غورباتشوف (1931–2022) وبوريس يلتسن (1931–2009). ويمكن اعتبار النهضة الصينية والصحوة الروسية، في مواجهة النفوذ الأميركي والأوروبي، آخر تجليات الصراع التاريخي بين القوى البرية والقوى البحرية في العالم، ذلك الصراع الذي يسميه الفيلسوف السياسي الروسي، ألكسندر دوغين، "الثنائية الجيوبولتيكية الخالدة"(2).

وقد كتب الدارسون المهتمون بهذا الشأن انطلاقًا من خلفيات ودوفع شتى، فمنهم الآسيوي المتحمِّس لدولة حضارية آسيوية جديدة، ومنهم الغربي المتوجِّس من "العاصفة الصينية المتحفِّزة" بتعبير جون مِيرْشايْمَرْ الذي سنعود إليه فيما بعد، ومنهم المحايد الساعي إلى صياغة أسس جديدة للتعايش الدولي. لكن جميعهم متفقون على أن صعود آسيا، وتصدُّر الصين للمشهد العالمي، أمران آتيان لا محالة. على أن مجال الإضافة في هذه الدراسة للجدل الأكاديمي الغربي والآسيوي في هذا الموضوع هو تأثير هذا التحول العميق على العالم الإسلامي، بمعناه الجغرافي–السياسي، منظورًا إليه هنا باعتباره حيِّزًا حضاريًّا واحدًا، وامتدادًا جغرافيًّا متقاربًا، ووحدة تحليل يمكن النظر في مآلاتها الإستراتيجية ضمن سياق واحد.

والمنهج الذي نعتمده في هذه الدراسة هو منهج الجغرافيا السياسية(3)، لا باعتبارها حقلًا معرفيًّا فقط، بل باعتبارها أيضًا منهجية خاصة لتحليل النظام الدولي، تحليلًا يعتمد العوامل الجغرافية منطلَقًا له، على نحو ما نبَّه عليه عدد من علماء الجغرافيا السياسية(4). فالجغرافيا هي أهم محدِّد من محددات السياسة، لأنها العنصر الثابت في الدولة، والمعبِّر عن اطِّراد قوَّتها وضعْفها. وقد عبَّر عن ذلك عالم الجغرافيا المصري، جمال حمدان (1928–1993)، بالقول: "الجغرافيا السياسية هي أساسًا العِلم الذي يضع الدولة في إطارها الطبيعي الباقي، ويردُّها إلى أصولها الجغرافية الدائمة الوثيقة"(5). كما عبَّر عنه المفكر الإستراتيجي الأميركي، نيكولاس سبيكمان (1893–1943)، في قوله الذي دار على ألسنة المختصين في هذا الشأن، حتى أصبح كالمثَل السائر: "الوزراء يتغيَّرون، وحتى الديكتاتوريون يموتون، لكن سلاسل الجبال تظل راسخة"(6).

لقد لاحظ مالك بن نبي منذ أكثر من سبعة عقود أن "العالم الإسلامي.. لكي يقوم بدور مؤثر فعال في حركة التطور العالمي، ينبغي أن يَعْرِف العالم، وأن يَعْرِف نفسه، وأن يُعرِّف الآخرين بنفسه"(7). فعسى أن تسهم هذه الدراسة في تعريف العالم الإسلامي بنفسه وبالعالم، وأن تفتح بابًا للتأمل الجاد في الإمكان المتاح للعالم الإسلامي بين القوى الغربية المتشبثة بمواقعها ونفوذها التاريخي، رغم أن قوتها في إدبار، والقوى الشرقية المقبلة، المتحفزِّة إلى ملء الفراغ الإستراتيجي في هذه المنطقة، ووراثة النفوذ الغربي الآفل فيها. فالعالم الإسلامي في مسيس الحاجة إلى أفكار واضحة عن هذه المعادلات المتحولة في موازين القوى الدولية، لكي ينتقل من موقع المنفعل إلى موقع الفاعل.

القوَّتان الصاعدة والسائدة

منذ نحو ألفين وخمسمئة عام، كتب المؤرخ اليوناني، ثوسيديد (460–400 ق.م.)، عن أسباب الحرب بين إسبرطة وأثينا، وبعد أن شرح الأسباب المباشرة للحرب، قدَّم تفسيرًا أعمق لجذور الأزمة بين الطرفين، فكتب: "في رأيي أن السبب الحقيقي الذي قاد إلى الحرب، وإن لم يكن معترَفًا به علنًا، هو تصاعد القوة الأثينية، والخوف الإسبرطي من تلك القوة"(8). وقد صاغ المفكر السياسي الأميركي، غراهام أليسون، من مقولة ثوسيديد نظرية في العلاقات الدولية، سمَّاها "شِراك ثوسيديد" Thucydides's Trap، تقول بحتمية المواجهة بين القوة الصاعدة والقوة السائدة، وطبَّقها على العلاقات الأميركية–الصينية، فذهب إلى أن مآل القوة الصينية الصاعدة والقوة الأميركية السائدة هو الحرب بينهما، حتى وإن لم يكن ذلك برغبة أي منهما.

والسبب في ذلك –كما يذهب أليسون– هو أن أميركا لن ترضى بصعود الصين، وأن الصين لن تتنازل عن طموحها إلى الهيمنة العالمية. فالمواجهة بين الصين والولايات المتحدة أمرٍ حتمي وطبيعي في تقديره، وهو المآل الذي يزكِّيه استقراء التاريخ، حسب رأيه. وقد ألَّف أليسون كتابه: **الحرب الحتمية: هل تستطيع الصين والولايات المتحدة تفادي شراك ثوسيديد؟** لتسويغ هذه الفكرة وتسويقها، فبدأ الكتاب هذه البداية المتوعِّدة: "منذ مئتي عام قال نابليون مُنذِرًا: (دَعُوا الصين تغطُّ في نومها، فإنها إذا استيقظت ستُزلْزِل العالم). وقد استيقظت الصين الآن، وبدأ العالم يتزلزل"(9).

ثم قدَّم استقراء لستٍّ عشرة حالة من العلاقات بين القوى الصاعدة والقوى السائدة خلال القرون الخمسة المنصرمة، فوجد أن اثنتي عشرة منها انتهت بالحرب.

وقد ظهرت أطروحة أليسون ضمن جدل ساخن بين المفكرين الإستراتيجيين منذ عَقدين من الزمان حول مآلات العلاقات بين الصين والولايات المتحدة. حيث ذهب عدد من المنظرين الغربيين إلى حتمية الحرب بين العملاقين الدوليين، وذهب عدد من المنظرين الآسيويين إلى أن حالة التلاقي وتحقيق المصالح المشتركة هي التي ستسود بينهما، وأن لا مصلحة للصين في تحدي التوازن الدولي السائد، بينما رجَّح آخرون شيئًا من التنافس السلمي المنضبط الذي لا يصل درجة الحرب، وذهبوا إلى أن "الصين يمكن أن تكون -بالتوازي- سندًا لبعض مكونات التوازن الدولي الحالي، وتحديًا لمكوناته الأخرى"(10).

فمن القائلين بحتمية الصدام بين الصين والولايات المتحدة -إضافة إلى أليسون- منظِّر العلاقات الدولية الشهير، الأستاذ بجامعة شيكاغو، جون ميرشايمر، الذي سنُفيض في شرح رأيه لاحقًا. ومن النَّافين لكون الصين تهديدًا للولايات المتحدة عدد من الأكاديميين الصينيين، الذين يلحُّون على أن الصِّدام ليس جزءًا من ثقافة الصين التاريخية، لأنها ثقافة تُعلِي من قِيَم التعاون والسِّلم والروح الجماعية(11). ومن الآملين بالتعايش السلمي بين الطرفين، مع الاقتناع بأن العلاقات بينهما ستكون علاقة تنافس إستراتيجي، المفكر والدبلوماسي السنغافوري، كيشور محبوباني، الذي أفْردْنا له قسمًا من هذه الدراسة، والمفكر والسياسي الأسترالي، كيفين رَادْ، وهو مؤلف كتاب عن الموضوع بعنوان: **الحرب التي يمكن تفاديها**(12). وسنتناول نماذج من هذا التنظير بتفصيل، ضمن سياقها المناسب من هذه الدراسة.

لقد عرف التاريخ البشري منذ آلاف السنين صراعًا دائمًا بين القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى، بدوافع مادية ومعنوية كثيرة، وحدد هذا الصراع مصائر العديد من الشعوب والحضارات. وقدَّم الآباء المؤسسون لعلم الجغرافيا السياسية المعاصرة نظريات مهمة، تحولت مفاتيح تحليلية في هذا المضمار. ومن هذه النظريات نظرية "قلب الأرض" Heartland التي صاغها البريطاني، هالفورد ماكيندر (1861-1947)، في كتابه **المُثُل والوقائع الديمقراطية** الصادر عام 1919. وخلاصتها أن أهم منطقة في العالم هي منطقة أوراسيا التي دعاها "قلب الأرض"، وهي تطابق مساحة الاتحاد

السوفيتي السابق تقريبًا، ومفتاحها السيطرة على أوروبا الشرقية. وذهب ماكيندر إلى أن من سيطر على تلك المنطقة انفتحت أمامه أبواب السيطرة على العالم، فصاغ معادلته الشهيرة في جمل ثلاث:

- "من حكَم أوروبا الشرقية فقد تحكَّم في قلب الأرض.
- ومن تحكَّم في قلب الأرض، فقد تحكَّم في الجزيرة العالمية.
- ومن تحكَّم في الجزيرة العالمية فقد سيطر على العالم"(13).

ولنظرية "قلب الأرض" سابقةٌ في كتابات الأميركي، ألفريدْ ماهانْ (1840–1914)، عن "اللُّبِّ الأوراسي"(14). لكن المفكر الإستراتيجي الأميركي، نيكولاس سبيكمان، سرعان ما تعقَّبَ ماكيندر، واعتبر معادلاته خاطئة تمامًا؛ إذ توصَّل إلى أن أهم منطقة إستراتيجية في العالم ليست "قلب الأرض" الذي أشاد به ماكيندر، بل "حافة الأرض" Rimland المحيطة بذلك القلب، وهي تشمل الهلال الممتد من شمال غرب أوروبا، مرورًا بالشرق الأوسط، وصولًا إلى جنوب شرق آسيا. وقد صاغ سبيكمان رؤيته في معادلة جديدة من جملتين اثنتين، هما:

- "من حكَم حافة الأرض فقد تحكَّم في أوراسيا.
- ومن تحكَّم في أوراسيا فقد سيطر على مصائر العالم"(15).

ومن فكرة "حافة الأرض" عند سبيكمان نبعت إستراتيجية الاحتواء الأميركية للقوتيْن الشيوعيتيْن العُظمييْن في القرن العشرين: الاتحاد السوفيتي والصين. وهي الإستراتيجية التي غذَّاها كل من هنري كيسنجر (1923---) وزبيغنيو بريجنسكي (1928–2017) بأفكارهما، واعتبرها بريجنسكي -بحقٍّ- امتدادًا للصراع التاريخي العتيق بين القوى البرية والقوى البحرية(16).

على أن ما يهمنا أكثر في هذه الدراسة هو ما انتبه إليه ونبَّه عليه جمال حمدان وآخرون من أن القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى كثيرًا ما تجعل من منطقة العالم الإسلامي الحالية -خصوصًا قلبها الشرق أوسطي- ساحة حرب، بحكم توسُّطها بين الطرفين؛ حيث "تحاول كل من قوة البر والبحر الاستيلاء على المنطقة البيْنية في الشرق الأوسط"(17).

والسبب في ذلك هو أن العالم الإسلامي منطقة وسِيطة؛ "فحدوده ترسم على

الخريطة في الواقع قارة حقيقية هي (القارة الوسيطة) كما سماها من قبلُ نابليون، رجل الفكر الإستراتيجي"(18). وهي تُغري كلًّا من قوى البر وقوى البحر، وتجذب كل الأمم التي تتصدر التاريخ العالمي، بحكم موقعها الإستراتيجي المتميز. وقد عبَّر حمدان عن ذلك بقوله: "أصبحت هذه المناطق البَيْنِيَّة... منطقةَ صراع، وأرضَ معركة، بين الطرفين القُطبيَّيْن. أصبحت محصورة بين شِقَّي الرَّحَى، تتنازعها هذه مرة وتلك أخرى، واتضحت حساسية موقعها الإستراتيجي في هذا الإطار. ولا تتمثل هذه الخاصية]في أي منطقة[كما تتمثل في منطقة الشرق الأوسط بحكم وقوعها بين فارس ووسط آسيا في جانب، وروما في جانب آخر"(19).

لقد تواتر الصراع التاريخي بين القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى في هذه المنطقة وعليها، ابتداء من الصراع الروماني الفارسي قبل الإسلام، مرورًا بالصراع بين العرب المسلمين والأوروبيين المسيحيين، ثم بين الترك المسلمين والأوروبيين المسيحيين. وفي العصور الحديثة تجدد الصراع على المنطقة بين الإمبراطوريتين، البريطانية والروسية، في القرن التاسع عشر، ثم بين الولايات المتحدة والاتحاد والسوفيتي في القرن العشرين. ويبدو أن الصراع الجديد على المنطقة بين الصين و(حليفتها روسيا) وأميركا (وحلفائها الأوروبيين) سيكون مَعْلمًا من معالم القرن الحادي والعشرين. وربما يشبه هذا الصراع اليوم تَوازِي العاصفة المغولية التي هبَّت على العالم الإسلامي من الشرق مع الاختراقات الصليبية لقلبه من الغرب، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

وكما لاحظ حمدان، فإن تواتر الصراع بين قوى البر وقوى البحر في هذه المنطقة وعليها طبع تاريخها بطابع خاص، وجعل الوعي الإستراتيجي بموقع هذه المنطقة على الساحة العالمية، وإدراك أهميتها لأهلها وللآخرين، أمرًا متعيِّنًا؛ إذ "النتيجة المهمة التي يمكن أن نخرج بها من هذه الصورة المتواترة في الصراع بين قوى البر والبحر هي أنها، وقد تضخَّمت وتطاولت أذرعتها إلى أبعاد شِبْه قارِّية، **قد أصبحت حساسة بالنسبة للمواقع البينية التي تفصل بينها**، وواعية بإستراتيجية الموقع"(20). وغاية هذه الدراسة هي توسيع مساحة الوعي بالموقع لدى أبناء هذه المنطقة، في لحظة تحوُّلٍ في النظام الدولي يتحفَّز الجميع لاقتناص فرصها، واجتناب مخاطرها.

قبولُ ما ليس منه بدٌّ

ينطلق المفكر والدبلوماسي السنغافوري، كيشور محبوباني، من موقع التحيز الصريح للهوية الآسيوية والقوة الآسيوية، وإن كان ذلك لا يطعن في عمق تحليلاته السياسية، ونفاذ بصيرته الإستراتيجية، فهو مفكر بارع، ودبلوماسي حصيف. وقد كتب محبوباني عدة كتب عن صعود آسيا والصين، منها:

- **نصف العالَم الآسيوي الجديد**، وهو مترجم إلى العربية(21)؛
- **القرن الحادي والعشرون الآسيوي؛ هل فازت الصين؟ التحدي الصيني للهيمنة الأميركية؛**
- **هل خسِر الغرب؟ أطروحة استفزازية؛**
- **هل يستطيع الآسيويون التفكير؟**(22).

وتتردد أطروحات محبوباني عن التراجع الغربي والصعود الآسيوي (خصوصًا الصيني) في كتبه كلها. لذلك سنكتفي برسم خطوطها العريضة، بقدر ما يسمح المقام والمساحة. يلاحظ محبوباني أنه "على مدار القرون الثلاثة الماضية، كانت شعوب آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية موادَّ للتاريخ العالمي، وكانت القرارات التي شكَّلت التاريخ تُتَّخذ في بضع عواصم غربية...، أما الآن فإن بقية شعوب العالم... لن تقبل أن يتم اتخاذ القرارات نيابة عنها في العواصم الغربية"(23).

ويجادل محبوباني بأن "العالم اليوم يقف على أحد أهم مفترقات الطرق في تاريخه" بحكم أننا "نبتعد عن تلك اللحظة الوجيزة التي هيمن فيها الغرب على التاريخ العالمي"(24). فالعالم يعيش اليوم "صحوة الحضارات والمجتمعات التي كانت في حالة هجوع مدة مديدة"، حسب تعبيره(25). وهو يلح على أن الإنسان الآسيوي -على وجه الخصوص- قد انتقل من طور المنفعل السلبي بالمبادرات الغربية، إلى طور الفاعل المشارك في صناعة تاريخ العالم المعاصر. وقد تجلى هذا الأمر في الصين أكثر من غيرها خلال العقود الأربعة الماضية؛ حيث استعاد الصينيون الثقة في حضارتهم واحترام ذاتهم.

وينصح محبوباني الغرب بقبولِ ما ليس منه بدٌّ، وهو -في نظره- التسليم بأن الصدارة الغربية للعالم قد أصبحت من الماضي، وأن القوة الآسيوية الصاعدة هي التي ستحدِّد

مصائر البشـــر في المستقبل. وهو يتبنى الرؤية الصينية والروسية الساعية إلى تفكيك الحلف الأطلسي، وفصْل الضفة الأوروبية من المحيط الأطلسي عن الضفة الأميركية. علمًـــا بأن روســـيا والصين تحاولان تحقيق هذه الغايـــة بطرائق مختلفة. ففي التنظير الإستراتيجي الروسي -الذي يعبِّر عنه دوغين- يأتي هذا المسعى في صيغة تصادمية فاقعة، بينما يسعى الصينيون إلى تحقيق ذلك الانفكاك بين أوروبا والولايات المتحدة بطريقة ناعمة، من خلال تشجيع الأوروبيين على الاعتماد على الذات، وبناء هويتهم الإســـتراتيجية المســـتقلة عن المظلة الأميركية. وقد عبَّر محبوباني عن الرؤية الصينية -كعادته- فنصح الأوروبيين بالحياد في التعاطي مع التنافس الصيني-الأميركي، قائلًا: "إن أفضل ما تفعله أوروبا هو أن تكون فاعلًا مستقلًّا: إذا كنتَ كبيرًا بما فيه الكفاية، فلستَ بحاجة إلى الدوران في فلَك طرف آخر"(26).

وقدَّم محبوباني النصيحة ذاتها لأستراليا، التي هي امتداد حضاري غربي في المحيط الهـــادئ، يـــكاد يلامس القارة الآســـيوية، وقد انضمت في الأعـــوام الأخيرة لحلف أنكلوساكســـوني معاد للصين هو حلف "أوكوس" (AUKUS). فقد نصح محبوباني أســـتراليا بالاعتراف بالبيئة الآســـيوية التي تنتمي إليها مكانًا، بدل المراهنة على القوة الأميركية البعيدة، تأسِّـــيًا بدول أميركا الجنوبية في تكيُّفها مع قوة جارتها الشـــمالية القوية، الولايات المتحدة: فقال: "في حالة أستراليا، نصيحتي هي أنه بما أن أستراليا محاطة بأربعة مليارات آسيوي، فعليها التكيف مع هذه الحقيقة"(27).

ويبقى التحدي الأساســـي بالنسبة لمصائر النظام الدولي والسِّلم العالمي هو مستوى قبول الغرب للصعود الآســـيوي عمومًا، والصيني خصوصًا؛ حيث يذهب محبوباني إلى أن الدول الغربية "قد شـــعرت بالاضطراب مع نهوض دول آسيا"(28)، رغم أنه "من غير المجدي أن يتصور 12٪ من سكان العالم أنهم يمكنكم أن يقرروا مصائر النسبة الباقية التي تمثل 88٪ من سكان العالم. وحتى الآن ترغب الأغلبية في العمل مع الغرب. ومع ذلك فإذا ما حاول الغرب أن يستمر في سيطرته، فسيكون هناك رد فعل عنيف لن يمكن تجنبه. هذا هو الســـبب في وقوف البشـــرية عند مفترق طريق حاسم للتاريخ"(29).

ورغـــم أن محبوبانـــي ليس معاديًا للغرب عداءً أيديولوجيًّا -على غرار دوغين مثلًا- فإن نصيحته للغرب بالتســـليم تنطوي على تهديد ضمني بأن أي مسعى في التصدي

لصعود آسيا عمومًا، والصين خصوصًا، سينتهي بالغرب خاسرًا مكانته الدولية، ومنكفئًا على نفسه. وقد قدَّم دوغين نصيحة مشابهة لأوروبا بأن تكون أكثر من مجرد رأس جسر أميركي، وميَّز بين حافتها الأطلسية وقلبها القارِّي(30). ومن الواضح أن نصيحة محبوباني للغرب بالتسليم لصعود آسيا، ولأوروبا بالتحرر من المظلة الإستراتيجية الأميركية، ولأستراليا بالتكيف مع محيطها الآسيوي، ليست بريئة، ولا هي مدفوعة بدوافع السلم والتعايش فقط، وإنما لها مآرب أخرى، أهمها تسهيل الصعود الآسيوي عمومًا، والصيني خصوصًا، دون عوائق. إنه منطق القوى الصاعدة، التي تسعى إلى طمأنة القوى السائدة، حرصًا على التمكُّن بأقل ثمن مُمْكِن. لكن الغرب الذي اعتاد التصدُّر لا يستمع لهذه النصائح كثيرًا، وهو لن يرضى بالمقاعد الخلفية دون مواجهات ومدافعات على الراجح، كما سنرى في التوجس الأميركي من صعود الصين في الفقرة التالية من هذه الدراسة.

وقد اهتمَّ محبوباني اهتمامًا إيجابيًّا بالعالم الإسلامي، باعتباره -في نظره- جزءًا من القوة الآسيوية، بعيدًا عن نوازع التعصب التي تظهر لدى بعض المثقفين الآسيويين غير المسلمين أحيانًا، وهذا مما يُحسَب له. فآسيا التي يبشر محبوباني بصعودها إلى الصدارة العالمية تتألف من ثلاثة مكونات أساسية، هي: الصين والهند والعالم الإسلامي. وهو يركز على الشطر الآسيوي من العالم الإسلامي، وهذا أمر مفهوم لأسباب أيديولوجية وإستراتيجية، فضلًا عن أن الشق الآسيوي من العالم الإسلامي هو مركز ثقله البشري والجغرافي.

بيد أننا نتحفظ على اعتبار محبوباني العالمَ الإسلاميَّ مجردَ مكون من مكونات الظاهرة الآسيوية، ونرى ضرورة اعتبار العالم الإسلامي حيِّزًا حضاريًّا واحدًا، وكتلة جيوستراتيجية متميزة عن غيرها، دون أن ينفي ذلك تداخله مع العالم الآسيوي حيث يتمدد جناحه الشرقي، أو تداخلَه مع العالم الإفريقي حيث يتمدد جناحه الغربي، كما سنبيِّنه لاحقًا. فالعالم الإسلامي أكبر من جناحه الآسيوي، ومن جناحه الإفريقي، حتى وإن كان بينه وبين كلٍّ من هذين الحيِّزين الجغرافيَّين عمومٌ وخصوصٌ.

ويجب التذكير في هذا السياق بأن عددًا من المثقفين المسلمين الآسيويين سبقوا محبوباني إلى التبشير بفجر **النهضة الآسيوية**. ومنهم المفكر والسياسي الماليزي، أنور إبراهيم، الذي أصدر كتابًا بهذا العنوان منذ أكثر من ربع قرن(31). كما أن

تمايز العالم الإسلامي عن الهوية الآسيوية إشكال قديم، نجد صداه منذ نحو قرن في الخلاف السياسي بين شاعر الإسلام، محمد إقبال (1877–1938)، والزعيم الهندي، ماهاتما غاندي (1869–1948)، رغم الاحترام الشخصي العميق بينهما. فقد أصرَّ غاندي على جعل الهوية القومية الهندية أساس الاجتماع السياسي في الهند، بينما آمن إقبال بأن العقيدة والثقافة أهم للاجتماع السياسي السليم من الرابطة القومية، وتوصَّل إلى أن الفجوة الثقافية بين المسلمين والهندوس تجعل من الأسلم للطرفين أن يعيشا في كيانين سياسيين منفصلين(32). فكان خطابه الشهير في مدينة "الله آباد"، عام 1930، الذي يعتبره المؤرخون وثيقة الميلاد لجمهورية باكستان الإسلامية.

فرغم أن محبوباني لا ينطلق من أرضية التحيز ضد العالم الإسلامي، وأن إدراجه إيَّاه ضمن المنظومة الآسيوية صادر عن موقف متعاطف، فإن الثمرة العملية المترتبة على تحليله هنا تلتقي -بحسن نية- مع الثمرة العملية التي انتهى إليها المنظِّرون الغربيون بسوء نية. وهم الذين اعتبروا العالم الإسلامي مجرد ساحة لحروبهم، أو أداة لترسيخ قوتهم، لا كيانًا حضاريًّا مترابطًا، ومجالًا جيوستراتيجيًّا واحدًا، له ماهيته وهويته ومطامحه على الساحة الدولية. وسنستعرض لاحقًا نظريات هؤلاء المنظرين الغربيين وموقع العالم الإسلامي في كل منها.

منطق الواقعية الهجومية

وفي مقابل هذا الخطاب السياسي الساعي إلى الكفْكَفة من مخاوف الغرب، الذي نجده عند محبوباني وعددٍ من الأكاديميين الصينيين، يوجد خطاب آخر متوجِّس من الصعود الصيني، إذ يراه نذير شؤم على القوة الغربية عمومًا، والأميركية خصوصًا. وليس الخوف الغربي من صعود الصين بالأمر الجديد، فقد أوردنا من قبل مقولة نابليون بونابرت (1769–1821) في مطلع القرن التاسع عشر، التي يحذِّر فيها من يقظة الصين. كما ظهر التوجس من صعود الصين في مطلع القرن العشرين لدى منظِّر الجغرافيا السياسية البريطاني، هالفورد ماكيندر، وبنبرة عنصرية فجَّة؛ حيث حذر ماكيندر مما دعاه "الخطر الأصفر" الصيني في خطابه الشهير: "المحور الجغرافي للتاريخ"(33) الذي ألقاه أمام "الجمعية الملكية الجغرافية" مطلع العام 1904، وتحول نصًّا تأسيسيًّا في علم الجغرافيا السياسية. لكن تلك التحذيرات المبكِّرة، الصادرة عن

رجـــال من أمثال نابليـــون وماكيندر، كانت مبنية على افتراضات لا أكثر، إذ لم تكن الصين يومذاك قوة يُحســـب لها حســـاب جديٌّ. لذلك فإن ما يهمنا هنا هو التوجس الغربي الحالي من القوة الصينية الصاعدة، بعد أن أصبح هذا الصعود واقعا مَعيشًا. وســـنأخذ أحد أبـــرز المنظرين الأميركيين لعلم العلاقـــات الدولية في عصرنا، وهو الأستاذ بجامعة شيكاغو، جون ميرشايمر، مثالًا على هذا المنحى من التفكير.

اشـــتهر جون ميرشـــايمر بأنه أحد أبرز المدافعين عن المدرسة الواقعية في العلاقات الدولية. وهو معروف بعدد من النظريات المشتقة من تلك المدرسة، أهمها لموضوعنا هنـــا نظرية "الواقعية الهجومية"(34) التي تقضي بأن أي قوة عظمى تســـعى بطبيعتها إلى تحصيل أعظم قدر من القوة على حساب القوى العظمى الأخرى، وبأن العالم في حال تعدُّد الأقطاب القوية أقربُ إلى اندلاع الحرب منه في حال القطب الواحد المهيمن. وتطبيقًا لهذه النظرية، ذهب ميرشايمر في كتابه **مأساة سياسة القوى العظمى**، الصادر منذ أكثر من عَقدين، إلى أن الصين "ستترجم على الراجح قوتها الاقتصادية إلى قوة عسكرية، ثم تسعى إلى الهيمنة على جنوب شرق آسيا"(35). وهذا أمر لن تقبلـــه الولايات المتحدة في رأيه، ولذلك فـــإن "الصين والولايات المتحدة محكوم عليهما بأن يكونا خصمين مع تعاظم القوة الصينية"(36).

ولا يزال ميرشـــايمر مدافعًا عن هذا المنحى من التحليل في كتاباته المتأخرة، وفي محاضراته الوافرة، حتى اليوم. فقد وسَّع كتابه الصادر عام 2001 فأضاف إلى طبعته الموسَّـــعة، الصادرة عام 2014، فصلًا ختاميًّا بعنوان: "هل يمكن أن تتصَّدر الصين سلميًّا؟"(37). كما نشر أكثر من مقال أكاديمي ومقال رأي دفاعًا عن هذه الأطروحة، أهمها بحث منشور في **المجلة الصينية للسياسة الدولية** بعنوان: "العاصفة المتحفِّزة: تحدِّي الصين للقوة الأميركية في آسيا"(38).

إن مفتاح الهيمنة الدولية من منظور الواقعية الهجومية التي يؤمن بها ميرشـــايمر هو أن تتمكن دولة كبرى من الهيمنة على إقليمها أوَّلًا، ثم تَحْرِم الدول القوية الأخرى من الهيمنة على أقاليمها الخاصة. ويرى ميرشـــايمر أن الولايات المتحدة "لأســـباب إستراتيجية وجيهة"(39) قضت القرن الأول من عمرها، وهو القرن التاسع عشر، في الســـعي لاحتكار الســـيطرة في محيطها الإقليمي، وطرد القوى الأوروبية (البريطانية والإســـبانية والفرنســـية) من القارة الأميركية. فلما تحققت لها الهيمنة الإقليمية في

القــارة الأميركية -طِبقًا لما عُرف بـــ"عقيــدة مونرو"-(40) قضت القرن الثاني من عمرها، وهو القرن العشرون، في السعي إلى حرمان أي دولة أخرى من الهيمنة في أي إقليم آخر من أقاليم العالم، سواء اليابان الإمبراطورية، أو ألمانيا النازية، أو روسيا السوفيتية. وقد نجحت في الحالتين خلال هذين القرنين، حسب تحليل ميرشايمر.

ويذهب ميرشــايمر إلى أن ما ســتفعله الصين بعد تصاعد قوتها هو "الاقتداء بالعمِّ سام"(41)، أي انتهاج نفس النهج الإستراتيجي الذي سبقتها إليه الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، فالصين تسعى اليوم إلى الهيمنة على إقليمها، خصوصًا سواحل المحيط الهادئ الآسيوية، وزيادة فجوة القوة بينها وبين جيرانها الإقليميين الأقوياء: الهند واليابان وروسيا، ثم "رسْم حدود السلوك المقبول من طرف جيرانها"(42)، كما فعلت الولايات المتحدة في جوارها من قبل، والاجتهاد في إضعاف هؤلاء الجيران، كما حرصت الولايات المتحدة على إضعاف جارتيها الإقليميتين، كندا والمكسيك.

وبالمجمل، فإن الصين ستكون لها "عقيدة مونرو" الخاصة بها، كما يرى ميرشايمر. لكنهــا لن تحقق مقتضيات تلك العقيدة الإســتراتيجية، وهــي الهيمنة الإقليمية، إلا بعد مواجهة شــاملة مع الولايات المتحــدة. فمنطق "الواقعية الهجومية" الذي يؤمن به ميرشايمر يستلزم حرمانَ الولاياتِ المتحدةِ الصينَ من الهيمنة الإقليمية في شرق آسيا، ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا. وهكذا سيؤول الأمر إلى وقوع هذين العملاقين في "شراك ثوسيديد"، ونشوب حرب إستراتيجية باردة أو ساخنة بينهما، طبقًا لمعادلة الصــراع المعتــاد بين القوة الصاعدة والقوة الســائدة. ويتفق المفكر الإســتراتيجي الأميركــي، روبرت كابلان، مع ميرشــايمر في أن "القــوة الاقتصادية الصينية -التي تترافق على نحو متزايد مع القوة العســكرية- ســتؤدي إلى درجة محورية من التوتر خلال السنوات المقبلة"(43)، وأن من أسباب ذلك أن "الولايات المتحدة بوصفها قوة إقليمية مهيمنة في نصف العالم الغربي، سوف تسعى إلى منع الصين من أن تصبح قوة إقليمية مهيمنة على جزء كبير من نصف العالم الشرقي"(44).

وتبــدو لنا نظرية ميرشــايمر في الواقعيــة الهجومية وصفًا أمينًــا لقرنين من صعود الولايات المتحدة، من مســتعمرة أوروبية صغيرة متحصِّنة وراء المحيطين الأطلسي والهادئ، إلى قوة عالمية مهيمنة على العالم. لكن هذه النظرية قد لا تصلح بالضرورة لتفســير المسار التي ستتَّبعه النهضة الصينية، أو الصحوة الروسية، أو صعود أي قوة

دولية أخرى في المستقبل، بما فيها الكتلة الإسلامية. ولعل بعض القوى الصاعدة الجديدة تستخلص العبرة من التاريخ الأميركي، فتتبنى "واقعية دفاعية"، بدل "الواقعية الهجومية" التي سادت في التاريخ الأميركي. فإصرار ميرشايمر على قراءة مسار كل قوة صاعدة جديدة بعيون التاريخ الأميركي يحتاج التعاملَ معه بتحفظ، إذ قد يكون مجرد أثر من آثار المركزية الثقافية الأميركية.

ومما يهم مقاصد دراستنا هذه، مكانة العالم الإسلامي في الصراع الآتي بين الصين والولايات المتحدة. وهنا يزودنا ميرشايمر ببعض الملاحظات الثمينة، فهو يعتبر العالم الإسلامي جزءًا من ساحة الصراع بين الشرق والغرب. حيث يذهب ميرشايمر إلى أن الصراع الآتي بين الصين والولايات المتحدة لن يتوقف عند سواحل المحيط الهادئ، مثل مشكلة تايوان، وبحر الصين الجنوبي، وبحر الصين الشرقي. بل سيتمدد إلى مناطق أخرى تتزاحم فيها مصالح الدولتين ومطامحهما، ومنها مناطق مهمة من العالم الإسلامي، مثل منطقة جنوب شرق آسيا، وإقليم الشرق الأوسط، وخصوصًا سواحل الخليج، وقد كتب عن ذلك يقول:

"**نظرًا لاعتماد الصين على نفط الخليج، فمن الراجح أنها ستتنافس مع الولايات المتحدة على النفوذ في هذه المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية، بنفس المنحى التي نحاه الاتحاد السوفيتي من قبل**. وليس اجتياح الصين للشرق الأوسط بالأمر المرجَّح، لأنه بعيد عن الصين، ولأن الولايات المتحدة ستسعى لإفشال هذا الهجوم يقينًا. **ولكن من الراجح أن الصين ستؤسس لحضور عسكري دائم في المنطقة إذا استعان بها حليف مقرَّب. على سبيل المثال من الممكن تصور إيران والصين وقد رسَّخا العلاقات بينهما، ثم إذا بإيران تطالب باستقرار قوات صينية على أرضها**. وباختصار، فإذا كان الأميركيون والسوفيت قد تنافسوا بقوة في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط، **فإن الصين والولايات المتحدة ستتنافسان غالبًا في آسيا والشرق الأوسط فقط**"(45).

وكأنما يتنبأ ميرشايمر هنا منذ العام 2010 باتفاقية "الشراكة الإستراتيجية الشاملة" بين الصين وإيران، التي وقَّعتها الدولتان عام 2021، وتضمنت التعاون الإستراتيجي لمدة ربع قرن في كل المجالات، بما فيها المجال العسكري(46). وقد توقع ميرشايمر أيضًا أن تكون "الخطوط البحرية الرابطة بين الصين والشرق الأوسط"(47) ضمن جبهات

المواجهــة بين الولايات المتحدة والصين، خصوصًا مضيق مَلَقَة الفاصل بين ماليزيا وإندونيســيا وســنغافورة، وهو شريان الحياة بالنسبة للتجارة الدولية الصينية، ولذلك يتحدث المنظِّرون الإســتراتيجيون الصينيون على الدوام عن "معضلة ملَقَة"(48). إن الملاحظات الثمينة من ميرشــايمر تقرِّبنا أكثر من قلب الجغرافيا السياسية الإسلامية التــي ســنتحدث عنها بتفصيل، لكــن بعد التعريج على مكان روســيا ومكانتها في الانزياحات الجديدة للقوى الدولية.

صحوة روسيا الأوراسية

فــي يــوم 25 يناير/ كانون الثاني 1991، أعلن ميخائيل غورباتشــوف اســتقالته من رئاســة الاتحاد الســوفيتي، وأُنزل العلَمُ الأحمر من فوق مبنى الكرملين، في إعلان رســمي لوفاة الدولة السوفيتية، التي أقضَّت مضاجع الغرب لسبعة عقود، بالخصومة الأيديولوجية، والتحدِّي الإستراتيجي. كان غورباتشوف يومها شابًّا (60 عامًا) بمعايير الشــيخوخة السياسية السائدة في القيادة الســوفيتية؛ حيث رحل قبله عدد من القادة الشيوعيين الهَرمين الذين كانوا يتربَّعون على هرَم السلطة في موسكو، ومنهم ليونيد بريجنيف (1906–1982)، ويوري أندروبوف (1914–1984)، وقســطنطين تشرنينكو (1911–1985). وقد مكث كل من الأخيريْن في الســلطة عامًا واحدًا فقط قبل أن يتخطَّفه الموت.

وكان غورباتشوف مثاليًّا حالمًا، مع شيء من السذاجة السياسية في نظرته إلى الغرب. فقد تصوَّر أن الاتحاد الســوفيتي ســيصبح دولة أوروبية بدون اعتراض من القوى الغربيــة، خصوصًا الولايات المتحدة الغريم التقليدي للروس الذي تســتظل أوروبا بمظلته الإســتراتيجية منذ ختام الحرب العالمية الثانية. فقد كتب غورباتشــوف في كتابــه **البيريســترويكا** –الذي ضمَّنه مراجعاته الأيديولوجية ورؤيته المســتقبلة– هذا النص المعبِّر عما كان يختلج في نفسه من أحلام تكشَّفت فيما بعد عن أوهام:

"يحاول البعض أن يســتبعد الاتحاد الســوفيتي من أوروبا. ومن حين لآخر، وكمــا لــو كان عن غير قصد، يســاوون مفهوميْ أوروبــا وأوروبا الغربية. ومــع ذلك، فإن **مثــل هذه الألاعيب لا يمكنها أن تغيــر الحقائق التاريخية والجغرافية**. إن علاقات روسيا الثقافية والتجارية والسياسية مع شعوب أوروبا

ودولهـــا الأخـــرى لها **جذور عميقة في التاريخ. ونحن أوروبيون. لقد كانت المســـيحية توحِّد روســـيا القديمة مع أوروبا، وسوف نحتفل في العام القادم (1988) بمرور ألف عام على دخول المسيحية أرض أسلافنا. وتاريخ روسيا هو جزء عضوي من تاريخ أوروبا العظيم**. لقد أسهم الروس، والأوكرانيون، والبيلوروسيون، والمولدافيون، والليثيون، والأستونيون، والكاريليون، وغيرهم من شعوب بلادنا [السوفيتية]، إسهامًا ذا شأن في تطور الحضارة الأوروبية. **ولذلك فإنهم يعتبرون أنفسهم ورثتَها الشرعيين**"(49).

من العسير أن نجد نصًّا أبلغ تعبيرًا عن التحول الأيديولوجي الذي كان يعيشه الاتحاد السوفيتي في ختام الثمانينات من هذا النص. فغورباتشوف الذي كان لا يزال يومها رئيسًـــا للاتحاد الســـوفيتي، وأمينًا عامًّا للحزب الشـــيوعي السوفيتي، يكتب هنا عن الإرث الديني والتاريخي المشـــترك بين روسيا وخصومها الأوروبيين، ويعتز بالهوية المسيحية لروسيا، ويراهن على أنها ستصبح دولة أوروبية. وقد كرر غورباتشوف في كتابه الإلحاح على مفهوم "**البيت الأوروبي المشترك**"(50) الذي يتَّسع لروسيا، ولدول أوروبا الشرقية، التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي أو دائرةً في فلكه. كما دعا إلى "حل كافة الأحلاف العسكرية"(51) وهو يقصد في المقام الأول الحلفيْن المهيمنيْن على الفضاء الأوروبي، حلف الناتو وحلف وارسو.

لكن ما لم يدركه غورباتشوف -لسذاجته السياسية- هو أن القوة الأميركية، الممسكة بالقرار الإستراتيجي الأوروبي منذ خواتيم الحرب العالمية الثانية، لن تسمح بتحول روسيا إلى دولة أوروبية، مهما يكن منطق التاريخ والجغرافيا. لأن انضمام روسيا إلى أوروبا يجعلها الدولة المهيمنة داخل الإقليم الأوروبي، ويُغني الأوروبيين عن المظلة الإســـتراتيجية الأميركية، ويُرجِّح كفة القـــوى البرية الكبرى على كفة القوى البحرية الكبرى، في ذلك الصراع الأبدي بينهما.

فقَدَ غورباتشـــوف منصبه ودولته الســـوفيتية في يوم واحد، وتحطَّم حُلمه الأوروبي الســـاذج على صخرة المعادلات الإســـتراتيجية الصلبة، واستغلَّت الولايات المتحدة حالة الضعف والفوضى الروســـية، فوسَّـــعت مســـاحة حلف الناتو شرقًا إلى تخوم روســـيا، ضاربة عرض الحائط بتحذير غورباتشـــوف من أن "الحواجز القائمة [بين روســـيا والغرب] لا يمكن تخطِّيـــها **إذا ما فرض الغرب طوقه على الشـــرق**"(52).

واســتمر الأميركيون في توســيع الناتو الذي بدأ عام 1949 باثنتي عشــرة دولة فقط، ثم توسَّــع عشــر مرات، ابتداء من التوسعة الأولى عام 1952، إلى التوسعة العاشرة هذا العام (2023) التي انضمت إليه بمقتضاها جمهورية فنلندا، فأصبحت جزءًا مهمًّا من الطوق الإستراتيجي الغربي على روسيا. وهو الطوق الذي حذَّر منه غورباتشوف منذ ثلث قرن، ويسعى بوتين إلى فَكِّه اليوم بأي ثمن. وقد تنضم مملكة السويد في القريب العاجل إلى الناتو، ليصل بذلك عدد أعضاء الحلف إلى اثنتين وثلاثين دولة.

وكان توسُّــع الناتو شــرقًا مصدر شكوى وقلق روســي دائم، بحكم أن الحلف لم يتأسس أصلًا إلا لمواجهة روسيا، وبحكم التفاهم الضمني بين غورباتشوف والقادة الأميركيين في ختام الحقبة السوفيتية على عدم توسيع الناتو فيما وراء ألمانيا، مقابل سماح غورباتشوف بتوحيد شطريْ ألمانيا، وباستقلال الشعوب التي كانت جزءًا من الإمبراطورية الســوفيتية. والأهم من ذلك أن توسُّــع الناتو شــرقًا يعدُّ مناقضة تامة للمنظور الإســتراتيجي الروسي، المستمَدِّ من تجربة الروس المريرة مع غزو نابليون لبلادهم مطلع القرن التاســع عشــر، وغزو هتلر لها منتصف القرن العشــرين. لقد توصل الروس إلا أن بلادهم ذات الأراضي المترامية الواسعة، والسهوب المكشوفة الشاسعة، لا يتحقق لها الأمان الإستراتيجي إلا بمبدأ النواة والغلاف: النواة السلافية وغلافهــا مــن دول الجوار التابعة، أو الصديقة على الأقل: غربًا في شــرق أوروبا، وجنوبًا في آسيا الوسطى.

وهكذا صعد فلاديمير بوتين إلى قيادة روســيا، عام 2000، وهو مشــحون بالروح الانتقامية الســاخطة على ما آلت إليه أمور روسيا من تضعْضُع وهَوان، بعد عَقْد من الاضطراب والفوضى، وتراجع المكانة، وانحســار المكان، أثناء حكم غورباتشــوف ويلتسن. وقد عبَّر بوتين أكثر من مرة عن حزنه العميق على ضياع المجال الإمبراطوري الروســي على أيدي القادة الضعاف الذين ســبقوه، ففي خطاب له عام 2005، قال بوتين: "ينبغي أن نعترف بأن **انهيار الاتحاد السوفيتي كان كارثة جيوبوليتيكية في ذلك القرن [العشــرين]**. وبالنســبة للأمة الروسية تحول الأمر إلى مأساة حقيقية، **فعشرات الملايين من مواطنينا وقومنا وجدوا أنفسهم خارج حدود الدولة الروسية**. بل إن داء التفكك لامسَ روســيا ذاتَها... **وتحطَّمت المُثُل القديمة... وأصبح الفقر هو الحال السائد بين جماهير الشعب**"(53).

فهنا نجد بوتين يشـــخِّص الأزمة البنيوية التي كانت تعاني روسيا منها يومذاك، وهي أزمة مركَّبة تشمل انحسار الجغرافيا السياسية، وتضعْضُع المكانة الإستراتيجية، وتراجع القيـــم الاجتماعية، وتفاقم المعضلات الاقتصادية. واللافت للنظر أن خطاب بوتين، عام 2005، جاء بعد التوســـعة الخامســـة لحلف الناتو، عـــام 2004، والتي انضمت بمقتضاها سبع من الدول الأوروبية التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفيتي أو مجاورة له إلى الحلف. وبناء على هذا التشخيص قرر بوتين استعادة المجد الروسي الضائع بأي ثمن، ولم يراهن –وهو رجل الاســـتخبارات ذو القلب الجليدي– على الأوهام التي راهن عليها غورباتشوف ويلتسن من قبل، وهي تحويل روسيا إلى دولة أوروبية بل راهن على إعادة بناء القوة الروسية، رغم أنف أوروبا والغرب، من خلال إحياء المســـيحية الأرثوذكسية، والاعتزاز بالتاريخ الروسي، وتدعيم النواة السلافية الصلبة، واســـتعادة ما أمكن من الغلاف الإســـتراتيجي الذي تحتمي به روسيا، وهو الغلاف الذي يسميه الباحث، جيرالدْ تُولْ، "الخارج القريب"، مقابل "الخارج الداخلي"، الذي يقصد به إقليم الشيشان وغيره من مناطق الحكم الذاتي في الداخل الروسي(54).

وبخلاف غورباتشوف المتجه غربًا، تبنَّى بوتين أفكار ألكسندر دوغين، وسلفِه بيوتر سافيتسكي (1895–1968) الذي يصَفه دوغين بأنه "الكاتب الروسي الأول (والوحيد) الذي يمكن وصفه بالعالِم الجيوبوليتيكي، بكل ما في الكلمة من معنى"(55). فقد دعا سافيتسكي الروس إلى التوجه جنوبًا وشرقًا، أي في اتجاه الشعوب التركية والصينية، بدل التعلق بأذيال الغرب، وأشاد –على غير عادة الكتَّاب الروس– بالعلاقات التاريخية بين الروس والشـــعوب التركية في وســـط آسيا، باعتبار هذه العلاقة هي التي أبعدت روسيا ثقافيًّا عن أوروبا، وحققت لها "استقلالها الروحي عن العالم الرومانو–جرماني العدواني"، حسب تعبيره(56). وقد نحا دوغين المنحى ذاته في تنظيره الإستراتيجي.

وليســـت ملاحظات سافيتســـكي اعتباطية، بل لها أســـاس تاريخي وثقافي؛ إذ يمكن القول: إن روســـيا ذات روح مشـــرقية نســـبية، تقرِّبها من آسيا ومن العالم الإسلامي أكثر مما هي الحال مع الغرب، ونجد ذلك –مثلًا– في اســـتلهام الأدباء الروس من الإسلام وثقافته خلال القرن التاسع عشر، الذي هو العصر الذهبي للأدب الروسي. ومن هؤلاء الأدباء ألكســـندر بوشكين (1799–1837)، وميخائيل ليرمنتوف (1814–1841)، وليو تولســـتوي (1828–1910)، وإيفان بونين (1870–1953). وقد قدَّمت

باحثتـــان عربيتـــان، هما: مكارم الغمري من مصر ونعمات طه من الســـودان، خدمة جليلة للثقافة الإســـلامية بتتُّبع هذا التأثير الإســـلامي في الأدب الروسي، بجدٍّ وجلَد علمي(57). ونبَّهني أيضًا على هذه الروح المشرقية الأديب والمترجم العراقي البارع، عبد الله حبَّه، الذي نقَل أمَّهاتٍ من الأدب الروسي إلى اللغة العربية. لكن الوشائج الثقافيـــة لا تعني دائمًا التقارب الإســـتراتيجي، خصوصًا إذا وُجدت مناقضات دينية وثقافية أخرى لهذه الوشائج، أو مطامح سياسية إمبراطورية تتستَّر خلفها.

ومهمـــا يكن من أمر، فإن الصحوة الروســـية التي يقودها فلاديمير بوتين، والإصرار الأميركي على إقصاء روسيا وتحجيمها وحصارها، جعلا الصدام بين القوة الروسية البوتينية الصاعدة والقوة الأميركية الأطلسية السائدة أمرًا لا مناص منه. وهنا صَدَقتْ نظرية الأســـتاذ ميرشـــايمر فـــي "الواقعية الهجومية"، ونظرية أليســـون عن "شـــراك ثوســـيديد"؛ فالوطنيون الروس الذين يمثلهم بوتين سياسيًّا، ودوغين فكريًّا، يحسون اليوم بمرارة شـــديدة تجاه توسُّـــع الناتو في مجالهم الحيوي، ويعتبرون ذلك غدرًا بروســـيا، واســـتغلالًا للحظة ضعفها أثناء تفكك الاتحاد السوفيتي مطلعَ التسعينات. أما الأميركيون فلم يضيِّعوا فرصة قط لاســـتنزاف روســـيا أو تطويقها، وجاءت حرب أوكرانيا الحالية تتويجًا لمسار التصادم بين الطرفين.

وإذا كان بوتين قد وقع في سوء التقدير التكتيكي، باجتياحه أوكرانيا في هذه الظروف، آملًا الحصول على مكاســـب رخيصة، على نحو ما حصل في جورجيا، عام 2008، وفي شـــبه جزيرة القرم، عام 2014، فإن ســـوء التقدير الإســـتراتيجي الأكبر جاء من الأميركيين وحلفائهم الأوروبيين، حين حشـــروا روســـيا فـــي الزاوية، ودفعوها إلى حلف إســـتراتيجي مع العملاق الصيني الناهض. فلا هم ســـمحوا لروسيا بالاندماج في الحضارة الغربية، والتحول دولةً أوروبية عادية على نحو ما أراد غورباتشوف، ولا هم قبلوا بها إمبراطورية دولية طامحة، بل سعوا إلى إقصائها وتحجيمها في الحالتين.

إن انتصـــار روســـيا في أوكرانيا صعـــب، لكن هزيمتها مســـتحيلة، بغضِّ النظر عن المصاعب والمتاعب التي تواجهها، وهذا هو لبُّ المفارقة الكبرى في هذه الحرب. والسبب في ذلك هو أن حرب أوكرانيا بالنسبة لأميركا حرب نفوذ، أما بالنسبة لروسيا فهي حرب وجود. فأوكرانيا تنتمي إلى النواة السُّلافية التي تقع في القلب من الرؤية الإســـتراتيجية الروســـية، فضلًا عن أهميتها الإستراتيجية لروسيا، جغرافيًّا واقتصاديًّا،

وهذا ما عبَّر عنه بريجنسكي منذ مطلع التسعينيات بقوله: إن روسيا من غير أوكرانيا تصبح دولة عادية، وبأوكرانيا -جزءًا منها أو تابعة لها- تصبح إمبراطورية(58).

فأقلُّ ما سترضى به روسيا من هذه الحرب هو اقتطاع الجزء الشرقي الثريّ من أوكرانيا وتملُّكه، وضمُّ سكانه ذوي الغالبية الروسية الأرثوذكسية إلى روسيا، وربما تتملَّك أيضًا جزءًا من الساحل الأوكراني المطل على البحر الأسود، مع الاحتفاظ لنفسها بجزيرة القِرْم وبحر آزوف لأهميتهما الإستراتيجية. فليس في وسع روسيا -إستراتيجيًّا- التسليم بالخسارة الكاملة في أوكرانيا، مهما يكن ثمن الحرب، حتى وإن اقتضى الأمر انشطار أوكرانيا إلى شطرين -على نحو ما حدث لألمانيا في خواتيم الحرب العالمية الثانية- وتحوُّل نهر (الدَّنِيبَر) الأوكراني إلى جدار برلين مائي بين الشرق والغرب. فمنطق الجغرافيا والتاريخ في صالح روسيا في هذه الحرب، لأنها تحارب في بلد متاخم لها، وبينها وبينه تداخل بشري وتاريخي وثقافي، بينما يحارب الأميركيون حربًا غير مباشرة من بعيد، حيث تفصل بينهم وبين أوكرانيا نحو خمسة آلاف كيلومتر. والأمر نفسه يَصْدُق على الصراع بين الصين والولايات المتحدة على تايوان؛ حيث منطق الجغرافيا والتاريخ في صالح الصين التي لا تبعد عنها تايوان سوى نحو مئة وستين كيلومترًا، بينما تبعد عن الولايات المتحدة أكثر من اثني عشر ألف كيلومتر.

ويتعين التأكيد أخيرًا على أن الصين لن تسمح بهزيمة إستراتيجية لروسيا أمام الغرب، بشكل يغيِّر من طبيعة نظام الحكم الروسي، أو يحجِّم روسيا ويفكِّكها، أو يجعلها دائرة في الفلك الغربي. فالحدود بين الصين وروسيا تزيد على أربعة آلاف كيلومتر، وأي سقوط لموسكو في فلَك الغرب سيكشف ظهر الصين أمام حصار إستراتيجي غربي في البر، مع الحصار البحري الذي تسعى واشنطن لضربه عليها، من جهة بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي. وهذا العمق الإستراتيجي الصيني، الذي قد يتحول في أي لحظة إلى مَدَد لا ينقطع، يكفي وحده لجعْل هزيمة روسيا في أوكرانيا مستحيلة عمليًّا. صحيح أن الصين ستستفيد إستراتيجيًّا من استنزاف الطرفين، الروسي والغربي، كما ستستفيد اقتصاديًّا من اعتماد روسيا عليها، ومن تراجع النفوذ الروسي في آسيا الوسطى، كما لاحظ بعض الباحثين(59). لكن انهيار روسيا، أو تغيير عقيدتها الإستراتيجية، أو هزيمتها الكاملة أمام الغرب، أمر لا تستسيغه الإستراتيجية الصينية.

ويبدو أن الصينيين تعاملوا بحكمة مع ما دعاه أبو إستراتيجية الاحتواء الأميركية، جورج كينان (1904–2005)، "عدم الإحساس بالأمان المتأصِّل لدى القادة الروس"(60)، بينما فشِل الغرب في ذلك التعامل. فجنى الصينيون ثمار حكمتهم السياسية ترسيخًا لصعودهم، وانشغالًا للغرب عنهم، والتجاءً من الروس إليهم. وهكذا لم يعد الشرق الصاعد هو الصين وحدها، بل الصين مدعومة بحليفها الروسي. لقد كان ماكيندر "يخشى أن تتمكن الصين في يوم ما من قهر روسيا"(61)، لكن الصين المحظوظة إستراتيجيًّا –على ما يبدو– ليست بحاجة إلى ذلك، فقد قدَّم الغرب روسيا إلى الصينيين على طبق من ذهب فارتمت في أحضانهم. وشغل بوتين الأميركيين عن الصين في مطلع العَقْد الثالث من القرن الحادي والعشرين بإشعاله حرب أوكرانيا، كما شغلهم عنها أسامة بن لادن في مطلع العَقْد الأول منه بهجمات 11 سبتمبر/ أيلول الهوجاء، التي فتحت على العالم الإسلامي أبوابًا واسعة من الاستباحة الإستراتيجية لم تنسدَّ حتى اليوم. وهنا يحسن بنا الانتقال إلى موقع العالم الإسلامي من ظاهرة "شروق الشرق وغروب الغرب"، التي أَفَضْنا في شرحها فيما سلف من هذه الدراسة.

مورفولوجية العالم الإسلامي

وُلد الإسلام في شبه الجزيرة العربية، عند تلاقي القارات الثلاث التي كانت أساسَ المعمور من الأرض آنذاك، وهي آسيا وإفريقيا وأوروبا، ثم ساح من الجزيرة العربية مشرِّقًا في جنوب آسيا، ومغرِّبًا في شمال إفريقيا، حتى انتهى العالم الإسلامي إلى هيكله الجغرافي الذي نعرفه اليوم. وقد اندرجتْ شعوب عديدة في ظلال الإسلام، وكان لكل منها إسهامُها الخاص في الحضارة الإسلامية. وحافظ الفضاء الحضاري الإسلامي على وحدته المعنوية وتناصره السياسي على مدى القرون وإلى غاية العصور الحديثة، رغم تنوعه القومي والثقافي واللغوي، وانفتاحه على كل الأديان والمِلَل والنِّحَل.

ولعل رحلة ابن بطوطة (1304–1377) من أهم الوثائق التاريخية الدالَّة على الوحدة المعنوية والثقافية بين الشعوب الإسلامية، فقد وجد هذا الرحالة المغربي في كل الأراضي التي زارها لغةً مشتركة وقِيَمًا مشتركة مع أقوام مسلمين، يختلف أكثرهم عنه في العِرق والموطن والتقاليد، لكن تجمعه بهم عقيدة توحيدية كونية هي العقيدة

الإسلامية، وثقافة إنسانية عالمية هي الثقافة الإسلامية. واستقبلته وجوهٌ مسلمة مبتسمة في كل مكان، خلال رحلته الطويلة التي دامت أكثر من خمسة وعشرين عامًا، قطَع خلالها نحو مئة وأربعين ألف كيلومتر، وجابَ مساحة من الأرض تضمُّ اليوم أربعًا وأربعين دولة معاصرة، أغلبها أعضاء في منظمة التعاون الإسلامي.

أقام ابن بطوطة مكرَّمًا في كل مكان من الخريطة الإسلامية: في المساجد، والمدارس، والزوايا الصوفية، والقصور. وتقلَّد منصب القضاء في كل من الهند وجزر المالديف، وعُيّن سفيرا لملك الهند المسلم إلى ملك الصين، وأخذ علوم الشريعة عن علماء في مصر والشام والحجاز، وأصبح مقرَّبًا من عدة ملوك، وتعلَّم اللغتين، التركية والفارسية، وجمَع ثروة عظيمة، وتزوج عدة زيجات. وقد لاحظ المؤرخ المصري، حسين مؤنس، في حديثه عن ابن بطوطة أَن "هذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلى إندونيسيا التي يسميها بلاد جاوة أو سومطرة، وجزر الفلبين التي يسميها بلاد طوالسي، و]زار[الجاليات الإسلامية في مدن السواحل الشرقية والجنوبية في الصين، وتمادى في الرحلة حتى دخل بكينْ. هذا الرجل قطَع هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده، أو فارق أهله. ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه، ويقدِّم له الطعام"(62).

يغطي العالم الإسلامي اليوم ربع اليابسة تقريبًا، حيث تمتد مساحته اثنين وثلاثين مليون كلم مربَّع، ويصل عدد المسلمين خُمْس سكان العالم تقريبًا. أما من حيث البنية الهيكلية للجغرافيا الإسلامية، فقد قدَّم جمال حمدان بذور نظرية تشرح ما دعاه هو "مورفولوجية العالم الإسلامي"(63)، أي بنْيته الجغرافية ومعالمها الأساسية؛ حيث سعى حمدان إلى دراسة الإسلام، لا من حيث هو "غطاء روحي واسع الانتشار"(64)؛ فقد فعل ذلك كثيرون، بل "من حيث هو ظاهرة في المكان"(65)، وقدَّم نظرية متماسكة في الجغرافيا السياسية الإسلامية.

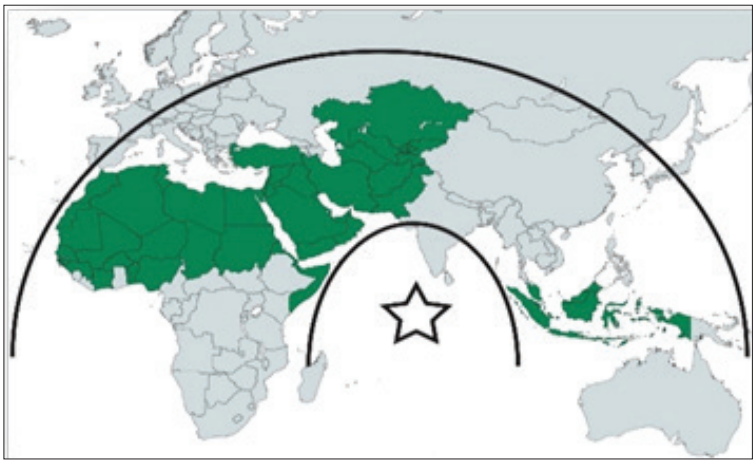

الخريطة (1): الهلال الإسلامي كما تصوَّره جمال حمدان

فمن حيث الموقع، لاحظ حمدان أن العالم الإسلامي "قارة داخل القارات، قارة وُسْطى"(66) تربط بين القارات الثلاث التي كانت أساس المعمور من العالم القديم، وهي إفريقيا وآسيا وأوروبا. وقد نسب حمدان وصف "القارة الوسطى" للمستشرق الفرنسي، فينسان مونتيْ (1913–2005)، وإن كان مالك بن نبي سبق حمدان إلى وصف العالم الإسلامي بأنه "قارة وسَطِيَّة"، كما نسب ابن نبي إلى الإمبراطور نابليون بونابرت وصْفه للعالم الإسلامي بأنه "القارة الوسِيطَة"(67). وهي كلها أوصاف متقاربة اشتقاقيًّا ودلاليًّا. وقد ذهب حمدان إلى أن العالم الإسلامي –في تشكُّله الجغرافي– هلالٌ أو قوسٌ "يتألف من قلب وجناحين"(68)، وأن هذا الهلال/ القوس موزَّع ما بين جنوب آسيا وشمال إفريقيا: "فمن هذا الشكل القوسي تنبثق حقيقة أساسية، وهي أن دار الإسلام في إفريقيا تتركز في الدرجة الأولى في نصفها الشمالي، بينما تقع في آسيا في نصفها الجنوبي"(69) (الخريطة 1). ويبدو أن صامويل هنتنغتون (1927–2008) يوافق حمدان في فكرة الهلال الإسلامي، فقد أشار إشارة عرضية إلى أن "الكتلة الإسلامية تبدو في شكل هلال يمتد من عمق إفريقيا إلى وسط آسيا"(70). وفكرة الجناحين، الإفريقي والآسيوي، للعالم الإسلام تزكيها وقائع الجغرافيا السياسية اليوم، حيث تشتمل منظمة التعاون الإسلامي على ستٍّ وعشرين دولة إفريقية، وسبع وعشرين دولة آسيوية. وفيما وراء هذا القلب والجناحين، لا يوجد امتداد إسلاميٍّ متماسك، رغم أن اثنتين من دول أميركا اللاتينية عضوان في

منظمة التعاون الإســلامي؛ ذلك أن "الإســلام جنوبَ خط الاستواء أطرافٌ وأصابعُ ثانوية، وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة"(71).

وقد أحسن حمدان إذ جعل المحيط الهندي بمنزلة النجمة في جوف الهلال الإسلامي العملاق، وذهب إلى أن المسلمين عوَّضوا تاريخيًّا خسارتهم للبحر الأبيض المتوسط، أمام القوى الأوروبية الزاحفة، بالســيطرة على المحيط الهندي، وذلك بفضل حركية وحيوية سكان الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية، أهل اليمن وعُمان، الذين نقلوا الإســلام بحرًا إلى الطرف الجنوبي الغربي من الهند، وإلى جزر جنوب شرق آسيا، ومنها ماليزيا، وإندونيسيا التي هي اليوم كُبرى دول العالم الإسلامي من حيث عدد السكان.

يقول حمدان في حديثه عن مكانة المحيط الهندي في الجغرافيا السياسية الإسلامية: "ففي قلبه [أي الهلال الإســلامي] -ونكاد نقول كنجمته- يســتقر المحيط الهندي، الذي هو منطقيًّا وبالضرورة محيط الإسلام. وإذا كان الإسلام قد فقدَ البحر المتوسط كبُحيرة إسلامية أو شبه إسلامية تقليدية، فقد كسب المحيط الهندي الذي أصبح البحر المتوســط الجديد في العالم الإسلامي: الحضارمة والعُمانيون إغريقُه وبنادقتُه، وإن لم يكونوا رُومانَه..."(72). وتشــبيه حمدان للحضارمة والعُمانيين بالإغريق والبنادقة (نســبة إلى مدينة البندقية الإيطالية)، ورفْضه تشــبيههم بالرومان، إشارة ذكيَّة منه إلى أنهم نقلوا الإســلام إلى جنوب شــرق آســيا بالدعوة السلمية والتعامل التجاري، لا بالفتح العسكري.

ويتفق عدد من الباحثين الغربيين مع حمدان في أهمية المحيط الهندي ومركزيته في الجغرافيا السياسية الإسلامية؛ فهو بحرٌ تتقاطع فيه خطوط الملاحة الدولية، وتتنافس القوى الدولية الصاعدة والسائدة على إيجاد موطئ قدم لها فيه أو على شواطئه، وهذا ما يزيد من الأهمية الإستراتيجية للجغرافيا السياسية الإسلامية. ومن هؤلاء الباحثين، الأميركي روبرت كابلان، والكندي ساباستيانْ رانجْ، اللذان خصَّص كلاهما كتابًا لهذا الموضوع (73). وقد تناولنا في دراسة خاصة دلالة رحلة ابن بطوطة وأفكار حمدان على وحدة المعنى والمبنى في العالم الإسلامي(74)، فيمكن الرجوع إليها لمن أراد التوسع في هذا الموضوع.

لكن نظرية حمدان -على وجاهتها وريادتها- يشــوِّش عليها الانقطاع الكبير داخل هذا الهلال الإسلامي، بسبب وجود بلدان أخرى داخله ليست منه، منها دول ضخمة كالهند والصين، وهذا ليس بالانقطاع السهل. ولذلك فنحن نقترح تصورًا أكثر واقعية وملاءمة للجغرافيا السياســية الإسلامية، وهو تقســيم العالم الإسلامي جغرافيًّا إلى عالمَين: العالم الإسلامي البري، والعالم الإسلامي البحري.

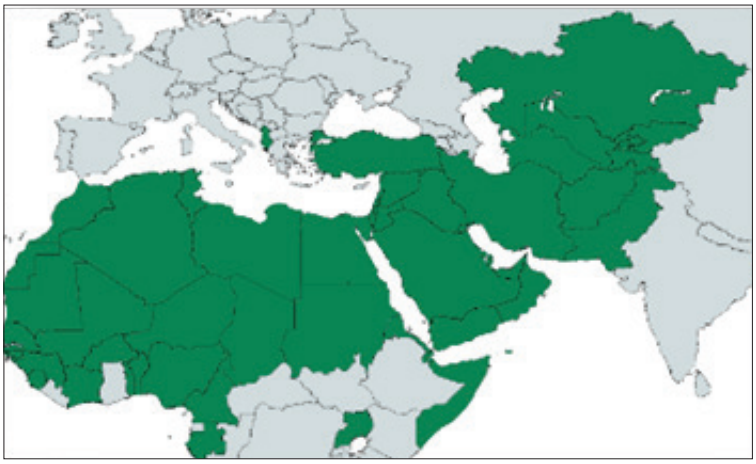

الخريطة (2): العالم الإسلامي البري

فالعالم الإســلامي البريُّ (الخريطة 2) كتلة متماســكة لا تفصل بينها فواصل بحرية كبرى، والأدق القول إنه على شكل طير عملاق، لا على شكل هلال أو قوس، على نحو ما تصوره حمدان وهنتنغتون. ورأس هذا الطير العملاق في الأناضول، وقلبُه في الجزيرة العربية (بمعناها الواسع الذي يشمل دول الخليج واليمن والعراق والشام)، وله جناحان، يمتد أحدهما في جنوب آسيا، والثاني في شمال إفريقيا. والطريف في الأمــر وجودُ أثر في التراث الإســلامي ذي صلة بمجــاز الطير العملاق هذا؛ حيث يُروَى عن التابعيِّ كعب الأحبار (ت 652م) قوله: "إن الله خلق الدنيا بمنزلة الطائر، فجَعَلَ الجناحين المشرق والمغرب، وجعَلَ الرأس الشام"(75). وقد يكون هذا الأثر جزءًا من المختلَقات الكثيرة في فضائل البلدان، لكنه يوحِي بوجود تصوُّر قديم في المخيال الجغرافي لدى المســلمين، يرى العالم كله -لا العالم الإسلامي فقط- في شكل طير رأسه في بلاد الشام، وهي بلاد متداخلة مع شبه جزيرة الأناضول؛ حيث يوجد رأس الطير الإسلامي العملاق كما رأينا.

ويبقى أن نبيِّن أن الجناح الآسيوي من العالم الإسلامي أضخم جغرافيًّا وسكانيًّا من الجناح الإفريقي، وإن كانت نسبة المسلمين من مجموع سكان القارة الإفريقية أكبر. وكما لاحظ جمال حمدان فإن "الجناح الإفريقي لا يقاس البتَّة وزنًا وثقلًا بالجناح الآسيوي"(76). ومثله مالك بن نبي الذي لاحظ انزياحَ الإسلام شرقًا(77)، وانتقال مركز ثقله البشري إلى آسيا(78)، وسنعود إلى كلام مالك فيما بعدُ، ضمن الحديث عن مركز الثقل الإسلامي في العصر الحديث. ولعل ضخامة الجناح الآسيوي من الإسلام، مقارنة مع جناحه الإفريقي، هو ما أغرى محبوباني باعتبار العالم الإسلامي مكوِّنًا من مكوِّنات الظاهرة الآسيوية، كما بيَّنَّاه سلفًا.

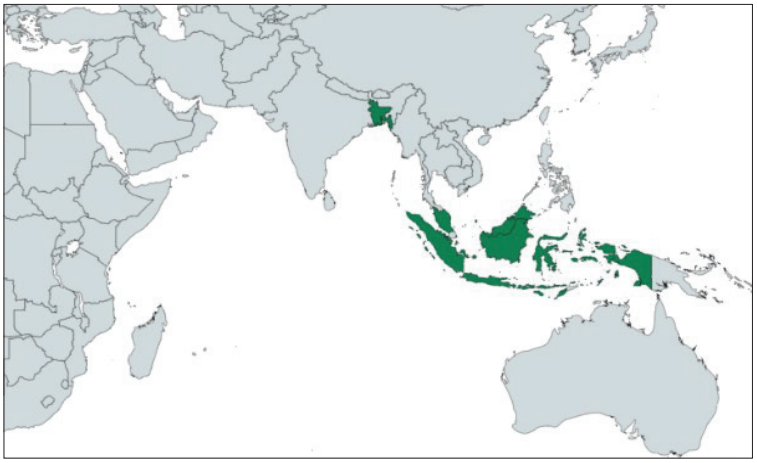

الخريطة (3): العالم الإسلامي البحري

وأما العالم الإسلامي البحري (الخريطة 3) فهو يشمل مناطق منفصلة عن هيكل الجغرافيا الإسلامية الأساسي، وهو يتألف من مناطق وصَلها الإسلام "راكبًا البحر" -بتعبير جمال حمدان- لا عن طريق التمدُّد البري، الذي توقَّف أمام حاجز جبال الهملايا الشاهقة، وهو الحاجز الذي "أوقف تقدُّم الإسلام فيما بعد في هذا الاتجاه، حتى جاء راكبًا البحر من الجنوب"(79). ويشمل العالم الإسلامي البحري بِضع دول، هي: بنغلاديش، وإندونيسيا، وماليزيا، وبروناي، وجزر المالديف. ويمتاز العالم الإسلامي البحري بالضِّيق الجغرافي والسَّعة الديمغرافية، حيث تتركَّز كثافة سكانية كبيرة من المسلمين.

الخريطة (4): إقليم الشرق الأوسط

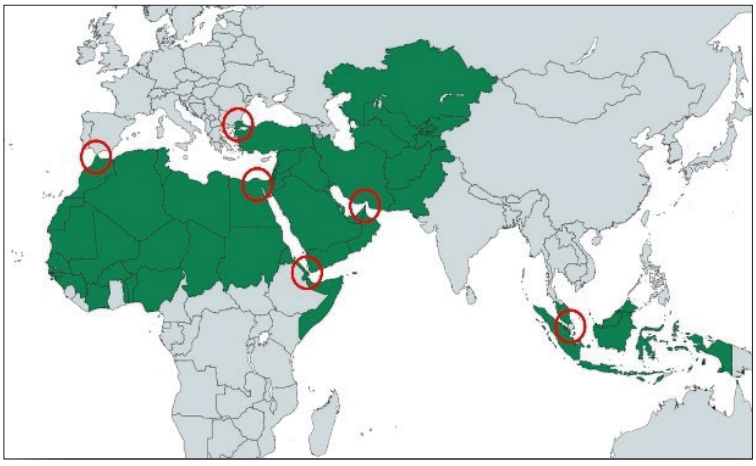

الخريطة (5): المضايق الحيوية في العالم الإسلامي

ويشكِّل إقليم الشرق الأوسط (الخريطة 4) صورة مصغَّرة من العالم الإسلامي البري، وشكله شكل طير أصغر داخل الطير الإسلامي الأكبر. وهو يشتمل على أعلى نسبة مئوية من المسلمين بالنظر إلى عدد سكانه الإجمالي، رغم أنه لا يشتمل على العدد الأكبر من مسلمي العالم. والأهم من ذلك أن المقدسات الإسلامية توجد في الشرق الأوسط؛ حيث مكة والمدينة والقدس، وهو منطقة إسلامية جاذبة بحكم وجود القِبلة ومشـاعر الحج فيه. ويتَّسـم هذا الإقليم بأهمية إستراتيجية عالمية، ولذلك تنافست -ولا تـزال تتنافـس- الأمم الصاعدة من أجل وضع اليد على هذا الإقليم منذ فجر

التاريخ وحتى اليوم. وفي داخل الشرق الأوسط وعلى تخومه بحار مهمة، ذات موقع إستراتيجي في الخريطة العالمية، يمكن أن ندعوها "البحار الملوَّنة" بناء على تسمياتها (البحر الأسود، والأبيض، والأحمر). كما يشتمل الشرق الأوسط على أهم المضايق البحرية (أو "المَخانِق" بالاصطلاح الإنكليزيcheckpoints) التي تعتمد عليها أغلب دول العالم في النقل التجاري والتحرك العسكري. وهي: مضيق البوسفور، ومضيق الدردنيل، وقناة السويس، وباب المندب، ومضيق هرمز. وإذا توسَّعنا في الخريطة الإسلامية الكبرى فيمكن أن نضيف مضيق ملَقَة في جنوب شرق آسيا، ومضيق جبل طارق في شمال غرب إفريقيا (الخريطة 5). وهكذا نجد أن سبعة من أصل أهم ثمانية مضايق بحرية في العالم توجد في العالم الإسلامي؛ فلا يخرج عنه من المضايق الإستراتيجية الحيوية سوى قناة بنما في جنوب القارة الأميركية(80). ولمنطقة الشرق الأوسط مكانة خاصة في خرائط الجغرافيا السياسية والحضارية:

- فمن المنظور التاريخي، ظهرت الحضارة البشرية في هذه المنطقة، كما ظهر فيها عدد من الديانات العالمية التي غيَّرت وجه الأرض ومسار التاريخ، حتى ليكاد تاريخ المنطقة يشتمل على الخطوط العريضة للتراث الديني للبشرية كلها، بما في ذلك الدين الإسلامي الذي هو أعظم الديانات العالمية فتوَّةً، وأوسعها انتشارًا.
- ومن المنظور الجغرافي، تتلاقى في هذه المنطقة وحولَها أهمُّ البحار والمحيطات، وتوجد فيها أهم المضايق الإستراتيجية التي يعتمد عليها أغلب البشر في تبادلاتهم التجارية، وتتنافس القوى الدولية على إيجاد موطئ قدم لها فيها، ضمن لعبة الصراع على النفوذ، والسعي إلى التحكم في مصائر البشر.
- ومن المنظور الاجتماعي، تشتمل هذه المنطقة على شعوب فتية، ذات ديناميكية اجتماعية كبيرة تغلب فيها نسبة الشباب، بينما تعاني مجتمعات أخرى من الإرهاق الاجتماعي والشيخوخة، وتكاد تفقد حيويتها وطاقتها الدافعة، بسبب التفكك الاجتماعي، والاستغراق في الترف.
- ومن المنظور الاقتصادي، تشتمل المنطقة على ثروات إستراتيجية تعتمد عليها الصناعة العالمية، أهمها ثروة النفط والغاز الطبيعي.

وقد دأبت الامبراطوريات الاستعمارية على التنافس من أجل وضع اليد على هذه الثروات، وهي لا تزال في القلب من الإستراتيجيات الدولية المتناقضة.

كل هذه المعطيات تدل على أن الإمكان الكامن في العالم الإسلامي إمكان عظيم ومتعدد الأوجه، لو توافرت له القيادات الحازمة ذات العزائم السياسية والحاسة الإستراتيجية.

الحزام الإسلامي المتصدِّع

رغم كل ما تحدثنا عنه من إمكان وافر في العالم الإسلامي، فإن هذا الإمكان مُهدَر إلى حدٍّ بعيد. ويرجع ذلك إلى أسباب تاريخية هي السرُّ في محنة الحضارة الإسلامية في العصور الحديثة، وخصوصًا مهدها الشرق أوسطي. كانت الدولة العثمانية، التي شاهد ابن بطوطة بذرتها الأولى في الأناضول خلال القرن الرابع عشر الميلادي، آخر مظلة سياسية ناظمة لجزء كبير من هذا الفضاء الحضاري الإسلامي الواحد، خصوصًا ما دعوناه هنا العالم الإسلامي البري. كما كانت أطول دول الإسلام الكبرى عُمْرًا، ومن أقدرها على الذَّبِّ عن حياضه قرونًا مديدة. وبسقوط الدولة العثمانية مطلعَ القرن العشرين دخل العالم الإسلامي مرحلة صعبة من شتات الكلمة في الداخل، والانكشاف الإستراتيجي أمام الخارج. وهكذا فقَدَ الجزء الأكبر من العالم الإسلامي منذ أكثر من مئة عام مركز الثِّقل الذي كان يجمع شتاته، ويركِّز قوَّته، ويوحِّد كلمته.

وبسبب هذا الانقطاع التاريخي الناتج عن تمزيق الدولة العثمانية فقدَ المسلمون روح المبادرة والعمل المشترك، وتقطَّعت الأرحام الإنسانية والسياسية والثقافية بين الشعوب المسلمة، وأدبر بعضها عن بعض، بل أصبح ارتباطها الثقافي والسياسي والاقتصادي بمراكز القوى الاستعمارية السابقة أقوى من ارتباط بعضها ببعض؛ وهذا خذلانٌ لمبادئ الإسلام التي جعلت المسلمين إخوةً، وألزمتهم بالتعاضد والتعاون والتوادِّ والتراحم.

ولا يزال العالم الإسلامي اليوم يعيش هذه الحالة من الاستباحة والانكشاف الإستراتيجي. وقد أدرك الفيلسوف السياسي الأميركي، صامويل هنتنغتون، هذا الأمر، وشرحه بإطناب في كتابه الذائع الصيت **صدام الحضارات**، حيث لاحظ هنتنغتون حالة

اليُتْم التي تعيشــها الحضارة الإســلامية في هذا العصر، لأنها لا تملك "دولة مركز" تتصدَّر مســيرتها، وتضبط خلافاتها الداخلية، وتدرأ عنها سهام الأعداء. وأوضح أن "عدم وجود دولةِ مركزٍ إسلامية يمثل مشكلات مهمة لكل من المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية"(81)، وأن هذا الأمر "مصدر ضعف بالنسبة للإسلام، ومصدر تهديد للحضارات الأخرى"(82).

كما لاحظ هنتنغتون أن حالة الانكشــاف الإستراتيجي هذه بدأت منذ تفكيك الدولة العثمانية على أيدي المســتعمرين الأوروبيين مطلعَ القرن العشــرين؛ ذلك أن "نهاية الامبراطورية العثمانية تركت الإســلام دون دولــةِ مركزٍ...، وهكذا فإنه على معظم القرن العشرين لم يكن لدى أية دولة إسلامية قوة كافية، ولا ثقافة كافية، ولا شرعية دينية، للاضطلاع بهذا الدور، لكي تصبح مقبولة من الدول الإسلامية والمجتمعات غير الإسلامية، كزعيم للحضارة الإسلامية"(83). وسنعود لأفكار هنتنغتون مرة أخرى في حديثنا عن مركز الثقل الإستراتيجي في العالم الإسلامي.

وبســبب فقدان المظلة السياســية الجامعة، تحوَّل العالم الإســلامي ســاحةَ صراع للآخرين، تنقصها المناعة الذاتية، والحاســة الإســتراتيجية، والقيادة الحكيمة. ولعلَّ مصطلــح "الحزام المتصدِّع"shatterbelt هو أدقُّ توصيف لحال العالم الإســلامي اليوم، وهو مصطلح يُســتخدم في علم الجغرافيا السياســية وصفًا لمناطق من العالم تتَّســم بالهشاشــة والتمزق الداخلي، مع الاســتباحة من القوى العظمى في الوقت ذاته(84). وهذا أمر يصدُق بشــكل خاص على القســم العربي والإفريقي من العالم الإسلامي، الذي يعاني اليوم انشطارات سياسية وفكرية عميقة، كما أنه مستباحٌ مكانًا وإمكانًا؛ حيث تحوَّلت أكثر دوَلِه ملحقاتٍ تابعةً لهذه القوة أو تلك من القوى الدولية الطامعة في الأرض الإسلامية، أو الطامحة إلى السيطرة العالمية. ويكفي إلقاء نظرة على نظريات الجغرافيا السياسية المعاصرة ومكانة العالم الإسلامي فيها لإدراك حالة الاستباحة النظرية والعملية للجغرافيا الإسلامية:

- ففــي نظريــة "منطقــة التنــازع" Debated and Debatable Zone التــي صاغهــا الأميركــي، ألفريــد ماهــان (1840–1914)، يشــكِّل قســمٌ مهــم مــن العــالم الإســلامي الجــزء الغــربي مــن المنطقــة المتنــازع عليهــا بــين القــوى الكــبرى المســتقرة، وهــو الجــزء الممتــد مــن تركيــا غربًــا إلى حــدود

الصين شرقًا، ويشمل الأناضول وجزءًا من وسط آسيا وغربها. وهو ينصح الغرب بحرمان روسيا من أي موطئ قدم في هذه المنطقة(85).

- وفي نظرية "قلب الأرض" Heartland Theoryالتي صاغها البريطاني، هالفورد ماكيندر، يقع جزء كبير من العالم الإسلامي ضمن منطقة "الهلال الداخلي" على سواحل أوراسيا. وقد أوصى ماكيندر في مطلع القرن العشرين الإمبراطورية البريطانية بالسيطرة على هذه السواحل، وانتزاعها من روسيا القيصرية، أملًا في استكمال السيادة على العالم، بشقيه البحري والبري(86).
- وفي نظرية "حافة الأرض" Rimland Theory التي بشَّر بها الأميركي، نيكولاس سبايكمان، يمثل العالم الإسلامي جزءًا رئيسيًّا من السواحل الأوراسية الحاجزة بين القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى. وهو ينصح أميركا باستغلال هذه المنطقة، لاحتواء القوة السوفيتية وتطويقها. وهو ما حدث خلال النصف الثاني من القرن العشرين ضمن "إستراتيجية الاحتواء" الأميركية للشيوعية. وقد شرحنا نظرية "حافة الأرض" من قبل.
- وفي نظرية "المنطقة الوسطى" La Région Intermédiaire التي صاغها اليوناني، ديميتري كيتسيكيس (1935–2021)، تظهر أهمية العالم الإسلامي مع العالم الأرثوذكسي كتلة وسطى، تفصل بين الغرب الأميركي–الأوروبي والشرق الهندي–الصيني، وتتميز حضاريًّا عن كل منهما. لكن كيتسيكيس –رغم تفهمه للمسلمين وتعاطفه معهم– يكاد يجعل العالم الإسلامي مُلحَقًا حضاريًّا وإستراتيجيًّا بالثقافة الأرثوذوكسية واليونانية(87).
- وفي نظرية "لوحة الشطرنج العظمى" The Grand Chessboard التي ابتكرها الأميركي، زبيغنيو بريجنسكي (1926–2017)، في تحليله الإستراتيجي للصراع على أوراسيا، يوصَف قسم كبير من العالم الإسلامي –يمتد من سيناء إلى حدود الصين– بأنه "البلقان العالمي" و"البلقان الأوراسي"(88)، وهي منطقة ثرية، تمزقها الانشطارات

الداخلية، ويرهقها عدم الاستقرار، بحسب توصيف بريجنسكي. وهو ينصح أميركا بوضع اليد عليها بمزيج من القوة الناعمة والتدخل الخشن.

- وفي نظرية "صراع الحضارات" التي صاغها الأميركي، صامويل هنتنغتون، يمثل العالم الإسلامي وحدة حضارية متميزة، لكنها حضارة ذات "حدود دامية"، لأنها في صراع ثقافي شامل مع غيرها من الحضارات، حسب زعمه، علمًا بأن هنتنغتون يحمِّل المسلمين مسؤولية كل الحروب التي هم طرف فيها، حتى ولو كانوا فيها مظلومين مضطهَدين. وقد حذر هنتنغتون من ظهور "حلف كونفوشي-إسلامي"، يتحول كتلة إستراتيجية كبرى تسحب البساط من تحت المظلة الإستراتيجية الأميركية(89).
- وفي النظرية "الأوراسية" Eurasianism التي يروج لها الروسي، ألكسندر دوغين، يشكِّل قسم من العالم الإسلامي -وهو آسيا الوسطى- جزءًا من الغلاف الإستراتيجي الذي تحتمي به روسيا، وليس معترفًا به جزءًا من الفضاء الإستراتيجي الإسلامي. أما دعوة دوغين إلى تحالف تركي-سلافي ضد الحلف الأطلسي الأميركي-الأوروبي فهي سعي إلى احتواء جزء من العالم الإسلامي ضمن الطموحات الجيوستراتيجية الروسية، باعتبار روسيا هي "الأخ الأكبر" في المنظومة الأوراسية(90).

وهكذا يدل استعراض النظريات الجيوستراتيجية السائدة على أن العالم الإسلامي لا يزال في موقع المنفعِل بالأفكار والخطط الإستراتيجية التي يصوغها الآخرون، ولم يتبوأ بعدُ موقع الفاعل الذي يملك نظرية جيوسياسية واضحة المعالم، وخططًا عملية لتوحيد إرادته الإستراتيجية، وانتزاع مكانه اللائق به بين الأمم. لقد أُهدِر الكثير من الإمكان التاريخي والجغرافي والاجتماعي الكامن في العالم الإسلامي، ولم يُستثمَر في العصور الحديثة، من أجل استئناف الحضارة الإسلامية. ويرجع إهدار هذا الإمكان إلى أسباب عدة، منها:

- أن بعض مظاهر الضعف المزمنة الموروثة عن الماضي لا تزال قائمة، ولم يواجه أبناء المنطقة هذه المظاهر بما تستلزمه من شجاعة أخلاقية وحكمة سياسية. فرغم محاولات الإصلاح التي بدأت

منذ قرنين تقريبًا فإن بعض أمراض الماضي لا تزال متحكِّمة في المنطقة. ومن غير إصلاح يضمن الانتقال من الماضي إلى المستقبل فلن تخرج المنطقة من أزمتها.

- أن المنطقة لم يُتَح لها في العصور الحديثة أن تتطور تطورًا طبيعيًّا، طبقًا لقيمها وثقافتها التاريخية والاجتماعية الخاصة، بل اقتحمت عليها القوى الاستعمارية سكينتها بعنف، فرسمت خرائط المنطقة على هواها، بما يؤدي إلى تمزيقها من الداخل، والتحكم فيها من الخارج. ولا تزال معالم الفساد والإفساد الناتجة عن ذلك الاقتحام الدامي ماثلة للعيان.
- أن شعوب المنطقة ورثت عن الاستعمار الأوروبي ثقافة التمايز القومي الذي شاع في مطلع القرن العشرين، فابتعدت عن بعضها البعض، ونسيت حضارتها المشتركة، وفرَّطت فيما يجمع بينها من أرحام الدين والثقافة والتاريخ والجغرافيا، رغم أن الفضاء الحضاري الإسلامي أفضل حالًا من الناحية الهيكلية من الفضاء الغربي، الذي تفصل بين مكوناته مسافات شاسعة ومحيطات واسعة.

لقد أُهْدِر هذا الإمكان الهائل الذي يشتمل عليه العالم الإسلامي في أمور مدمِّرة لمستقبل شعوبه: إما في حروب عدمية بين شعوب المنطقة، تحول فيها أهلها وقودًا لصراع القوى الدولية الطامعة، فدفعوا ثمنها الفادح من دمائهم وثرواتهم وإما في حماية أنظمة مستبدة فاسدة، لا تحمل همَّ الشعوب، وليس لديها همَّةٌ لاستئناف الحضارة الإسلامية، وانتزاع مكانة لأمة الإسلام بين الأمم الصاعدة.

بناء المناعة الذاتية

إن الجرد التحليلي لانزياحات القوى العالمية، الذي عبَّرنا عنه هنا مجازًا بـ"شروق الشرق وغروب الغرب"، يحمل بين جنبيه دلالة لا تخطئها العين، وهي أننا نعيش عصر الفضاءات الحضارية الكبرى التي تترجم وشائجها الثقافية إلى قوة عسكرية وسياسية، وحضور كثيف على الساحة العالمية. ويكفي التأمل في حالة الولايات المتحدة التي يحميها محيطان عند خاصرتيها، الشرقية والغربية، ويجاورها من الشمال

والجنوب جيران ضعاف يخشــون ســطوتها. ومع ذلك فهي لم تقنع بقوتها الذاتية، بل نسجت حولها حلفًا من الفضاء الحضاري الغربي، الذي تجمعه عقائد المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية، وجذور الثقافة اليونانية والرومانية. ويمكن التأمل أيضًا في حال الصين وروسيا اللتين تدركان اليوم حاجة كل منهما للأخرى في مواجهة التحدي الغربي، رغم الحجم الهائل لكل منهما، وما تحت يدها من قوة جبارة.

إن شــروق الشــرق وغروب الغرب الــذي نعيش بوادره اليــوم يوجب على العالم الإسلامي البدء الفوري في بناء المناعة الذاتية، من خلال تشكيل قوة دولية إسلامية، لا شــرقية ولا غربية، تدرأ عنه خطر التحول إلى ســاحة مواجهة جديدة بين القوى البريــة الكبرى والقوى البحرية الكبرى. ومن دون بناء هذه المناعة الذاتية، وتحقيق وحدة الإرادة الإســتراتيجية، فإن العالم الإســلامي ســيظل "منطقة ارتطام" Crush Zone بين القوى الشــرقية والقوى الغربية، على النحو الذي وصفه عالِم الجغرافيا السياســية البريطاني، جيمس فيرغريف (1870–1953)، الذي صاغ هذا المصطلح، وصفًــا للمناطق الهشَّــة من العالم التي تتكالب عليهــا القوى البرية الكبرى والقوى البحرية الكبرى(91).

ويستطيع المسلمون أن يستلهموا تاريخهم في هذا السياق؛ فالطير الإسلامي العملاق –بحكم توسُّــطه بين الشــرق والغرب– قد عَرف في تاريخه الطويل حالاتِ قبضٍ وبسْــطٍ دائميْن: فهو في فترات القوة ينبســط ويمدُّ أجنحته مشرِّقًا ومغرِّبًا، على نحوِ ما حدث أيام الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم خلال قوة الإمبراطورية العثمانية. أما في فترات ضعفه فينقبض وينحشــر بين القوى البرية الكبرى على تخومه الشــرقية، والقــوى البحريــة على تخومه الغربيــة. وربما وصل الأعداء إلى قلبــه أحيانًا كما حدث أثناء العاصفة المغولية، والحملات الصليبية، والاســتعمار الحديث. فالخيار الإســتراتيجي الصحيح للعالم الإســلامي دائمًا هو خيار القوة والانبســاط، لا خيار الضعف والانقباض.

بيْدَ أن بناء قوة دولية إسلامية ذات شأن يستلزم شروطًا عسيرة التحقُّق، منها تجاوز عــدد مــن المعضــلات البنيوية داخل الدول الإســلامية، وتحقيق اســتقلال القرار الإستراتيجي لدُوَله المحورية، وتعميق التعاون بينها، على نحو ما حدث في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن المؤكد أن تحقُّق هذه الشــروط سيســتغرق وقتًا،

لكن الفجوة الشاسعة بين الإمكان والتحقُّق في الجغرافيا السياسية الإسلامية اليوم ليست ضربةَ لازب، أو قَدَرًا مقدورًا لا يتبدل، وإنما هي حصاد مسار تاريخي اتَّسم بصعود القوى الأخرى، بالتزامن مع تراجع قوة المسلمين العسكرية، ووهَن عزائمهم السياسية، وضعف حاسَّتهم الإستراتيجية، والحرب سِجال، والأيام دولٌ، وموازين القوى الدولية لا تفتأ تتبدَّل.

على أن التحولات التاريخية الكبرى تبدأ دائمًا بأحلام عسيرة المنال. ومن التجارب الغنية بالخبرة والعبرة في هذا المضمار تجربة الاتحاد الأوروبي؛ وهي تجربة نرى أنها نجحت نجاحًا باهرًا، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار الظروف المأساوية السابقة عليها، وهي ظروف الحربين العالميتين. فقد بدأ الاتحاد الأوروبي في شكل حُلم لدى فلاسفة ومثقفين منذ القرن الثامن عشر، أحيوا من خلاله الذاكرة الوحدوية الأوروبية التي ترجع إلى عصر الملك شارلمان (ت 814)، موحِّد أوروبا الغربية والوسطى لأول مرة منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام 476. ثم تحول حُلم الوحدة الأوروبية مسارًا عمليًّا تحت صدمة الحربين العالميتين في القرن العشرين، والخوف من الخطر السوفيتي. وقد ظهرت مدارس ثلاث ضمن الوعي بالوحدة الأوروبية والسعي إليها، منتصفَ القرن العشرين:

- مدرسة فيدرالية دعت إلى وحدة اندماجية كاملة تمحو الحدود بين الدول الأوروبية.
- ومدرسة كونفيدرالية أرادت وحدة تنسيقية مرنة، وتعاونًا بين دول ذات سيادة كاملة.
- ومدرسة وظيفية فضَّلت البدء بتوحيد قطاعات اقتصادية عابرة للحدود الوطنية.

لكن المنطق العملي الذي تبنَّته المدرسة الوظيفية هو الذي ساد في نهاية المطاف، فسارت الوحدة الأوروبية سيرًا تدريجيًّا عبر توحيد القطاعات الاقتصادية، ابتداءً من قطاعيْ الفحم والحديد، عام 1951. ثم توالت المسيرة في شكل لبنات صلبة ومتراكمة، إلى أن وصلت الوحدة مرحلة النضج ممثَّلةً في الحدود المفتوحة والتنسيق الإستراتيجي. ولعل أهم الأسباب وراء نجاح فكرة الاتحاد الأوروبي هو أن "الفكرة في الأساس تطورية وتطوعية، وتقوم على التوسيع السِّلمي لنطاق القِيَم المشتركة"(92).

وقصة نجاح الاتحاد الأوروبي جزء من قصة نجاح أكبر، هي وحدة الفضاء الحضاري الغربي، الذي يشمل دول أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، وأستراليا، ونيوزيلندا، وهي دول تفصل بين بعضها مساحات شاسعة لا نظير لها في الجغرافيا الإسلامية. فقد نجحت الكتلة الحضارية الغربية في توحيد الإرادة الإستراتيجية بين دولها، مع احتفاظ كل دولة باستقلالها السياسي. ولعل نجاح الغرب في توحيد إرادته الإستراتيجية -رغم المسافات الشاسعة التي تفصل مكوناته- وفشل العالم الإسلامي المعاصر في ذلك، يدل على أن قضية الوحدة تتوقف على الإرادة السياسية والحيوية الثقافية أكثر مما تتوقف على أي أمر آخر. فحتى الفاصل الكبير الذي تحدثنا عنه من قبل بين العالم الإسلامي البري والعالم الإسلامي البحري، لا يمنع وحدة الإرادة الإستراتيجية، تمامًا كما لم تمنع ذلك المحيطاتُ العريضة التي تفصل أميركا الشمالية عن أوروبا، وتفصل أستراليا ونيوزيلندا عن بقية الفضاء الحضاري الغربي، ولا مثل لهذه المسافات الشاسعة بين مكونات العالم الإسلامي. ولبيان ذلك يكفي أن نعرف أن أستراليا، التي هي جزء من المنظومة الغربية، تبعد عن كل من الولايات المتحدة وبريطانيا أكثر من خمسة عشر ألف كيلومتر، وهما أقرب الدول الغربية أرحامًا ثقافية واجتماعية إلى الأستراليين، وأوثقهم حلفًا سياسيًّا وعسكريًّا معهم.

فوحدة الإرادة الإستراتيجية ممكنة رغم بُعد المسافات، بشرط أن تكون طوعية وعملية، ويكون لها أساس ثقافي متين. ولعل أكثر التنظيرات جدِّية في موضوع الوحدة الإسلامية بهذا المعنى هي ما تقدَّم به عبد الرحمن الكواكبي (1849-1903)، وعبد الرزاق السنهوري (1895-1971)، ومالك بن نبي (1905-1973)، لأن كلًّا من المفكرين الثلاثة انطلق من استلهام مثال وحدوي عمليٍّ معاصر، ولم ينشغل بترديد المواعظ النظرية عن الأخوَّة الإسلامية، أو بالسعي إلى استنساخ تاريخ إمبراطوري إسلامي مضى وانقضى.

فقد استلهم الكواكبي فكرة الوحدة الفيدرالية الأميركية والألمانية، فنظَّر للوحدة الإسلامية في شكل "اتِّحاد إسلامي تضامني تعاوني، يقتبس ترتيبَه من قواعد اتحاد الألمانيين والأمريكانيين"(93). واستلهم السنهوري مثال عصبة الأمم -المنظمة الدولية التي نشأت في حقبة ما بين الحربين العالميتين- فدعا إلى تأسيس "عصبة أممٍ شرقية" تجمع شتات الشعوب المسلمة، وتضمن لها مكانة دولية، مع احترام

الخصوصيات الثقافية واللغوية لجميع الشـعوب المسلمة(94). ثم استلهم مالك بن نبي فكرة الكومنولث البريطاني، فدعا إلى "فكرة كومنولث إسلامي" يتألف من كتل إسلامية تجمع بين كل منها جوامعُ الجوار الجغرافي والقُرْبَى الثقافية، على أن ينسق بين هذه الكتل الإسلامية مؤتمر جامع، في شكل منظمة دولية إسلامية(95).

وقد تأسست منظمة التعاون الإسلامي OIC منذ أكثر من نصف قرن، وجمعت تحت مظلتها كل الدول ذات الغالبية المسلمة، وهي تعتبر نفسها "الصوت الجماعي للعالم الإسـلامي"(96). ورغـم ذلك فإن هذه المنظمة لم تحقـق ما طمح إليه المفكرون الرواد من منظِّري الوحدة الإسـلامية. فهي تتسـم بضعف الأداء، والتنازع الداخلي، والوهَن العام. ومن أسباب ذلك أن غالبية دول المنظمة محكومة بالاستبداد، والأنانية السياسـية، والتبعية للقوى الدولية. كما أن المنظمة لم تسلك أساليب منهجية عملية تدريجية لتحقيق الوحدة، فغلَبت الشـعارات والحشـد الكمِّي على عملها، وغابت عنه الفاعلية النوعية. وهذا يدل على أن قضية الوحدة بين شعوب الفضاء الحضاري الإسلامي تحتاج تفكيرًا جديدًا.

يوجد أساس صلب لتوحيد العالم الإسلامي مستقبلًا، لا بالمعنى السياسي المركزي في شكل خلافة جامعة، بل بمعنى التعاضد والتناصر، ووحدة الإرادة الإستراتيجية، بين دول وشعوب يجمعها فضاء حضاري واحد، فيما يشبه التعاضد والتناصر القائم اليوم بين دول وشـعوب الفضاء الحضاري الغربي. فوحدة الغرب المتجسِّـدة اليوم في حدوده المفتوحة، وتداخل شعوبه، وأحلافه العسكرية، وتعاونه الاقتصادي، هي حصـاد وعي تاريخي وثقافي بوحدة الحضارة الغربية، وسـعي عملي وإجرائي إلى ترجمتها ترجمة سياسية.

إن جوهر الفضاء الحضاري الجامع هو الاشـتراك في رؤية واحدة للكون والإنسـان وأمَّهـات القيم، وفـي تجربة تاريخية خاصة، كما هي حال العالم الإسـلامي. فإن انضاف إلى ذلك الامتداد الجغرافي الواحد كان ذلك أدعى لتبلور وحدة إستراتيجية. وليست وحدة الفضاء الحضاري بوحدة اللغة أو العرق كما يعتقد المنظِّرون القوميون المعاصرون؛ فقد تحققت وحدة الفضاء الحضاري الغربي دون أن تجمع أهلَه قومية واحدة، أو لغة واحدة، ففي الاتحاد الأوروبي وحده أربع وعشرون لغة رسمية، وعدد وافـر مـن القوميات. وقد نبَّه على ذلك ابن خلدون منذ قرون؛ فقال: "النَّسَـب أمرٌ

وهمـــيٌّ لا حقيقـــة له، ونفعُه إنما هو في هذه الوُصْلـــة والالتحام"(97). كما انتبه له مالك بن نبي من المعاصرين، مستدلًّا عليه بحالة الغرب، فقال:

"**إن التاريـــخ لا يتحـــدَّد ضرورةً باللغة أو بالجنس، فإن الحضارة الغربية التي اتخذناها مقياسًـــا في هذا الميدان، ليســـت ثمرة لغة أو جنس**، بل إننا نجد حتى في حدود المستوى القومي شذوذًا عن القاعدة حين نلاحظ الوضع في سويسرا مثلًا؛ حيث لا يربط بين العناصر التي تكونها لا الجنس ولا اللغة، وإذن فـــإن **إمكان الحل موجود مع اختـــلاف اللغات أو الأجناس**... فكلمة (الغرب) ليســـت مجرد لفظ، أو صناعة لغوية أو دبلوماسية، أو تلفيقًا يَدِين بوجوده لبعض الملابســـات، وإنما هي قاعـــدة لعقلية رجل الغرب وثقافته، واســـتمرار شـــخصيته. **فهي التعبير المركَّز عن دور حضارة بأكملها**، وهي تلخيـــصٌ لألْفين من ســـني التاريخ المنطبع فـــي ذاته، وهي في النهاية كلمة تحمل عبءَ مصيره"(98).

وبالمثل، فإن المشتركات في العقيدة وأمَّهات القيم والتجربة التاريخية هي التي جعلت من العالم الإســـلامي عالمًا واحدًا، "فثلاثة عشـــر قرنًا قد فصَّلت نموذجًا اجتماعيًّا مســـلمًا، يتصرَّف ويفكر حســـب كيفيات لا تغيب عنَّا ملاحظة سِماتها المشتركة من طنجة إلى جاكرتا"(99)؛ وذلك "راجعٌ لما بينها من قاســـم مشـــترك، ليس متأتيًا من الطقـــس ولا مـــن التراب في بلادهما، ولكن مـــن وراثة معيَّنة"(100). ومن غير هذا الوعي الحضاري المدرِك لســـياقات الزمان والمـــكان، المتجاوز لعصبيات الأعراق واللغات، ســـتظل الوحَدة الإسلامية مجرد شـــعار عاطفي، وعمل ارتجالي "يخضع لمؤامرات الكبار، وتخريب تلاميذهم الصغار"(101)، حسب تعبير مالك بن نبي الذي ينطبق -إلى حدٍّ بعيد- على عمل منظمة التعاون الإسلامي اليوم.

مركز الثِّقل الإستراتيجي

إن من أهم أسباب هذا النجاح في الوحدة الإستراتيجية الغربية وجود دولة مركزية، تقود هذا المسار وترعاه، وهي الولايات المتحدة التي كانت -ولا تزال- مركز الثقل الإستراتيجي في الحضارة الغربية المعاصرة. فقد أنقذت الولايات المتحدة أوروبا من الفناء في الحربين العالميتين، الأولى والثانية، ومن الســـقوط بأيدي النازية والفاشية،

كما قدَّمت العون الاقتصادي لأوروبا المحطَّمة بعد الحرب العالمية الثانية في (مشروع مارشال)، ووفَّرت المظلة العسكرية الحامية بتأسيس حلف الناتو وقيادته. فمن المهم لخروج الفضاء الحضاري الإسلامي من مأزقه الحالي ظهور دولة (أو مجموعة دول) محورية قوية، تتصدر مسيرته بجدارة.

وهنا يثور سؤال جوهري وهو: أين مركز الثقل الإستراتيجي في هذا الامتداد الجغرافي والثقافي الضخم الذي ندعوه اليوم: العالم الإسلامي؟ وهل يمكن أن يكون للعالم الإسلامي رأسٌ واحد، وقلبٌ واحد، ومركزُ ثِقَل واحد أم أنه بطبيعته عالَم متعدد الأبعاد، موزَّع الأقطاب، وله أكثر من قلب ورأس وجاذبية؟ توجد أطروحات ثلاث تستحق الوقوف عندها في هذا المضمار، وهي: نظرية مالك بن نبي الاجتماعية التي تؤمن بأن مركز ثِقَل الإسلام أصبح في جنوب شرق آسيا، ونظرية محمد المبارك الثقافية التي تتمسَّك بمركزية العالم العربي في الفضاء الحضاري الإسلامي، ونظرية صامويل هنتنغتون الجيوستراتيجية التي ترشِّح تركيا لتكون دولة المحور في العالم الإسلامي.

يقدِّم مالك بن نبي تحليلًا ذا طبيعة اجتماعية، فيتوصل إلى أن مركز ثقل العالم الإسلامي المعاصر قد انتقل إلى جنوب وشرق آسيا، وتحديدًا إلى باكستان والهند وإندونيسيا وماليزيا. فعلى عكس السردية الشائعة في العالم العربي تقليدًا بليدًا للسردية الاستعمارية، والقائلة بأن اليقظة المعاصرة في العالم الإسلامي بدأت بحملة نابليون على مصر، عام 1798، يرى مالك بن نبي أن هذه اليقظة لم تبدأ إلا بعد ستين عامًا من ذلك، وفي آسيا تحديدًا، لا في الشرق الأوسط. فالبداية في تقدير مالك كانت بتمرد الجنود المسلمين الهنود على الاستعمار الإنكليزي، عام 1858، ذلك التمرد الذي أحدث هزة في الضمير المسلم، حوَّلها جمال الدين الأفغاني (1838–1897)، ثم تلميذه محمد عبده (1849–1905) فيما بعد، إلى خطاب توعية وتحفيز للجماهير المسلمة الراكدة(102).

كما ذهب مالك إلى أن من ثمار التحولات الاجتماعية والسياسية في القرن العشرين أن "أصبح الإسلام نفسه واقعًا آسيويًّا"(103)؛ فالإسلام "لا يكفُّ مركز ثِقَله السكاني عن التحول إلى الشرق"(104). ولذلك لم يعد مركز العالم الإسلامي على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، كما كانت الحال في الماضي، بل أصبح في جنوب شرق

آسيا، أو على الأقل أصبح قطبه الآسيوي أثقل وزنًا من مجاله المتوسطي حسب رأيه: "**لقد أصبح العالم الإسلامي يخضع لجاذبية جاكرتا**، كما يخضع لجاذبية القاهرة أو دمشق. وهذا **الانتقال إلى مرحلة آسيوية** لابد أن يُحدث نتائج نفسية وثقافية وأخلاقية واجتماعية وسياسية، سيكون لها أن تتحكم في حركته وفي مستقبله، بل في تشكيل الإرادة الجماعية لهذا العالم [الإسلامي] أولًا وقبل كل شيء"(105). وقد بَنَى مالك هذا التحليل على عوامل اجتماعية، منها الكثافة السكانية في آسيا الإسلامية، ومنها –وهو الأهم في رأيه– محافظة الشعوب الإسلامية الآسيوية على فِطريَّتها، وبُعدها عن أعباء التاريخ التي تثقل كاهل المسلمين على ضفاف المتوسط، وهو يبسط هذه الفكرة بتفصيل في قوله:

> "فنهاية العهد الذي تركزت فيه الجاذبية الإسلامية على البحر الأبيض، تسجِّل تحرر العالم الإسلامي من معوقاته وقيوده الداخلية. وهذا الاتجاه واضح في باكستان، كما أنه واضح في جاوة (إندونيسيا)، وهي بلاد توطَّن فيها الإسلام منذ عهد قريب نسبيًّا؛ أعني أنها **بلاد جديدة فتيَّة، يتفوق فيها جانب الفكر والعمل على جانب العلم التقليدي المغلق... والرجل في جاوة دقيق الحِسِّ، يحترم النظام والتنظيم**، وهو مغرمٌ بتعميق جزئيات الأشياء، فهو بذلك رجل مادِّي إيجابيٌّ، ذو طاقة ضخمة، وهو أيضًا رجل عمليٌّ، ماهر في صنعته، ذوَّاقة لشتى أنواع الفنون"(106).

بيْدَ أن المفكر الإسلامي السوري، محمد المبارك (1912–1981)، تحفَّظ على هذه الرؤية في تقديمه لكتاب مالك بن نبي **وجهة العالم الإسلامي**، وتمسَّك بمركزية العالم العربي في الفضاء الحضاري الإسلامي، بحكم ارتباط اللغة العربية بالدين الإسلامي مصادرَ وشعائرَ. يقول محمد المبارك:

> "يعتقد [مالك بن نبي] أن مركز الثقل في هذا العالم سينتقل من البحر المتوسط إلى آسيا...، [و]على تقديري للنهضة الرائعة التي تبدو في إندونيسيا وبعض البلاد الآسيوية الإسلامية، **أرى أن للعالم العربي مكانته ووظيفته الحيوية في قلب هذا العالم الإسلامي**، وأنه أوتي القدرة على التوفيق بين القيم المادية والروحية، وإقامة التوازن بينهما، **وأنه بحسن تفهمه للغة القرآن الكريم ولرسالة الحياة الجامعة بين المقاييس المادية والروحية، والجهد**

المادي والخُلُقي، لا يزال محط الأمل وموضع الرجاء، دون أن ينقص ذلك من قيمة الشعوب الإسلامية الأخرى، ومن خصائص عبقريتها"(107).

وقد كان في وسع الأستاذ المبارك أن يضيف الجغرافيا الدينية الإسلامية معضِّدًا لهذا المنحى من التحليل، أقصد وجود مكة والمدينة والقدس في العالم العربي. وذلكم هو المنظور الثقافي اللغوي الذي يضع بلاد العرب في الصدارة من العالم الإسلامي.

أمـا النظرية الثالثة عن مركز الثقل الإسـلامي فهي نظريـة صامويل هنتنغتون الذي يرى أن مركز العالم الإسلامي ومستقبله في تركيا. وقد أشرنا من قبل إلى أن تركيا تقع في منطقة الرأس من الطير الإسـلامي العملاق، وهو أمر منسـجم مع تاريخها السياسي؛ حيث كانت موطن أُخْرى الإمبراطوريات العظيمة في تاريخ الإسلام، وهي الإمبراطورية العثمانية. وعلى خلاف المنظور الاجتماعي الذي صاغه مالك بن نبي، والمنظـور الثقافـي الذي تبنَّاه محمد المبارك، فإن هنتنغتون ينظر للقضية من منظور جيوستراتيجي.

فقد صاغ هنتنغتون نظرية خاصة في العلاقات الدولية تعتمد العامل الثقافي والديني، أو الفضاء الحضاري المشترك كما نعبِّر عنه هنا، أساسًا لها. وأبرز هنتنغتون الأهمية الإستراتيجية لما دعاه "القُرْبى الثقافية"(108) بين الدول المنتمية إلى حضارة واحدة؛ ذلك أن "الحضارة أُسْـرة ممتدَّة، ومثل أعضاء الأسـرة الأكبر سنًّا، تقوم دول المركز بتوفير الدعم والنظام للأقارب. وفي غيبة القُرْبى هذه، فإن قدرة الدولة الأقوى على حلِّ الصراعات في منطقتها أو فرض النظام فيها تصبح محدودة"(109). وبناء عليه، صنَّف هنتنغتون دول العالم إلى ثماني كُتَل حضارية كبرى، مؤكدًا ضرورة وجود دولة محورية قوية في كل كتلة حضارية، تكون فيها بمنزلة الرأس القائد، والعنصر الضابط لشأن ذلك الفضاء الحضاري المشترك، والذَّابِّ للأعداء عن حياضه.

وليـس بالضرورة أن تشـترك هذه الدولة المحورية مـع دول فضائها الحضاري في القومية أو اللغة، فالقرابة الثقافية تعوِّض ذلك؛ إذ "العوامل الثقافية المشـتركة تعطي شرعيةً للقيادة، ولدور دولة المركز في فرْض النظام، بالنسبة لكل من الدول الأعضاء، والقوى والمؤسسات الخارجية"(110). وقد أدرك هنتنغتون وحدة الفضاء الحضاري الإسـلامي، وصنَّفه ضمن الحضارات الثماني التي تتقاسم العالم اليوم، لكنه لاحظ حالة الانكشـاف التي تعيشـها الحضارة الإسـلامية في هذا العصر، لأنها لا تملك

"دولة مركز" تملك القدرة والإرادة، لكي تتصدَّر العالم الإسلامي، وتضبط خلافاته الداخلية، وتدرأ عنه سهام الأعداء. وكنَّا أوردنا بعض ملاحظاته من قبلُ.

واستعرض هنتنغتون ستَّ دول إسلامية، وقدَّم تقييمه لإمكانية اضطلاع أي منها بدور "دولة المركز" في حضارة إسلامية معاصرة، وهي: السعودية، وإيران، ومصر، وباكستان، وإندونيسيا، وتركيا. فوجد أن خمسًا منها تعاني من موانع تحول بينها وبين هذا الدور، إما لعدد سكانها الصغير نسبيًّا وضعف حصانتها الجغرافية (السعودية)، أو للفوارق المذهبية بينها وبين جمهور المسلمين (إيران)، أو لفقرها في الموارد الطبيعية (مصر)، أو لعدم استقرارها السياسي (باكستان)، أو لبُعدها الجغرافي عن مركز العالم الإسلامي (إندونيسيا). فلم يبق من الدول الست سوى تركيا التي رآها هنتنغتون مؤهلةً لدور دولة المركز في العالم الإسلامي، وتوصَّل إلى أن "تركيا لديها التاريخ، وعدد السكان، والمستوى المتوسط من النمو الاقتصادي، والتماسك الوطني، والتقاليد العسكرية، والكفاءة.. لكي تكون دولة مركز..."(111).

ولسنا نعتقد بوجود تناقض بين هذه النظريات الثلاث، لأنها لا تتوارد على نفس المحل بتعبير علماء المنطق، بل يتناول كلٌّ منها مركزَ الثقل الإسلامي من زاوية نظر مخصوصة. ويبدو لنا أن كلًّا من النظريات الثلاث تتضمن جزءًا من حقيقة الجغرافيا السياسية الإسلامية، فما ذكره مالك بن نبي من حيوية اجتماعية وروح عملية لدى الشعوب المسلمة في جنوب شرق آسيا -فضلًا عن كثافتها الديمغرافية- أمر صحيحٌ، وما أبرزه محمد المبارك من جاذبية العالم العربي -بحكم ارتباط لغته بالوحي الإسلامي ووجود المقدسات الإسلامية على أرضه- صحيح أيضًا. ومثل ذلك يقال عن حديث هنتنغتون عن الأهمية الجيوستراتيجية والتاريخية لتركيا. فتركيا قوة فتيَّة ناهضة، والشعب التركي ذو تاريخ عريق في قيادة العالم الإسلامي، وهو قادر على تكرار مأثرته في المستقبل.

ونحن نميل إلى رأي هنتنغتون في أن تركيا مؤهلة اليوم أكثر من غيرها لتكون "دولة المركز" في العالم الإسلامي، وقد تناولنا موضوع الرِّيادة التركية وجذورها التاريخية بتوسُّع في دراسة سابقة باللغة الإنكليزية(112)، لكن العالم الإسلامي يحتاج أكثر من دولة محورية، وأكثر من بؤرة إستراتيجية صاعدة، ليقف على قدميه، ولعل ماليزيا وإندونيسيا قد قطعتا شوطًا بعيدًا في هذا الاتجاه. كما أن دولًا إسلامية أخرى لديها

الإمكان لتكون دُوَلَ مركزٍ في العالم الإسلامي خلال العقد الحالي والذي يليه. ومن هذه الدول مصر وباكستان والسعودية والجزائر. فهذه الدول السبع قد تتحول في المستقبل المنظور رافعاتٍ إستراتيجيةً متوازيةً لنهضة إسلامية جديدة، إذا حققت ما يكفي من النضج السياسي الداخلي، والوعي الإستراتيجي الخارجي.

فالعالم الإسلامي أكبر من أن يتمحور حول دولة واحدة من دوله، أو إقليم واحد من أقاليمه. وحتى أوروبا ذات الحجم الجغرافي والديمغرافي الصغير -مقارنةً مع العالم الإسلامي- ليس فيها دولة مركز واحدة، بل ثلاث دول هي ما يُعرف بمثلَّث القوة الأوروبي: فرنسا وألمانيا وبريطانيا(113). فلا داعي للجدل حول مركز الثِّقل الإستراتيجي في العالم الإسلامي، فهو عالَم يتَّسع اليوم لأكثر من مركز ثقل، كما اتَّسع في الماضي لبلدان شاسعة، وشعوب عديدة، كان لكل منها إسهامه المجيد في الحضارة الإسلامية.

خلاصات للزمن الآتي

بعد هذا التجوال في انزياحات القوى العالمية، وأثرها على العالم الإسلامي، هذه بعض الخطوط العريضة لما ورد فيها، وبعض الخلاصات للزمن الآتي: يبدو أن الصراع التاريخي بين القوى البرية الكبرى والقوة البحرية الكبرى يدخل منعطفًا جديدًا في هذه الأيام، وهو صراع تتحكم فيه معادلة العلاقة بين القوى الصاعدة والقوى السائدة. وأبرز مظاهر هذا الصراع اليوم هو الصعود المطَّرد للشرق الآسيوي-الأوراسي بقيادة الصين (مع حليفتها روسيا)، على حساب الغرب الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة (مع حلفائها الأوروبيين).

وقد كثَّفت حرب أوكرانيا الحالية هذا الصراع، وسرَّعت وتيرته. وهي حرب سيكون حصادها الإستراتيجي -في تقديرنا- لصالح الشرق الآسيوي-الأوراسي، رغم المصاعب والمتاعب التي تواجهها روسيا اليوم، والثمن الفادح الذي تدفعه. وقد أوضحنا اختلاف المنظِّرين الإستراتيجيين في تلقِّي صعود الصين، بين متحمِّس مثل محبوباني يراه توازنًا مرغوبًا في النظام الدولي، ومتوجِّس مثل ميرشايمر يراه طريقًا مفتوحًا إلى الصِّدام العالمي، وثالثٍ مثل كَفِينْ رَادْ يسعى إلى إرساء التعايش والتوفيق بين القوى الصاعدة والقوى السائدة.

ولا يـزال العالم الإسـلامي في موقع "المنفعِل" بالتنظير الإسـتراتيجي والمبادرات الإسـتراتيجية التي يصوغها الآخرون، وهو لم يتبوأ بعدُ موقع "الفاعل" الذي يملك وعيًا جيوسياسيًّا واضح المعالم، رغم أن بِنْية الجغرافيا السياسية الإسلامية وموقعها يمنحانها مكانة إستراتيجية عظيمة على الخَريطة العالمية، يمكن استثمارها إذا تحرَّر العالم الإسلامي من وضعية "الحِزام المتصدِّع" التي يعيشها اليوم. فالعالم الإسلامي يقع اليوم في تقاطع النيران بين الشرق الصاعد والغرب السائد. وهو معرَّض لخطر التحـول إلـى "منطقة ارتطام" بين شـرق متحفِّز للهيمنة، وغرب متشـبث بمواريثه الاستعمارية.

إن الشـروخ التي تنفتح بين القوى الكبرى تمنح الشعوب الضعيفة هامشًا للمناورة، وقد دفع العالم الإسـلامي ثمنًا فادحًا للأحادية القطبية في العراق وأفغانستان، وفي ثـورات الربيـع العربي. وقد يفتح الانشـطار الدولي الجديد مزيـدًا من الخيارات التكتيكية أمام العالم الإسـلامي، مِن حيث القدرة على بناء مساحات ظرفية مشتركة مع هذا الطرف أو ذاك من المتنافسين الدوليين الكبار اتِّقاءً لشرِّهم. ويبقى بناء قوة إستراتيجية إسلامية تمنح المناعة الذاتية للشعوب الحضارة الإسلامية وتحصِّنها من الاستباحة الخارجية هو الخيار الإستراتيجي الصحيح على المدى البعيد.

بيد أنه لا مناعة من غير وحدة. ووحدة الإرادة الإستراتيجية الإسلامية ممكنة، على غرار وحدة الإرادة الإستراتيجية الغربية، بشرط قيامها بطريقة طوعية، وطبق معطيات الزمـان والمـكان والإمكان. ولعل مما يعين على الوحدة والتحصين الإسـتراتيجي صعود دولة (أو مجموعة دول) محورية تقود العالم الإسـلامي. ويبدو أن تركيا من أحسن الدول تأهيلًا لهذه المهمة. وتوجد دول إسلامية أخرى قطعت شوطًا طيبًا في هذا المسار، كما توجد دول لديها الإمكان الكامن للاضطلاع بهذا الدور، بعد شيء من النضج السياسي والإستراتيجي. فظهور بؤر إستراتيجية متزامنة صاعدة في العالم الإسلامي أمر ضروري للإقلاع الحضاري من جديد.

ليس من الحكمة السياسـية مطالبة جميع الدول الإسلامية بالانحياز المطلق للشرق أو للغـرب، لكـن وحدة الإرادة الإسـتراتيجية تمنح العالم الإسـلامي القدرة على التعاطـي مـع الطرفين بندِّيَّة. ويبدو لنا أن الاقتـراب التكتيكي من الصين قد يمنح العالمَ الإسلاميَّ فُسحةً أوسعَ للمناورة في الأمد المنظور، كما حدث خلال حروب

التحرير الوطني منتصف القرن العشرين. ولا يعني هذا الاقتراب التكتيكي أن الصين أفضلُ في ذاتها من الغرب، أو أنها أقربُ إلى الثقافة والقيم الإسلامية من الغرب. فالغرب يشترك مع الثقافة الإسلامية في بعض المواريث الدينية، وفي جوهر القيم السياسية الديمقراطية. ولكن الغرب يملك من وسائل الاختراق الإستراتيجي في العالم الإسلامي ما يجعله أعظمَ خطرًا، وأشدَّ ضررًا عليه من الصين التي لا يعكر علاقاتها مع العالم الإسلامي سوى تعاملها الفظ مع الأقلية الإسلامية فيها، وهو أمر يمكن إصلاحه ضمن تفاهمات أكبر مع دول إسلامية ذات وزن. ومثل الغرب روسيا في اختراقها الإستراتيجي للعالم الإسلامي، وإن كان بدرجة أقل، وذلك بالنظر إلى نفوذها التاريخي في آسيا الوسطى، وما ارتكبته من فظائع في أفغانستان خلال الثمانينات، وفي سوريا خلال العَقْد الأخير.

والمؤكَّد أنه لا يمكن تحقيق استقلال القرار الإستراتيجي الإسلامي، فضلًا عن وحدة الإرادة الإستراتيجية الإسلامية، مع وجود الاختراق الإستراتيجي الغربي والروسي الذي عُمْرُه قرنان من الزمان. ولا عجبَ أنْ صدَّرنا هذه الدراسة بحديث الكاتب أحمد حسن الزيات عن شروق الشرق الإسلامي وغروب الغرب المسيحي على أرض فلسطين مرتين في التاريخ: الأولى على عهد الخليفة، عمر بن الخطاب (586-644)، والثاني على يد القائد، صلاح الدين الأيوبي (1138-1193). فلا تزال القدس في قلب الصراع بين العالم الإسلامي والغرب؛ حيث يصرُّ الغرب على تهشيم البيئة الإستراتيجية الإسلامية المحيطة بالدولة اليهودية التي أسَّسها ورعاها، وإبقاء العالم الإسلامي -خصوصًا مهده العربي- في وضع "الحزام المتصدِّع" إلى الأبد.

ولا يزال الغرب أيضًا يعبث بالمصائر السياسية للشعوب الإسلامية، مستغلًا مواريث نفوذه الاستعماري التي لا تملك القوى الدولية الشرقية مثلها داخل العالم الإسلامي، ويَجْهَدُ في حِرمان هذه الشعوب من أي تحول ديمقراطي يحقق لها استقلال قرارها الإستراتيجي، كما رأيناه -ولا نزال نراه- في تعامله المُرائِي مع ثورات الربيع العربي. فلا مستقبل للعالم الإسلامي إلا إذا وضَع حدًّا لهذا العبث الغربي بمصائر شعوبه وإمكانات دُوَله. ويومها سيبدأ شروق الشرق الإسلامي -كما بدأ شروق الشرق الآسيوي-الأوراسي في أيامنا- ويندرج المسلمون بجدارة ضمن الانزياحات الكبرى في موازين القوى الدولية التي دعوناها هنا "شروق الشرق وغروب الغرب".

إن مصائـــر العالم الإســـلامي فـــي الأمد المنظور تتوقَّف على حســـن إدراك النخب السياســـية والثقافية فيه لانزياحات القوى الدولية في الزمن الحاضر، وحسن تعاطيها معها، بوعي سياســـي عميق، وحاسَّـــة إستراتيجية مرهَفة. وأتمنى أن يكون ما كَشَفَتْه هذه الدراســـة من تحوُّلات كبرى في النظام الدولي، ومن وحدة الجغرافيا السياسية الإســـلامية، باعثًا على مزيد من الوعي، ومستنهِضًا لمزيد من السعي، لتحقيق وحدة الإرادة الإســـتراتيجية الإســـلامية، بما يحقِّق التناصر والتعاضد بين المســـلمين، بناءً علـــى الأرحام الحضاريـــة الوثيقة، والمعطيات الجغرافية الصلبة، دون قفز على فِعل الزمان، وتباعُد المكان. كما أتمنَّى أن تكون ثمار هذه الدراسة حافزًا على مزيد من التفكير فيما يفتحه "شروق الشرق وغروب الغرب" أمام العالم الإسلامي من فرص وتحديات. فالعالم الإســـلامي بحاجة اليوم إلى رصْد كل بابٍ يُفتَح، واقتناص كل فرصة تَسْنح، في ظرف دولي حرج لا يرحم الضعفاء والمتبطِّلين.

المراجع

(1) أحمد حسن الزيات، "في سبيل فلسطين: المؤتمر البرلماني للأمم العربية والإسلامية،" **مجلة الرسالة**، العدد 275 (10 أكتوبر/ تشرين الأول 1938)، ص 1642. (والإبراز في النص مضاف من طرف كاتب هذه الدراسة، ومثله جميع الإبرازات التالية).

(2) ألكسندر دوغين، **أسس الجيوبولتيكا: مستقبل روسيا الجيوبولتيكي**، ترجمة عماد حاتم (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت: 2004)، ص 64.

(3) ثمـــة جـــدل واســـع بين الباحثين الغربيين حول الفرق بين مفهـــوم geopolitics الذي يركز علـــى الإســـتراتيجيات الدولية، ومفهوم political geography الذي يـــدرس بنية الدول داخليًّا، ومســـاع للتمييز بينهما تمييزًا غالبًا ما ينتهي بغموض أكبر. أما في اللغة العربية فلا يوجد مرادف منفصل لكلا المصطلحين، ولذلك فقد آثرنا هنا اســـتعمال "الجغرافيا السياسية" ترجمةً للعبارتين، بدل التكلُّف في تعريبها وفي التمييز بينهما، والسياق هو الذي يحدد المقصود في الحالتين.

(4) ممن بيَّنوا أهمية الجغرافيا السياسية أداةً ومنهجًا لتحليل النظام الدولي جمال حمدان، وإفِّيلْ كِيلي، وساؤول كوهين. انظر: جمال حمدان، **إستراتيجية الاستعمار والتحرير** (بيروت: دار الشروق: 1983)، ص 9. وكذلك:

Phil Kelly, Classical Geopolitics: a New Analytical Model (Stanford: Stanford

University Press, 2016), p. 7; Saul Bernard Cohen, Geopolitics: the Geography of International Relations (Lanham: Rowman & Littlefield, 2015), p.15.

(5) جمال حمدان، **الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى: دراسة في الجغرافيا السياسية** (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996)، ص 11.

(6) Nicholas J. Spykman, "Geography and Foreign Policy, I" The American Political Science Review, Vol. 32, No. 1 (Feb., 1938), p. 29.

(7) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، 1986)، ص 165.

(8) Thucydides, The Peloponnesian War, Translated by Martin Hammond (New York: Oxford University Press, 2009), p.13.

(9) Graham Allison, Destined for War: Can America and China Escape Thucydides's Trap? (Boston: Houghton Mifflin Harcourt, 2017).

(10) Huiyun Feng and Kai He (edits.), China's Challenges and International Order Transition: Beyond "Thucydides' Trap", (Ann Arbor: University of Michigan Press, 2020), p. 3.

(11) ممن يدفعون بهذه الأطروحة إلى الفضاء العام -على سبيل المثال- الأكاديمية الصينية، جِيشنغْ صنْ، انظر:

Jisheng Sun, "Chinese Culture, Ideas, and Approaches to Influence the International Order," in Feng and He (edits.), China's Challenges and International Order Transition, p. 203.

(12) Kevin Rudd, The Avoidable War: The Dangers of a Catastrophic Conflict between the US and Xi Jinping's China (New York: PublicAffairs, 2022).

(13) Sir Halford John Mackinder, Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction (Washington, D.C.,: National Defense University Press, 1996), p. 106.

(14) John O'Loughlin and Jan Nijman, "Heartland," in Dictionary of Geopolitics, edited by John O'Loughlin, (Westport: Greenwood Press, 1994), p. 115.

(15) Nicholas John Spykman, The Geography of the Peace (New York: Harcourt, Brace and Company, 1944), p.43.

(16) Jan Nijman, "Brzezinski, Zbigniew" in Dictionary of Geopolitics, p.31.

(17) حمدان، **إستراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص 22.

(18) مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ترجمة عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، 2001)، ص 226.

(19) حمدان، **إستراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص 23.

(20) المرجع السابق، ص 22.

(21) كيشور محبوباني، **نصف العالم الآسيوي الجديد: التحول الجارف للقوة العالمية نحو الشرق**، ترجمة سمير كريم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009).

(22) Kishore Mahbubani: The Asian 21st Century (New York: Springer, 2022); Has China Won? The Chinese Challenge to American Primacy (New York: PublicAffairs, 2020); Has the West Lost It? A Provocation (London: Allen Lane, 2018); Can Asians Think? (Singapore: Marshall Cavendish, 2009).

(23) محبوباني، **نصف العالم الآسيوي الجديد**، ص 39-40.

(24) Mahbubani, The Asian 21st Century, p. 63.

(25) المرجع السابق، ص 240.

(26) المرجع السابق، ص 144.

(27) المرجع السابق، ص 144.

(28) محبوباني، **نصف العالم الآسيوي الجديد**، 149.

(29) المرجع السابق، ص 180.

(30) Alexander Dugin, The Fourth Political Theory, translated by Nina Kurpianova et al. (Moscow: Eurasian Movement 2012), p.156.

(31) Anwar Ibrahim, The Asian Renaissance (Malaysia: Times Books International, 1996).

(32) انظر على سبيل المثال:

Khurram Ali Shafique, Iqbal: His Life and Our Times (Lahore: Iqbal Academy, 2014), p.147; Doris Ahmad, Iqbal as I knew him (Lahore: Iqbal Academy, 2018), p. 9.

(33) H. J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History," The Geographical Journal, no. 4 (April 1904), p.437.

(34) John J. Mearsheimer, The Tragedy of Great Power politics (New York: W. W, Norton & Company, 2001), p.5.

(35) نفس المرجع، ص 4.

(36) نفس المرجع، ص 4.

(37) John J. Mearsheimer, The Tragedy of Great Power politics, (New York: W. W, Norton & Company, 2014), Chapter 10.

(38) John J. Mearsheimer, "The Gathering Storm: China's Challenge to US Power in Asia," The Chinese Journal of International Politics, Vol. 3, (2010), p.381-396.

(39) John Mearsheimer, "China's Unpeaceful Rise," Current History, (April 2006), p.161.

(40) عن "عقيدة مونرو"، راجع:

John O'Loughlin, "Monroe Doctrine," in Dictionary of Geopolitics, 166-168.

(41) Mearsheimer, "The Gathering Storm," p. 389.

(42) نفس المرجع، ص 389–390.

(43) روبـــرت كابلان، **انتقام الجغرافيـــا: ما الذي تخبرنا به الخرائط عن الصراعات المقبلة وعن الحرب ضد المصير؟**، ترجمة إيهاب عبد الرحيم علي (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014)، ص 270.

(44) نفس المرجع، ص 270.

(45) Mearsheimer, "The Gathering Storm," p.392.

(46) Bethany R. Kauffman, "Motivations and Limitations in Iran-China Relations," (Masters' Thesis in Security Studies, Naval postgraduate School, Monterey, California, 2022), p.122-123.

(47) Mearsheimer, "The Gathering Storm," p.392.

(48) نفس المرجع، 395.

(49) ميخائيل غورباتشوف، **البيريسترويكا: تفكير جديد لبلادنا والعالم**، ترجمة حمدي عبد الجوَّاد (القاهرة: دار الشروق، 1988)، ص 230.

(50) نفس المرجع، ص 234، 235، 238، على سبيل المثال لا الحصر.

(51) نفس المرجع، ص 233.

(52) نفس المرجع، ص 234.

(53) Gerald Toal, Near Abroad: Putin, the West and the Contest over Ukraine and the Caucasus (New York: Oxford University Press 2017), p. 55.

(54) نفس المرجع، ص 1.

(55) دوغين، **أسس الجيوبولتيكا، ص** 126.

(56) المرجع السابق، ص 129.

(57) مكارم الغمري، **مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1991)؛ نعمات عبد العزيز طه، "تأثير الإسلام في الأدباء الرُّوس"، (رسالة دكتوراه بجامعة الخرطوم، 2010). وقد خصص المفكر والسياسي البرتغالي برونو ماساجْ الفصل السابع من كتابه **فجر أوراسيا** لشرح هذا المنحى المشرقي في الهوية الروسية، ودلالاته الإستراتيجية اليوم. انظر:

Bruno Maçães, The Dawn of Eurasia: On the Trail of the New World Order (New Heaven: Yale University Press, 2018), 168-206.

(58) Zbigniew Brzezinski, "The Premature Partnership," Foreign Affairs, Vol. 73, No. 2 (Mar. - Apr., 1994), p. 80.

(59) على سبيل المثال:

Dmitry Shlapentokh, "Dugin, Eurasianism, and Central Asia," Communist and Post-Communist Studies 40 (2007), p.155.

(60) George Kennan, Memoirs 1950-1963 (Boston: Little, Brown and Company, 1972), p. 331.

(61) كابلان، **انتقام الجغرافيا**، ص 226.

(62) حسين مؤنس، **ابن بطوطة ورحلاته: تحقيق ودراسة وتحليل** (القاهرة: دار المعارف، 1980)، ص 22.

(63) جمال حمدان، **العالم الإسلامي المعاصر** (القاهرة: عالم الكتب، 1971)، ص 19.

(64) نفس المرجع، ص 11.

(65) نفس المرجع، ص 6.

(66) نفس المرجع، ص 25.

(67) ابن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص 226.

(68) حمدان، **العالم الإسلامي المعاصر**، ص 20.

(69) نفس المرجع، ص 20.

(70) Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?" Foreign Affairs (Summer 1993), 35.

(71) حمدان، **العالم الإسلامي المعاصر**، ص 15.

(72) حمدان، نفس المرجع، ص 19–20.

(73) انظر كتابيهما:

Robert D. Kaplan, Monsoon: The Indian Ocean and the Future of American Power (Random House, New York, 2010); Sebastian R. Prange, Monsoon Islam: Trade and Faith on the Medieval Malabar Coast (Cambridge: Cambridge University Press, 2018).

(74) محمد المختار الشنقيطي، "من طنجة إلى جاكرتا: وحدة المعنى والمبنى في العالم الإسلامي بين ابن بطوطة وجمال حمدان"، **مجلة الثقافة الدولية**، كوالالمبور، المجلد 12، العدد 1 (يوليو/

تموز 2002)، 153-173.

(75) علي بن الحسن ابن عساكر، **تاريخ دمشق** (دمشق: دار الفكر، 1995)، ج 1، ص 192.

(76) حمدان، **العالم الإسلامي المعاصر**، 20.

(77) ابن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، 255.

(78) نفس المرجع، ص 255.

(79) حمدان، **العالم الإسلامي المعاصر**، ص 42-43.

(80) توجد ثمانية مضايق أخرى، لكنها ليست بأهمية المضايق التي تحدثنا عنها هنا. عن مجموع المضايق الستة عشر، راجع:

Patrick O'Sullivan, "Chokepoints," in O'loughlin, Dictionary of Geopolitics, p.41.

(81) صامويل هنتنغتون، **صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي**، ترجمة طلعت الشايب (بغداد: سطور، 1999)، ص 221.

(82) نفس المرجع، ص 289.

(83) نفس المرجع، ص 289.

(84) عن مفهوم "الحزام المتصدع" في الجغرافيا السياسية، راجع:

Kelly, Classical Geopolitics, 185.

(85) عن مفهوم "منطقة التنازع" عند ماهان، راجع:

T. Mahan. The Problem of Asia and It's Effects upon International Policies (Boston: Little, Brown and Company 1900), p. 21-22.

(86) H. J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History," p. 312.

(87) تناول ديميتري كيتسيكس مفهوم "المنطقة الوسطى" في عملين له باللغة الفرنسية، هما كتابه: **الدولة العثمانية**، ومقاله: "رؤية جيوبوليتيكية: المنطقة الوسطى" بمجلة **العلاقات الدولية**، انظر:

Dimitri Kitsikis, L'Empire Ottoman (Paris: Presse Universitaire de France, 1985), p.14-18; Dimitri Kitsikis, "Une Vision Géopolitique: la Région

Intermédiaire," Relations Internationales, N°109 (2002/1), p.99-116.

(88) تناول بريجنسكي هذا المفهوم في أكثر من عمل من أعماله. انظر على سبيل المثال، لا الحصر:

Zbigniew Brzezinski, The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives (New York: Basic Books, 1998), p.123-147; Zbigniew Brzezinski, "Hegemonic Quicksand," The National Interest (Winter 2003/04), p. 5-16.

(89) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، 413.

(90) دوغين، **أسس الجيوبولتيكا**، ص 129. وللاطلاع على رؤية نقدية لأفكار بوتين عن الحلف السلافي-التركي، راجع:

Shlapentokh, "Dugin, Eurasianism, and Central Asia," p.143-156.

)91(James Fairgrieve, Geography and World Power (London: University of London Press, 1927), p. 329.

(92) عبد المنعم سعيد، **الجماعة الأوروبية: تجربة التكامل والوحدة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986)، ص 16.

(93) عبد الرحمن الكواكبي، **أم القرى** (بيروت: دار الرائد العربي، 1982)، ص 237.

(94) انظر: عبد الرزاق السنهوري، **فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية** (دمشق: مؤسسة الرسالة ناشرون، دون تاريخ)، ص 340.

(95) مالك بن نبي، **فكرة كومنولث إسلامي**، ترجمة الطيب الشريف (دمشق: دار الفكر، 2000)، ص 15.

(96) هكذا ورد في تعريف المنظمة بنفسها، على موقعها الإلكتروني، عبر هذا الرابط الذي روجع يوم 18 أبريل/نيسان 2023: https://www.oic-oci.org/page/?p_id=56&p_ref=26&lan=ar

(97) ابن خلدون، **المقدمة**، وهي الجزء الأول من تاريخه: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** (بيروت: دار الفكر، 1988)، ج1، ص 162.

(98) مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص 126.

(99) ابن نبي، **فكرة كومنولث إسلامي**، ص 70.

(100) نفس المرجع، ص 71.

(101) ابن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص 126.

(102) انظر: مالك بن نبي، **القضايا الكبرى** (دمشق: دار الفكر، 2000)، ص 46.

(103) مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص 255.

(104) نفس المرجع، ص 255.

(105) ابن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص 182.

(106) نفس المرجع، ص 183.

(107) نفس المرجع، ص 13 من تقديم محمد المبارك.

(108) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، ص 254.

(109) نفس المرجع، ص 255.

(110) نفس المرجع، ص 254.

(111) نفس المرجع، ص 291.

(112) Mohamed El-Moctar El-Shinqiti, "Defensive Jihad: Islamization of the Turks and the Turkification of Islam." İnönü University International Journal of Social Sciences, Turkey, (June 2017), p.1-21.

(113) عن مثلث القوة الأوروبي وتوازناته التقليدية، انظر: حمدان، **إستراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص 147.

المجتمعات المهاجرة في تركيا:
عقبات الاستيعاب والاندماج

Migrant Communities in Turkey and Obstacles to Assimilation and Integration: An Ethnographic Study

فاطمة الصمادي - Fatima Alsmadi*

ملخص

بفعل عوامل سياسية واجتماعية أصبحت تركيا بلدا يقصده المهاجرون. وهو ما أوجد آثارا اجتماعية وسياسية واقتصادية وديموغرافية، وشكل تحديات للتنظيمات الاجتماعية والطبقات القائمة أو التي تنشأ داخل المجتمع فضلا عن منظومة العلاقات البينية والعلاقة مع مؤسسات الدولة.

مستخدمة المنهج الإثنوغرافي تجري الباحثة فحصا لتجربة الأفراد والمجتمعات المهاجرة في تركيا بالتركيز على الجانب الإنساني والخصائص الاجتماعية. وتتخذ من المجتمعات العربية المهاجرة إلى تركيا وكذلك مجتمع الإيرانيين ومجتمع الأفغان مجتمعات لدراسة هذه القضية.

وتخلص الدراسة إلى:

- لا تعد هذه المجتمعات، مندمجة في المجتمع التركي، ولا تبدو جهود الدولة التركية على صعيد تعزيز حالة الاندماج كافية.
- ترك المهاجرون أثرا كبيرا في مجالات عدة، وأحدثوا نقلة كبيرة على صعيد علاقة تركيا مع العالم الإسلامي
- شكلت الحالة السياسية العربية سببا أساسيا في هجرة العرب إلى تركيا وارتبطت موجات الهجرة العربية بحالة انعدام الأمن والقمع في العالم العربي.
- يقع المهاجرون واللاجئون ضحية للتنافس السياسي ومواقف الأحزاب التركية فيما يتعلق بهم.
- تزامنت أكبر موجة من اللجوء الأفغاني إلى تركيا مع الأزمة الاقتصادية الطاحنة، مما عزز من حالة الرفض ضدهم.
- يشكل المهاجرون غير الموثقين وخاصة من الأفغان والإيرانيين طبقة دنيا، تشكل القوى العاملة غير الرسمية، التي تعمل في ظروف قاسية وغير قانونية.
- يعد عدم الاستقرار القانوني فيما يتعلق بالمهاجرين من القضايا المقلقة لهم، فضلا عن البيروقراطية وتعدد المؤسسات ذات العلاقة.

كلمات مفتاحية: المجتمعات المهاجرة، اللجوء، تركيا، الاندماج، العرب، الإيرانيون، الأفغان

* د. فاطمة الصمادي، باحث أول، مركز الجزيرة للدراسات

Dr. Fatima Alsmadi, Sr. Researcher, Al Jazeera Center for Studies.

Abstract:

Due to political and social factors, Turkey has become a country that is sought after by migrants. This has had social, political, economic and demographic effects and posed challenges for social organizations and existing or emerging social classes, as well as the system of interpersonal relations and the relationship with state institutions.

Using the ethnographic method, the researcher conducts an examination of the experience of migrants and migrant communities in Turkey, with a focus on the human aspect and social features. The researcher chose Arab, Iranian and Afghan migrant communities to Turkey as societies to study this issue.

The study concludes that:

- Arab communities in Turkey are not fully integrated into Turkish society, and the efforts of the Turkish government to promote integration do not seem sufficient.
- Migrants have had significant impact on various fields and have created a major shift in Turkey's relations with the Islamic world.
- The Arab political situation was a major factor in the migration of Arabs to Turkey, and waves of Arab migration were linked to the lack of security and repression in the Arab world.
- Migrants and refugees are victims of political competition and the positions of Turkish parties towards them.
- The largest wave of Afghan refugees to Turkey coincided with the severe economic crisis, which exacerbated the rejection towards them.
- Unregistered migrants, especially Afghans and Iranians, constitute a lower class that makes up the informal workforce, working in harsh and illegal conditions.
- The legal instability regarding migrants is one of the issues that worry them in addition to bureaucracy and the multiplicity of related institutions.

Keywords: migrant communities, asylum, Turkey, integration, Arabs, Iranians, Afghans

مقدمة

كان "الاستيعاب"(1) مصطلحًا بارزًا في طروحات مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع فيما يتعلق بالمهاجرين عندما بحثَتْ مشكلة الهجرة واندماج ملايين المهاجرين في المجتمع الأميركي، واقترح باحثوها أن المهاجرين سوف يندمجون ببطء في الثقافة والبنية الخاصة بالدولة المستضيفة بمرور الوقت، وكان النقاش ينصب على أنه مع كل جيل تال وكل عقد يمر، سيأخذ المهاجرون تدريجيًّا أساليب الحياة الأميركية ويتخلصون من عناصر تراثهم العرقي وتقاليدهم وهويتهم(2).

ورغم سيل الانتقادات الحادة الذي تعرض له هذا الطرح من قبل مجموعة من الباحثين المعاصرين، إلا أن هذا "النموذج الكلاسيكي" للاستيعاب هو الرؤية السائدة للتعامل مع قضية المهاجرين لعقود من الزمن. ويرى د. عبد الرحمن المالكي في كتابه "مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة" أن إرث هذه المدرسة سيظل حاضرًا في السوسيولوجيا عامة وفي سوسيولوجيا التحضر والهجرة خاصة، وذلك سواء على مستوى منهجية البحث (البحث السوسيولوجي الميداني)، أو المفاهيم المستعملة أو النظريات المستلهمة(3).

في السنوات الماضية، وبفعل عوامل سياسية واجتماعية، أصبحت تركيا بلدًا يقصده المهاجرون خاصة من الدول العربية والإسلامية. كثير منهم اختار الاستقرار في هذا البلد وحمل جنسيته وكثير آخر أيضًا جعل منها ممرًّا نحو مقصد آخر، الدول الغربية في غالب الأحيان. ورغم أن بعض المقاربات قد تقترح نموذج الاستيعاب الكلاسيكي فيما يتعلق بالمجتمعات المهاجرة في تركيا، إلا أن قضايا تتعلق بالتحولات الديمغرافية والتحديات الاقتصادية والسياسية تثير تساؤلات كثيرة حول صحة هذا "التصوير الأيقوني" لتجربة المهاجرين إلى تركيا.

وتظهر أهمية ما أسست له "مدرسة شيكاغو"(4) في حقل من حقول علم الاجتماع في توفيرها أدوات لدراسة الهجرة ومجتمعات المهاجرين والآثار الاجتماعية التي تتركها الظاهرة على الدول المستقبلة، وما تنتجه من نزاع اجتماعي وفعل اجتماعي، يصل إلى التنظيمات الاجتماعية والطبقات القائمة أو التي تنشأ داخل المجتمع

فضلًا عن منظومة العلاقات البينية والعلاقة مع مؤسسات الدولة، وتشكيل الهوية وبناء الشبكات داخل هذه المجتمعات. ولا ينفصل الأمر عن إمكانية دراسة أنساق سياسات الدولة المتأثرة والمستقبلة للهجرات.

وتبدو الطروحات التي قدمها رواد هذه المدرسة السوسيولوجية للهجرة، ثمينة في دراسة هذه المجتمعات، خاصة فيما يتعلق بمفهوم التمثل عند "بارك"(5) والذي عدَّ التمثل هو سيرورة مشاركة جماعة من الأفراد في عمل المجتمع بشكل نشط مع حفاظها على خصوصيتها. وقد حاول مع باحثين آخرين تحديد التفاعلات بين المجتمعات الأصلية والمهاجرين؛ حيث حدد أربع مراحل، وهي: التنافس، والصراع، والتكيف، والتمثل. وعَدَّ التعلمَ الحلَّ لإعداد المهاجرين لمواطنتهم الجديدة؛ حيث سيتعلمون اللغة والثقافة والأيديولوجيا الديمقراطية، وبالتالي سيعرف المهاجرون أن لهم مستقبلًا فعليًّا في هذا البلد(6).

شهد العالم العربي في السنوات الأخيرة تحولات نتجت في كثير من جوانبها عما أفرزته "الثورات العربية" أو ما اصطلح على تسميته بـ"الربيع العربي" والذي عصفت موجاته بأكثر من بلد عربي، وما أعقب هذه الموجات من ثورة مضادة وقمع سياسي وصدامات مسلحة ضيقت فرص العيش وجعلت حياة مجتمعات بأكملها في معرض الخطر. وقد خلقت هذا التحولات وغيرها ظواهر عدة، ولعل من أهم ما ولدته هو ظاهرة الهجرة أو الهجرات ومنها العربية إلى تركيا؛ إذ لا تقتصر هذه الظاهرة على العرب بل تشمل الإيرانيين والأفغان أيضًا، وكل له أسبابه وخصائصه.

ولعل ضغط الهجرة وما أفرزه من تحديات قاد إلى نشوء عدد من المؤسسات وإصدار تشريعات تنظم هذه المسألة وتتعامل مع مقتضياتها، ومنها على سبيل المثال الخط "آلو 157" الذي افتتح في العام 2003 كخط عاجل من أجل مساعدة ضحايا الاتجار بالبشر. ثم زاد نطاق خدمته وتوسع بعد انتقاله إلى رئاسة إدارة الهجرة في عام 2014، ليصبح اسمه في 20 أغسطس/ آب 2015 مركز اتصالات الأجانب (YIMER)(7). ويقوم الخط بتقديم خدمة على مدار الساعة وطوال أيام الأسبوع. ويجيب على أسئلة الأجانب في مواضيع التأشيرة، والإقامة، والحماية الدولية، والحماية المؤقتة ويعمل أيضًا كخط عاجل لمساعدة ضحايا الاتجار بالبشر وإنقاذهم.

ترتكز هذه المعالجة على فحص تجربة الأفراد والمجتمعات المهاجرة بالتركيز على الجانب الإنساني والخصائص الاجتماعية والأبعاد الأخرى كالقانونية والسياسية باستخدام أدوات إثنوغرافية تُعنى بالتجارب والسلوك لهذه المجتمعات.

أسئلة الدراسة وأهدافها

تسعى هذه الدراسة إلى تحديد أبرز خصائص "المجتمعات المهاجرة في تركيا"، وتعالج عددًا من الأسئلة المتعلقة بموضوع البحث، أهمها:

- كيف تشكلت المجتمعات المهاجرة في تركيا؟
- ما خصائص هذه المجتمعات؟ وما التحديات والمشكلات التي تواجهها؟
- ما الأرضية السياسية والقانونية والاجتماعية التي تؤطر لهذه المجتمعات؟

تتخذ الباحثة من المجتمعات العربية المهاجرة إلى تركيا وكذلك من مجتمع الإيرانيين ومجتمع الأفغان مجتمعات لدراسة هذه القضية، وتستثني من الدراسة "المهاجرين السوريين" وذلك لأسباب تتعلق بخصوصية واقعهم وحالتهم، ووصول الباحثة إلى قناعة بضرورة تخصيص دراسة خاصة لهذه الحالة في المستقبل.

وحيث إن الإثنوغرافيا هي استكشاف وبحث معمق في تفاصيل قضيةٍ ما حيث يتم تحليل المعلومات عن طريق تفسير المعاني والأنماط لسلوك المجموعة، فإن عملية الدراسة **والتحليل استندت على التواصل القريب والمعايشة** مع المجتمعات المبحوثة. **ولهذا الغرض**، أجرت الباحثة عددًا من المقابلات التي سيتم توظيفها في هذه الدراسة مع الإشارة المنهجية لمن تمت مقابلتهم، إضافة إلى الملاحظة ومجموعات التركيز.

5 ملايين عربي في تركيا

وفق تقديرات رئيس "الجمعية العربية" في إسطنبول، متين طوران، يصل تعداد الجاليات العربية في تركيا إلى حوالي 5 ملايين شخص(8). ويتوزع هذا العدد إلى 3 ملايين و600 ألف لاجئ سوري وجنسيات أخرى تشمل رجال أعمال وطلبة وغيرهم. وجاء قرار تشكيل اتحاد الجاليات العربية، حتى يمكن "التنسيق والعمل مع القيادات التركية بفاعلية أكبر"(9).

ويهدف الاتحاد إلى لعب دور الجسر الرابط بين الأتراك والجاليات العربية. وحصل الاتحاد على ترخيص للعمل وفق القانون التركي. وقد شهدت أعداد العرب في تركيا ارتفاعًا كبيرًا بعد اندلاع الأزمة الحرب في سـوريا، وتشـير تقديرات ديمغرافية، إلى تعداد قدره 1.5 مليون شخص، مما شكّل من 2 إلى 2.7 ٪ من العدد العام للمقيمين في البلاد، وشـهدت هذه النسـبة ارتفاعًا وصل إلى 6٪ في عام 2019 من مجموع السكان الذي وصل لنحو 83.5 مليون نسمة وفق الإحصاء الرسمي العام(10). وفي عام 2021، بلغ إجمالي عدد سكان تركيا حوالي 84.68 مليون نسمة. (انظر الرسم البياني رقم 1)

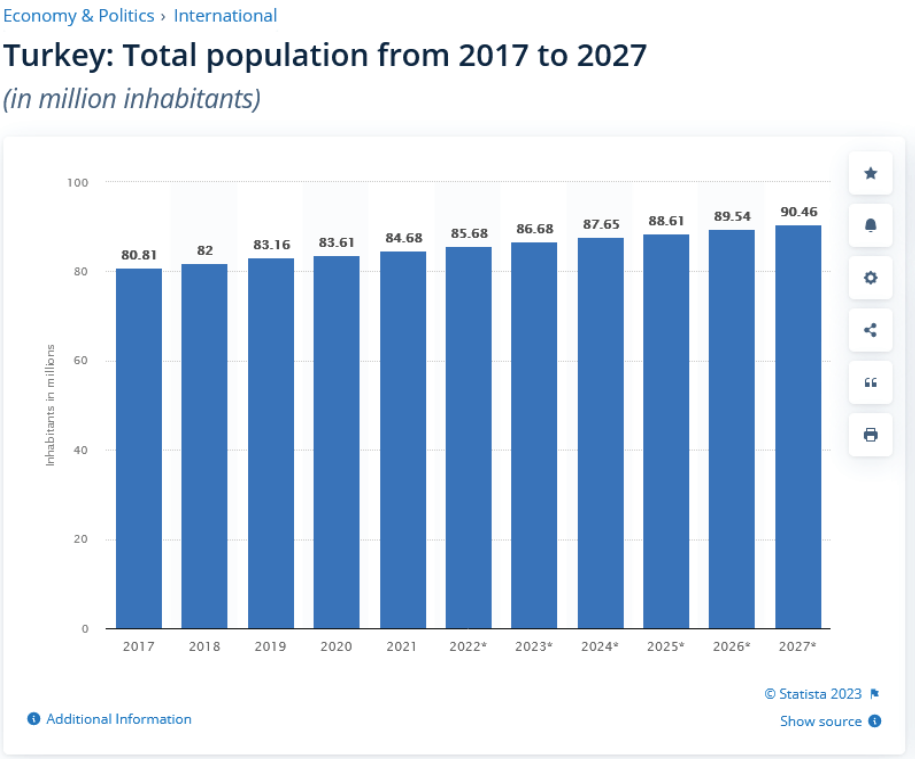

الرسم البياني رقم (1)

تظهر الإحصائية إجمالي عدد سكان تركيا من عام 2017 إلى عام 2021، مع توقعات حتى عام 2027. في عام 2021، بلغ إجمالي عدد سكان تركيا حوالي 84.68 مليون نسمة (المصدرhttps://bit.ly/3F2V0oI)

فيروز و"اللمبي" والكبدة الإسكندراني

يفـرض الطعام العربي (سـوري، لبناني، مصري..) حضـوره بقوة في منطقة الفاتح وبينما صوت فيروز يسـتدرجك نحو أحـد المقاهي، يأتيك صوت صاحب المحل مرحِّبًـا ومصـرًّا على أن "يضيفك" من قهـوة المحل، كل الأطباق موجودة في تلك المنطقة من "المنسف الأردني" إلى "القدرة الخليلية" و"الكبة الحلبية" وغيرها.

أما في منطقة "شـرين إيفلر" فالسـبق للمطاعم المصرية، ولعل أشهرها مطعم أسسه شباب مصريون اسمه "أفندينا"، والمطعم الذي حظي بتغطية إعلامية كبيرة، حتى من قبل الصحف المصرية ذاتها، مختص بطبق يحبه المصريون "الكبدة الإسـكندراني". ويحضر "اللمبي"(11) الشخصية السينمائية الشهيرة في هذا المطعم من خلال صورة والده صاحب الملامح الغريبة التي تسـتقر على الجدار. واشتهر المطعم الذي يقدم "الكبدة والسـجق" المصري، بعد أن قام شباب مصريون بنشر صور لـ"والد اللمبي" في "أفندينا"، مع تعليقات طريفة على وسائل التواصل الاجتماعي.

الجالية الفلسطينية

عند الحديث عن الجالية الفلسطينية في تركيا، يمكن الحديث عن جالية مهاجرة في فتـرة ما قبل الربيع العربي، ويمكن تحديدًا الحديث عن مجموعة من الفلسـطينيين الذين جاءوا إلى تركيا في ثمانينات القرن الماضي. جاءت هذه المجموعة للدراسة واستقرت في تركيا، ولم يكن تعداد الجالية يتجاوز في حده الأعلى، وفق تقديرات رئيس المؤتمر الشـعبي لفلسـطينيي تركيا، محمد مشـينش (أبو أنس)، 3-5 آلاف شخص.

يحدد مشينش، الذي التقيناه في واحد من مقاهي إسطنبول، مكان تركز الفلسطينيين في تلك الفترة في مدينة إسـطنبول حيث أقاموا مجتمعًا خاصًّا بهم مع ملاحظة أن تركيا في تلك الفترة لم تكن جاذبة، ولم تكن جيدة اقتصاديًّا فضلًا عن تدني مستوى الخدمات فيها(12).

وبعـد حرب الخليج الأولى وغزو الكويت جـاءت مجموعة أخرى إلى تركيا لكن تعدادها كان محدودًا حيث لم تتجاوز الـ500 شـخص. وبقي تعداد الفلسطينين في تركيا في حدود الـ5 الآف شخص.

ومع "الربيع العربي" استقبلت تركيا موجة جديدة من الفلسطينيين ممن كانوا يعيشون في سوريا، ولم يكن العدد بسيطًا وإن كان لا يمكن وضع أرقام دقيقة بشأنه إلا أن التقديرات تصل إلى 15 ألف شخص، وسبقتهم موجة مهاجرين فلسطينيين من العراق ممن جاؤوا عقب الاحتلال الأميركي للعراق في حدود 150 عائلة (في حدود ألف شـــخص) إضافة إلى عوائل هاجرت من غزة. مع ملاحظة أن هذا المجتمع متحرك حيث تأتي مجموعات وتغادر أخرى تتخذ من تركيا ممرًّا للهجرة إلى أوروبا؛ مما لا يجعله عددًا تراكميًّا، وحاليًّا أصبحت تركيا مقرًّا للطلاب الفلسطينيين بعد الانتكاسة التي شهدتها الدول العربية وجامعاتها بعد الربيع العربي خاصة مصر وسوريا، ويوجد حوالـــي 12 ألف طالب فلســـطيني يدرســـون في الجامعات التركية(13). وحســـب معلومات نقلتها وكالة وفا دائرة شؤون المغتربين في منظمة التحرير الفلسطينية للعام، 2022"بلغ عدد أبناء الجالية الفلســـطينية في عموم تركيا نحو 30 ألف مقيم، ويتركز معظم أبنائها في مدينة إسطنبول.

لكن مشـــينش يرفع مجموع الجالية الفلســـطينية المســـتقرة في عموم تركيا إلى عدد يتراوح ما بين 40–50 ألف نســـمة، ويتضمن هذا العدد المســـجلين كلاجئين جاءوا من العراق وسوريا، وأما القادمون من العراق فقد سُجِّلوا في المفوضية العليا لشؤون اللاجئين (UNHCR)(14) مما يجعلهم يعاملون كلاجئين عالميين ويتيح لهم فرصة الانتقال والتوطين في دولة ثالثة، لكن اللاجئين القادمين من سوريا لم يشملهم ذلك، وإنما هم مسجلون في الأونروا ومؤسسات الدولة التركية ويعاملون معاملة السوريين، ولا يمكنهم الانتقال إلى دولة ثالثة، وتنظم الدولة التركية شؤونهم ويمنحون العلاج المجاني في مشافي الدولة ويسجل أطفالهم في مدارس الدولة إضافة إلى مساعدات عينية حالهم حال الســـوريين، وذلك وفق قرار صدر في عهد حكومة أحمد داوود أوغلو بشـــمول كل القادمين من ســـوريا بإجراءات واحـــدة، ومنحهم بطاقة حماية، ويتوزعون في الريحانية وهاتاي وغازي عنتاب ومدن أخرى. وتعمل نسبة كبيرة من اللاجئين الفلســـطيين ضمن ترتيبات وشـــروط وضعتها الدولة؛ حيث تقابَل الجالية الفلسطينية بالترحيب، وذلك مرده إلى موقف الشعب التركي من فلسطين(15).

وبلغـــة الأرقام يصف مشـــينش الجالية في عمومها بـ"النخبويـــة"(16)؛ فهناك تجمع الأطباء الفلســـطينيين وهو تجمع نقابي ينضوي تحت مظلته 200 طبيب فلســـطيني

يعملون في تركيا. وكذلك تجمع المهندسين الفلسطينيين ويزيد عددهم عن الـ200 مهندس وهم ممن يعملون في القطاعات الهندسية والقطاعات التجارية. وهناك أيضًا تجمع رجال الأعمال الفلسطينيين ويُطلَق عليه اسم تجمع رجال الأعمال الفلسطيني التركي، وقد تلقوا كثيرًا من الجوائز من الدولة تقديرًا لنشاطهم وبينهم 80 من أصحاب رؤوس الأموال. وهناك أيضًا الإعلاميون حيث تتوزع نخبة مؤثرة على المؤسسات الإعلامية التركية ومنها المؤسسات الناطقة بالعربية، يضاف إليهم تجمع العمال الفلسطينيين في تركيا. وأيضًا اتحاد الطلبة، بينهم ما يقرب من 1000 طالب في مرحلة الدراسات العليا؛ ولذلك يصنفون على أنهم مجتمع نخبوي، ومن أبرز الأمثلة مترجمة الرئيس الأولى، فاطمة قاوقجي (أبو شنب)، فوالدها من عائلة فلسطينية، وهي متخصصة في العلاقات الدولية، دائمًا ما تظهر إلى جانب أردوغان لتقوم بمهمة الترجمة خلال لقاءات رسمية مهمة مع زعماء العالم وكانت والدتها، مروة قاوقجي، أول نائبة محجبة في البرلمان التركي، قد طُردت من البرلمان بسبب الحجاب. وهناك أيضًا برلمانيون أتراك من أصول فلسطينية(17).

في ذات المطعم الذي يغص بسكان البلاد والسياح، التقينا ساري بركة، الذي يحب أن يعرف عن نفسه بأنه ناشط شبابي فلسطيني مقيم في تركيا منذ خمس سنوات، ويتركز نشاطه في الجانب التطوعي(18). يؤكد بركة التقديرات التي قدمها مشينش والخاصة بأعداد الفلسطينيين في تركيا، ويضعها بصورة محددة في 50 ألف شخص بشكل نظامي ورسمي، وفق ما يصفه(19)، حصل بعضهم على الجنسية التركية من خلال مداخل عدة منها العمل والإقامة والاستثمار والشراء العقاري(20). والجالية الفلسطينية في المجموع جالية توصف بأنها "شابة"، وفق ما يقوله بركة.

أسباب عديدة دفعت الفلسطينيين إلى التوجه نحو تركيا لجوءًا وهجرة، بعضها سياسي بسبب ما آلت إليه الأوضاع في الدول العربية بدءًا من غزو الكويت مرورًا باحتلال العراق ووصولًا إلى الأزمات التي أعقبت "ثورات الربيع العربي" في أكثر من بلد عربي والأزمات الاقتصادية والسياسية في بلدان مثل لبنان والأردن. وهناك أيضًا هجرة من نوع آخر يتحدث عنها بركة وهي القادمة من أوروبا حيث إن كثيرًا من العائلات الفلسطينية انتقلت إلى تركيا بحثًا عن بيئة اجتماعية مناسبة بصورة أكبر للعوائل المسلمة(21). كما أن تركيا بالنسبة لكثير من العرب أصبحت نقطة التقاء مع

أحبائهم الذين يقيمون في أوروبا أو في دول عربية يتعذر السفر إليها(22).

وهناك أسباب أخرى قد يصدق عليها وصف "البحث عن آفاق وحياة جديدة" كالتي سعى إليها أبو وسام (دنماركي من أصل فلسطيني)، فبعد 37 سنة عاشها في الدانمارك يأتي إلى إسطنبول مستثمرًا، ويصف الحياة في تركيا بأنها "جميلة لكن المال مهم جدًّا"، ويضيف الرجل الذي استقبلنا في المقهى الذي يملكه: بدون دخل جيد فالحياة هنا ستكون صعبة وهي صعبة بالنسبة لكثير من الشباب المهاجرين(23). أصبح المقهى الذي أنشأه أبو وسام في منطقة الفاتح (مود كافيه) مقصدًا لكثير من الشباب الفلسطينيين والعرب عمومًا، وهناك يمكن أن تستمع إلى عشرات القصص لشباب بعضهم جاء باحثًا عن عمل وحياة كريمة وبعضهم رأى في المكان استراحة أو نقطة توقف ينطلق بعدها إلى وجهته المنشودة (أوروبا) بحثًا عن مستقبل أفضل.

فلسطين معكم: رَدُّ الجميل

ومع الزلزال الذي ضرب تركيا اندفع متطوعون من مختلف الجاليات العربية لإغاثة المتضررين، وسجلت الجالية الفلسطينية نشاطًا ملحوظًا من خلال الأطباء وجمع المساعدات وأعلنت الجالية عن بدء بناء 87 وحدة سكنية للمتضررين بمساهمات من محسنين عرب. وأطلقت الجالية الفلسطينية حملة "فلسطين معكم FilistinSizinle" التي حظيت بتقدير واهتمام كثير من المؤثرين الأتراك على وسائل التواصل الاجتماعي.

"وتم تشكيل 27 فريقًا تطوعيًّا تضم نحو ألف شاب فلسطيني ينتشرون الآن في المناطق المنكوبة في تركيا ويمارسون مهام الإنقاذ والإسناد بالتنسيق مع المؤسسات الرسمية، فيما انتقل جزء من هذه الفرق إلى الشمال السوري لإسناد فرق الدفاع المدني ومساعدة المنكوبين. وقال مسؤولون عن الحملة إنها انطلقت من مرتكزين أساسيين: الأول هو الواجب الإنساني وردُّ الجميل للشعبين التركي والسوري اللذين احتضنا أبناء الشعب الفلسطيني، والمرتكز الثاني هو واجب المسؤولية الوطنية حيث إن هناك ما يقارب 4 آلاف عائلة فلسطينية تعيش في الجنوب التركي، والشمال السوري.

المصريون: هجرة غير مخطط لها

توصف هجرة المصريين إلى تركيا بأنها "هجرة غير مخطط لها" بفعل الظروف التي سبقتها ودفعت لها. قُدِّر عدد المصريين المقيمين بشكل دائم في تركيا في عام 2022 بحوالي 30 ألف مصري، وتتنوع الجالية المصرية بين طلاب وأطباء ومهندسين ورجال أعمال وإعلاميين وسياسيين.

تعتبر فئة الطلاب المصريين في تركيا من أكبر الفئات من حيث أعداد الطلاب الدوليين في البلاد، ويدرس الطلاب المصريون في جميع الجامعات التركية، الخاصة منها والحكومية، وينتشر الطلاب المصريون في شتى الولايات التركية، كما أن كثيرًا منهم يستفيد من المنحة الحكومية التركية للطلاب الدوليين، والتي يتم تقديمها كل عام من قبل الحكومة التركية.

يُقيم العدد الأكبر من الجالية المصرية في تركيا في ولاية إسطنبول، وتأتي العاصمة أنقرة في المرتبة الثانية لإقامة المصريين في تركيا، إضافة إلى ولايات أخرى مثل أنطاليا وغيرها.

عكف المهاجرون المصريون في تركيا على انشاء عدد من الجمعيات، وتعتبر "جمعية رابعة" أولى هذه الجمعيات، وأُعلن عن تأسيسها، في أكتوبر/ تشرين الأول 2013، وحملت شعار علامة رابعة، في إشارة إلى مجزرة فض "اعتصام رابعة العدوية"، في 14 أغسطس/ آب 2013، والتي راح ضحيتها المئات من أنصار الرئيس الراحل، محمد مرسي، أما "الجالية المصرية" فهي كيان اجتماعي جامع للمصريين على الأراضي التركية(24). يحصي تقرير للجزيرة نت مجموعة من الكيانات، من أهمها:

- اتحاد الجمعيات المصرية: اتحاد غير حكومي ومستقل، هدفه تجميع الجمعيات المصرية في اتحاد يعبِّر عنها، ويسعى لحل مشاكل المصريين في تركيا.
- رابطة الإعلاميين المصريين في الخارج: تأسست في فبراير/ شباط 2018، وتضم في عضويتها 500 عضو من صحفيين وإعلاميين يعملون خارج مصر.
- رواق إسطنبول: مؤسسة للتدريب والتأهيل ورعاية الموهوبين،

تأسست في 2017، وتهتم بالمواهب الشابة في الفئة العمرية 18– 35 عامًا، في مختلف المجالات. ويدعمون المبادرات الشبابية التطوعية وتتعاون وتنسق مع بعض المؤسسات التركية الأهلية والشبابية، لمساعدة الشباب على الاندماج في المجتمع التركي.

في مكتبه في قناة الشرق، استقبلنا الناطق باسم الجالية المصرية في تركيا، نادر فتوح، وهو مذيع ومقدم برامج، مهاجر إلى تركيا منذ 2015. يتحدث فتوح عن جالية مصرية كبيرة العدد، أما تجمع الجالية الذي ينطق باسمه فيصل عددهم إلى 4000 عضو تقدم لهم الجالية خدمات متنوعة في إطار لجانها الاجتماعية والقانونية والصحية.

تبذل الجالية جهودًا كبيرة في مجال الإدماج، ويتحدث فتوح عما يصفه بـ"المنفعة المتبادلة" فكما أن كثيرًا من المصريين وجدوا في تركيا المأوى والترحيب، فهم يقدمون في المقابل خدمات وخبرات، فهناك كثير من العلماء الأزهريين المنتشرين في عدد من المدن التركية وهو ما يعد إضافة للحالة الدينية في تركيا، وهناك كثير من الأطباء ممن لديهم رخص مزاولة المهنة ويخدمون في المستشفيات والعيادات التركية، وهناك رجال أعمال يحرصون على المشاركة في كافة المؤتمرات والفعاليات الاقتصادية، وتأتي هذه الجهود جميعًا في إطار الاندماج داخل المجتمع التركي، ويسهِّل من هذا الأمر وجود مشتركات ثقافية.

وبالنسبة لعدد لا يستهان به أصبحت تركيا بالنسبة له وطنًا بديلًا وستصبح كذلك لمصريين آخرين لجؤوا إليها منذ خمس أو ست سنوات مضت.

كان فتوح ممن جرى اعتقالهم عقب انقلاب السيسي واستطاع أن "يخرج من مصر بطريقة غير شرعية"(25). عن تجربة اللجوء يتحدث فتوح: كنت من الشباب المؤمنين بشدة بثورات "الربيع العربي" وثورة يناير في مصر، ثم كنت مؤيدًا للنظام الديمقراطي المدني الذي جاء بعد الثورة متمثلًا بالنظام الرئاسي للمرحوم محمد مرسي، ثم حدث الانقلاب وكنت مناهضًا بشده له. أسست مجموعة من الحركات الشبابية في مصر وكنت منسقًا للحركات الشبابية في محافظة الإسكندرية وهي من أهم المحافظات التي سجلت موقفًا ضد الانقلاب. وتم اعتقالي في يناير/كانون الثاني 2014 وبقيت معتقلًا حتى ديسمبر/كانون الأول 2015 لمدة 23 شهرًا. بقيت لشهر واحد داخل مصر قبل أن أقرر أن أسلك طريق الهجرة. وتوقفت في محطات

عدة قبل أن أصل تركيا في مارس/آذار 2016، أي قبل ست سنوات تقريبًا.

استخدم فتوح خبراته السابقة في المجال التطوعي والعمل مع الجمعيات الخيرية، وجرى تأسيس الجالية التركية التي نتحدث عنها في 2018 وهي جالية مرخصة لها مجلس إدارة وأجرت انتخابات بعد عامين من تأسيسها، وأجرت انتخابات ثانية، في يناير/كانون الثاني 2022، لانتخاب مجلس الإدارة. وكانت انتخابات حضرها أكثر من نصف الجمعية العمومية(26). أما شروط الانتساب فهي أن يكون العضو مصريًّا فوق الـ18 عامًا. وتقدم "الجالية المصرية" بوصفها تجمعًا خدميًّا ومن خلال مجموعة من اللجان المتخصصة الكثير من الخدمات لأعضائها مثل توزيع المساعدات والأسواق الخيرية ومعارض الأسر المنتجة، وغيرها من الأنشطة التي تأتي ضمن عمل اللجنة الاجتماعية. وهناك اللجنة القانونية التي تتكفل بمتابعة كثير من الملفات ذات الطبيعة القانونية، وقد قامت الجالية بالتعاقد مع مكتب قانوني تركي للتعامل مع قضايا المصريين وفي مقدمتها المتعلقة بالإقامة، وهناك جانب مهم تقوم به اللجنة القانونية يتعلق بتوثيق وتقنين أوضاع المصريين، خاصة مع التضييق الذي جرى في بند الإقامة السياحية. وتقدم اللجنة كشوفات للإقامة الدائمة وكشوفات للحصول على الجنسية. وتختص اللجنة الصحية بخدمات المستشفيات والأطباء وتقديم العلاج وحل مشكلات المصريين الطبية، وجرى عقد الكثير من التفاهمات مع عدد من المنظمات الصحية والخدمية التي تعمل مع المستشفيات التركية. وتختص اللجنة التعليمية بشؤون الطلبة والتعليم بصورة عامة.

الجالية العراقية

للتقصي عن أحوال الجالية العراقية، قصدنا شعلان الشمري، وهو مستشار في تطوير الأعمال، أسس ويرأس مجموعة اقتصادية؛ حيث استقبلنا في مكتبه في إسطنبول، وشملت الجلسة أيضًا الدكتور سرمد راشد، وهو المدير العام لأكاديمية تعنى بالتعليم والتدريب، وهو عضو في الجالية العراقية ونائب لرئيس الجاليات العربية في تركيا، وشاركنا هذه الجلسة أيضًا مؤسس مدارس الفائز الدولية(27).

تُصنَّف الجالية العراقية في تركيا ثاني أكبر جالية عربية بعد الجالية السورية(28)، وتسجل إحصاءات وزارة الهجرة العراقية وجود أكثر من 700 ألف عراقي مقيم

فـــي تركيـــا، ويتوزعون بكثافة في 12 من أصل 81 ولاية في تركيا، تأتي في مقدمتها إسطنبول وأنقرة(29). وحسب إحصاءات رسمية تركية، فإن أكثر من 200 ألف لاجئ عراقي يعيشون في تركيا ومشمولون بالمساعدات التي تقدمها أنقرة للاجئين(30).

ويأتي العراقيون في مقدمة مشتري العقارات في تركيا، وفي إحصائية رسمية نشرتها هيئة الإحصاء التركية في نوفمبر/ تشرين الثاني 2022، جاء العراقيون بالمركز الأول بعدد مشـــتري العقارات في البلاد خلال السنوات الثماني الماضية، بحصيلة وصلت إلى نحو 47 ألف عقار في مختلف المجالات السكنية والتجارية. وحافظ العراقيون على صدارة شـــراء المنازل في تركيا فـــي الفترة 2015–2021 ليتراجعوا إلى المركز الثاني بعد الإيرانيين مطلع 2021، ثم للمركز الثالث، في 2022، بعد تصدر الروس لمشـــتري العقارات التركيـــة(31). وواصل الروس احتلال المركز الأول في شـــراء العقارات مع مطلع العام 2023 وتلاهم الإيرانيون ثم العراقيون ثم الأوكرانيون.

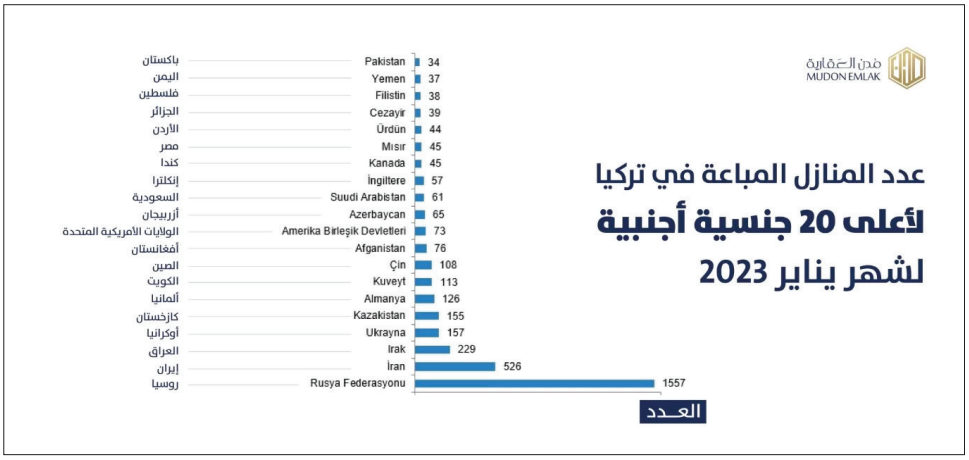

المصدر: مدن العقارية

وتكشف دراسة أجراها الاتحاد العام للطلبة العراقيين، حول واقع الطلبة العراقيين في تركيا وأشار إليها موقع نون بوست، أن حوالي 25٪ من الطلبة العراقيين يدرسون في مدينة إسطنبول، أي إن هناك 3750 طالبًا وطالبة يعيشون في مدينة إسطنبول وحدها، وهناك 9٪ يدرسون في العاصمة أنقرة، أي ما يقارب 1350 من الطلبة يعيشون في العاصمة فيما يتوزع الباقي على مختلف الولايات التركية.

ويدرس غالبية الطلبة على حسابهم الخاص؛ حيث بلغت نسبة الذين يتكفلون بدفع

أجورهم الدراسية 86٪، أما النسبة القليلة المتبقية (14٪) فلديهم منح دراسية. ويدرس 70٪ من الطلبة العراقيين في الجامعات الحكومية و30٪ يدرسون في الجامعات الخاصة، وغالبية الطلبة يتكفل أهلوهم بدفع أجورهم الدراسية ومصاريفهم الخاصة بهم (60٪ منهم)، أما النسبة المتبقية فهم يتكفلون بمصاريف دراستهم وسكنهم ومعيشتهم(32).

وفضلًا عن أنهم نشطون اقتصاديًّا، تكاد لا تجد في سجلات الجرائم الواقعة في تركيا شخصًا عراقيًّا متورطًا بجريمة أو جنحة تجاوز على القانون، وفق ما يؤكده الشمري. ويرجع الدكتور راشد السبب إلى كونهم من الطبقة العليا والمتوسطة ومن المتعلمين والقادرين ماليًّا(33).

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما الذي جعل العراقيين المهاجرين إلى تركيا بهذا العدد؟

في إجابته على هذا السؤال، يؤكد الشمري أن الهجرة العراقية إلى تركيا جاءت على شكل موجات كان أكبرها التي حدثت في 2014 مع سيطرة داعش على عدد من المدن، وسبقتها موجات أخرى أقل عددًا في 2003 و2006، مع ملاحظة أن الأردن وسوريا كانتا مقصدين للعراقيين في 2003 و2006 و2008، ممن عانوا من تبعات الاحتلال والاضطهاد والحرب الأهلية وذلك تبعًا للحالة المادية؛ إذ لجأ الذين من كان وضعهم المادي جيدًا إلى الأردن الذي كان بالنسبة للبعض محطة للهجرة إلى خارج العالم العربي (أميركا، وأوروبا، وكندا، وأستراليا)، فيما اختار متوسطو الحال الذهاب إلى سوريا. وكان معظم من لجأ إلى الأردن من العراقيين، في 2014، قد دخل طلبًا للجوء في دولة أخرى ولتقديم أوراق لجوئه من خلال مكتب الأمم المتحدة في عمان. وجاؤوا بأعداد كبيرة من محافظات مختلفة من بغداد وصلاح الدين والبصرة(34).

أما بالنسبة لتركيا فيمكن الحديث عن أعداد قليلة جدًّا في فترة التسعينات، ثم جاءت الموجة الأولى في 2003 بعد الاحتلال الأميركي للعراق ولكن بنسبة قليلة أيضًا، ولكن أكبر موجة حدثت هي التي جاءت بعد ظهور تنظيم الدولة (داعش) وسيطرته على عدد من المدن العراقية، وكان كثير من الهاربين من جحيم التنظيم يصلون تركيا بدون أية وثائق ثبوتية، ووُضعوا تحت الحماية المؤقتة، ويرجح الشمري أن يزيد

تعدادهـــم عن 300 ألف لاجـــئ، ممن جاءوا من محافظات الموصل وصلاح الدين والأنبار.

وفـــي العـــام 2015، أعلنت وزارة الهجرة والمهجريـــن العراقية، أن أكثر من 47 ألفًا من مواطنيها نزحوا إلى تركيا، هربًا من بطش تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" وبعد ســـيطرته على مدينة الموصل. وقالت الوزارة في بيان لها: إن "معظم النازحين من الكرد الأيزيديين والتركمان"، مشيرة إلى أنها استقت أرقامها من دائرة الهجرة والإقامة التركية بالتعاون مع السفارة العراقية في أنقرة.

يتدخل السيد الفايز في الحديث بقوله: لقي الفارُّون من بطش "داعش" في مدن مثل الموصل معاملة خاصة في تركيا، خاصة أن عائلات كثيرة قد لجأت بدون أية وثائق ثبوتية وكان يتم تسجيل أسمائهم والسماح بدخولهم، وهو ما سهَّل دخولهم إلى تركيا خاصة مع الحدود المشـــتركة. كما ســـمحت إجراءات سابقة منها إمكانية الحصول على التأشـــيرة في المطارات التركية للقادمين من العراق في تشـــجيع العراقيين على المجـــيء إلـــى هذا البلد، مقارنة بدول أخرى منها دول عربية تعاملت بشـــكل أمني مع العراقيين وأحجم كثير منها عن منح التأشـــيرات لهم. ويشـــير إلى امتداد عائلي للتركمان العراقيين والأكراد داخل تركيا، وهو أمر يعود إلى ســـنوات ســـابقة كثيرة، وكان حصولهم على الجنسية التركية مسألة سهلة للعراقيين التركمان(35).

ويســـجل الدكتور سرمد راشـــد ملاحظة مفادها: صحيح أن القادمين من محافظات الموصـــل وبغداد وصلاح الدين فـــي 2014 جاؤوا هربًا من بطش تنظيم الدولة، إلا أن موجات سبقتها بفعل الظروف التي حدثت في العراق وكان معظمها من المكون السنِّي(36).

وعندما قرر العراقيون افتتاح مدرسة عربية في تركيا (مدرسة الفائز الدولية) في العام 2015 كانت أول مدرســـة عربية معتمدة مـــن قبل وزارة التربية التركية. واليوم تضم المدرســـة طلابًا من أكثر من 34 جنســـية. وتقوم بتدريس مناهج اللغة العربية إضافة إلى المناهج البريطانية (منهج كامبردج)، ولديها فروع في إسطنبول وأنقرة وولايات تركيـــة أخرى(37). وامتازت هذه المدارس بالاســـتجابة للحاجـــة الثقافية للجاليات العربية إضافة إلى أمور تتعلق بالتربية الإســـلامية والدين الإســـلامي حيث اشتملت المدارس على مســـجد واهتمت بتدريس اللغة العربية بصورة كبيرة(38). كما أنشـــأ

العراقيون أيضًا مدارس الأندلس النموذجية، وهي مدرسة عراقية أهلية نموذجية تابعة لوزارة التربية العراقية- مديرية التبادل الثقافي (المدارس الأهلية في الخارج)، وتُمنح شـــهادتها من قبل الحكومة العراقية ويتم الاعتـــراف بها من الحكومة التركية، وهي معتمدة عند القبول في الجامعات التركية. ويبدو أن إنشـــاء مثل هذه المشـــاريع كان يتم بسهولة وسلاسة أكبر قبل سنوات ويعزو الفايز ذلك إلى التغيير الذي أُدخل على القوانين والإجراءات الخاصة بذلك(39).

وعن إدارة الجالية يقول الشمري: كنَّا معنيين بصورة أساسية بتمثيل الجالية العراقية أمام السلطات الرسمية التركية، وتذليل الصعاب والعقبات التي يواجها أفراد الجالية ومن ذلك المشكلات المتعلقة بالإقامة وغيرها، وتنسيق العمل مع الحكومة العراقية. ويضيـــف: نحـــن لا نريد أن نكون جهة إغاثية لأنه يوجد مؤسســـات لهذا الغرض، وتجمعنا علاقة تكاملية بين المؤسســـات الإغاثية والخدمية وغيرها. ويشـــير إلى أن الاختلاف في النســـيج الطائفي نجده داخل العراق أكثر من الخارج الذي يصفه بأنه يشهد انسجامًا بين المكونات المختلفة للعراقيين(40).

ويوضح الدكتور سرمد راشد أن إنشاء الجالية العراقية جاء لشعور بأنها من أضعف الجاليات العربية على صعيد من يمثلها أمام الســـلطات التركية، ولذلك فإن مأسســـة تمثيلها تصب في مصلحة الجالية من حيث حال مشكلاتها المتعلقة بالإقامة أو العمل أو الجنسية(41). يصف الدكتور راشد علاقات الجاليات العربية مع المؤسسات في تركيـــا بأنها علاقات رســـمية، وأقوى هذه العلاقات مـــع دائرة الهجرة، وقد نجحت جهـــود الجاليات العربية في حل كثير من الإشـــكاليات التي تخصها من خلال هذه العلاقة.

الجالية الليبية

يوصف حي لالالي في إســـطنبول بأنه ليبيا الصغيرة، أما شـــارع غينش ترك فيُطلق عليه شـــارع الليبيين. وجولة واحدة في الحي كفيلة بأن تخبرك عن ســـبب التسمية، فهنـــاك تطغى اللهجـــة الليبية على أحاديث الموجودين في المكان، كما أن المطاعم والشـــركات والمحلات التجارية في ذلك الحي يملكها ليبيون، وأصبحت اليوم من أهم المراكز التجارية وأقواها.

وأسهم الليبيون بصورة كبيرة في إنعاش قطاع التبادل التجاري بين البلدين والذي أصبح بمنزلة قطاع استثماري مستقل، وأصبحت ليبيا سوقًا للمنتجات التركية المختلفة، وتصل صادرات تركيا إلى ليبيا إلى مليارَي دولار أميركي سنويًّا، وأما الواردات فتصل إلى 350 مليون دولار سنويًّا.

في واحد من مقاهي إسطنبول وبالقرب من أحد الأحياء التي يوجد فيها العرب بكثرة التقينا برئيس الجالية الليبية زياد هاشم(42). يصف هاشم نفسه بأنه رحالة تجوَّل في كثير من بلدان العالم، وبدأ ارتحاله عندما كان معارضًا لنظام القذافي، ليعيش ما يقرب من 30 عامًا خارج ليبيا. عاد هاشم صاحب التوجه الإسلامي إلى بلاده بعد قيام الثورة وإسقاط القذافي(43)، ودخل بعد عودته معترك الحياة السياسية وشغل منصب مدير مكتب عضو هيئة رئاسة المؤتمر الوطني العام(44). ومع التعقيدات التي دخلتها العملية السياسية انتقل إلى تركيا حيث يعيش فيها منذ عشر سنوات ويحمل جنسيتها(45).

في حديثه عن الجالية الليبية في تركيا والتي تصنف من ضمن أكبر الجاليات، يقول هاشم إنها تحظى بمعاملة مميزة أمام الدوائر الرسمية التركية، وهي تشبه الجالية العراقية من حيث إنها مقتدرة ماليًّا، ولا تجد فيها ليبيًّا يبحث عن فرصة عمل بل هم مشغِّلون يستثمرون في تركيا(46). وهذه النخبة الليبية هي نخبة سياسية واقتصادية و"ميلشياوية"، وفق تعبير هاشم، الذي يؤكد أن ما يقرب من 20 مليون دولار تدور في السوق التركية يوميًّا مصدرها الليبيون.

يفيد هاشم بأن عدد الجالية الليبية المسجلة رسميًّا في تركيا يبلغ 33 ألفًا.

وقد أجريت انتخابات للجالية بصورة "مؤسسية ونزيهة وبإشراف القنصلية الليبية" التي لها علاقات طبيعية مع الجالية(47)، ولها نظام مؤسسي مودع لدى الدوائر الرسمية التركية وفق القانون(48).

يشير هاشم إلى اهتمام تركيا كدولة بليبيا، ولكنه يرى أن السياسة التركية تغيرت بعض الشيء مؤخرًا، وتميل الحكومة إلى التعامل مع تيار فكري معين سياسي في ليبيا وكأنها مغلقة أمام التيارات الأخرى. ويرى أن الأتراك لم يستفيدوا كثيرًا من الكتلة الليبية في تركيا، ويستطرد: صحيح أن الأتراك عينهم على ليبيا، وهي التي كانت آخر دولة تتخلى عن الدولة العثمانية، وما زالت بعض العائلات التركية تقيم

في ليبيا (مصراتة) منذ زمن الدولة العثمانية، ويأخذ علي الأتراك أنهم دائمًا يريدون ثمنًا سياسيًّا مقابل ما يقدمونه لأعضاء الجالية، ومن ذلك موضوع الإقامات(49).

تأخذ المشاكل التي يواجهها الليبيون في تركيا طابعًا ماليًّا، عكس الجاليات الأخرى التي تتركز مشاكلها في جوانب قانونية تخص الإقامة والعمل في معظم الأحيان، ويشير هاشم إلى أن كثيرًا من المستثمرين الليبيين واجهوا عمليات احتيال بعضها من أتراك وبعضها من قبل جنسيات أخرى مقيمة في تركيا(50).

ويسعى مجلس المصالحة في الجالية إلى حل مشكلات الليبيين وسجل نجاحات في حل كثير من القضايا، وبعضها كان ذا طبيعة عشائرية داخل ليبيا نفسها. وشكّلت الجالية أيضًا مجلس المرأة، ولديَّ في الجالية نائبة امرأة هي نظيرة العشيبي، وهذا المجلس لديه كثير من النشاطات التي تخص الشأن العام. كما تنظم الجالية فعاليات تختص بشهر رمضان وصلاة التراويح وصلاة العيد.

وأنشأت الجالية أيضًا مجلسًا لحقوق الإنسان والحريات العامة، يقوم عليه محام خريج من بريطانيا، ومحام من الكويت.

وهناك لجنة في طور الإنشاء تتعلق بمسألة التجنيس بحيث يتم وضع الشروط والقواعد التي تساعد على إعداد قوائم المرشحين للجنسية لتقدمها الجالية إلى الحكومة التركية.

وماذا عن الإيرانيين؟

يشتهر "مسجد والده خان" بـ"مسجد الإيرانيين"، في منطقة "البازار القديم" في إسطنبول، ويعود تاريخه إلى ثلاثمئة عام؛ حيث بناه العثمانيون ووضعوه تحت تصرف التجار الإيرانيين. ويقع المسجد في منطقة يكثر فيها وجود الإيرانيين(51).

في طريقي إلى المسجد متجهة من منطقة السلطان أحمد عبرت البازار القديم؛ حيث تختلط الأصوات واللغات واللهجات، وتحاول لافتات المحال التجارية أن تجذب أكبر عدد من الزبائن من خلال لغات عديدة وكذلك يفعل أصحاب المحلات التجارية والعاملون فيها بالمناداة بالتركية تارة والعربية والإنكليزية والفارسية تارات أخرى(52).

وصلت المسجد قبل موعد الصلاة وكان فارغًا إلا من خادم المسجد وشاب صغير كان حاضـرًا، مسـجد يبرز طرازه المعماري الإيراني بشـكل واضـح فيما بدا من موجودات داخل المسـجد أنه مسجد شـيعي اثني عشري. تبادلت أطراف الحديث مع خادم المسجد الذي أخبرني أن الصلاة تقام يوميًّا في المسجد باستثناء يوم الأحد حيث تكون عطلة. وعلمت أن إمام المسـجد سـيأتي في موعد الصلاة، فقررت أن أتجول في المكان حتى تحين الصلاة(53).

أقيمت الصلاة في المسجد، والتقيت بعدها بإمامه، حجة الإسلام محمد هادي فريد العصر، حيث حدثنا عن الخلفية التاريخية للمسجد، مشيرًا إلى أنه بُني في الأساس على يد العثمانيين ولكن عندما تعرض لحريق قام شخص إيراني يدعى محمد تقي شفيع زاده وبمساعدة التجار الإيرانيين الذين يقيمون في إسطنبول بإعادة بنائه(54).

وإضافة إلى أعداد تؤدي الصلاة في المسجد يوميًّا، تقام فيه مراسم عاشوراء في شهر المحرم وكذلك تقام بعض المراسـم في رمضان. وإضافة إلى هذا المسجد الصغير يوجد مسجد آخر ومقبرة لإقامة الجنازات في منطقة إسكودار(55).

يعتقد حجة الإسـلام فريد العصر أن النسـيج الاجتماعي في تركيا يشـهد حالة من التغير، وأن الهجرة هي أبرز عامل من عوامل هذا التغير. وحول خصائص الإيرانيين الذين يهاجرون إلى تركيا يشير إلى أن عدم التدين هو أبرز هذه الخصائص(56).

تشير التقارير الإيرانية إلى أن تركيا واحدة من بين عشر دول تتصدر قائمة البلدان التي يقصدها المهاجرون الإيرانيون، وهي: الإمارات العربية المتحدة والولايات المتحدة وكندا وألمانيا وبريطانيا وتركيا والسويد وأستراليا والكويت وهولندا(57).

يبرز المجتمع الإيراني المهاجر في تركيا بوضوح، وحتى الزائر العادي يمكنه أن يرى ويسـمع مظاهر هذا الوجود: اللغة الفارسـية، المطاعم، مكاتب السفر والتحويلات المالية التي تكتب بخط واضح أنها تقبل البطاقات البنكية الإيرانية. يتوزع الإيرانيون بصورة كبيرة في أنقرة وإسطنبول وأزمير وأنطاليا وغيرها من المدن التركية. وتحظى إسطنبول بفعل عوامل عديدة بمكانة أكبر على صعيد المدن التي يقصدها الإيرانيون وتبـرز أحيـاء بعينها بوصفها أماكن يسـتقر فيها الإيرانيون مثـل: حي "خان والده"

و"أكسراي" و"إسنيورت" و"بيليك دوزو" وغيرها. وما بين اللجوء والشراء العقاري، تتوزع الهجرة الإيرانية إلى تركيا.

وكما تتنوع أسباب هجرة الإيرانيين بين سياسية واجتماعية واقتصادية، هناك نخبة إيرانية اختار بعضها الهجرة إلى تركيا إما بغرض الاستقرار فيها، أو لكونها ممرًّا إلى أوروبا وأستراليا ودول أخرى، وبين عامي 2000 و2014، تجاوزت نسبة الإيرانيين المهاجرين من النخبة والحائزين على جوائز علمية 60٪، وذكرت صحيفة "جمهوري إسلامي"، خلال سبتمبر/ أيلول 2017، أن نحو 180 ألف إيراني من النخبة وحملة الشهادات العليا يهاجرون سنويًّا(58). وقد أصبحت الدول المجاورة لإيران، مثل الإمارات وتركيا وجورجيا، وجهة جيدة للإيرانيين لقربها وظروف الاستثمار المناسبة لها، لكن العقوبات الأميركية تسببت في مشاكل كثيرة للإيرانيين في الدول المذكورة. وفي السنوات الماضية، حظرت الإمارات العربية المتحدة الحسابات المصرفية للإيرانيين بعد العقوبات الأميركية، وواجه الأشخاص الذين كانوا يقيمون هناك مشاكل في تمديد إقامتهم، ونتيجة لذلك اضطروا إلى الهجرة إلى دول أخرى.

مع إعلان السلطات التركية تطبيق قانون "الأجانب والحماية الدولية"، أصبحت عملية الحصول على الإقامة السياحية لمواطني بعض الدول، بما في ذلك إيران صعبة. دخل هذا القانون حيز التطبيق لفترة وجيزة في 2019(59) وأعلنت دائرة الأجانب التابعة لوزارة الداخلية التركية عن نيتها إيقاف تجديد الإقامة السياحية لحملتها من جميع الجنسيات وتم تعليقه بسبب جائحة كورونا، يغيِّر هذا القانون مصير مئات الآلاف من المهاجرين ومن بينهم ما يقرب من 80 ألف إيراني في تركيا، بات عليهم اختيار مسار آخر للإقامة أو الهجرة أو العودة إلى إيران(60).

في أنقرة في شارع "كزلاي" التقينا "مجيد" 29 عامًا، والذي قُبل لاجئًا، يقول مجيد: لقد أنفقت كل ما لدي للمجيء إلى تركيا، ولكن ظروف الحياة هنا صعبة، شروط العمل الصعبة، مراحل اللجوء الطويلة والمعقدة، صعوبة الحصول على العناية الصحية المناسبة والرسوم السنوية التي يجب أن تُدفع. صحيح أن الإيرانيين يتقدمون في قائمة مشتري العقارات في تركيا، لكن آلاف اللاجئين منهم يعانون من أوضاع مادية صعبة.

وتتحدث السجلات عن أن طالبي اللجوء الإيرانيين في تركيا، يبلغ عددهم 24

ألفًا و300 شـــخص على الأقل، وبحســـب المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئيـــن، يعيـــش ما يقـــدر بنحو 67 ألف إيراني في تركيا، مـــع ارتفاع الأعداد في السنوات الأخيرة حيث يفر البعض طلبًا للجوء السياسي فيما يحاول آخرون تجنب العقوبات الأميركية على إيران عن طريق شـــراء العقارات والســـعي للحصول على الجنســـية التركيـــة. ووفقًا لمقابلات أجرتها الباحثة مع عامليـــن في قضايا اللاجئين فضلوا عدم الكشف عن أسمائهم فإن من أهم الأسباب التي يقدمها الإيرانيون طلبًا للجوء هي: التحول إلى المسيحية، واعتناق البهائية، ولأسباب سياسية.

وترتفـــع الأرقام التي تقدمها إدارة الهجـــرة التركية، والتي تقول بأنه يعيش في تركيا حوالـــي 115 ألـــف إيراني؛ ما يقرب من 10000 من هؤلاء الأشـــخاص لديهم إقامة طلاب، و4000 إقامة عائلية و95000 إقامة مؤقتة، ومنهم 80.000 شخص لديه إقامة ســـياحية ويخضع للقانون الجديد(61). أما الأرقام غير الرســـمية فتتحدث عن تعداد يتراوح بين 100–150 ألف شـــخص، وترفعها أخرى إلى رقم يتراوح ما بين 400 –500 ألف شخص.

في أكســـراي وبالقرب من أحد المطاعم الإيرانية التقينا أميد ناظري الذي جاء إلى تركيا وحصل على إقامة ســـياحية أملًا فـــي أن يجد طريقًا للهجرة إلى أوروبا، ومع إزالة إمكانية الإقامة الســـياحية، فإن الطريقة الوحيدة للبقاء في تركيا هي الدراسة أو تســـجيل شركة أو شـــراء عقار ولم يعد بإمكان العديد من الإيرانيين الموجودين في تركيا بموجب عقد إيجار الحصول على تصريح إقامة جديد في تركيا.

يتحـــدث ناظري عن أن زيادة القيود الاجتماعية، ومشـــاكل الاقتصاد الإيراني بفعل العقوبـــات الاقتصاديـــة وإفلاس الأعمـــال التجارية، وفقدان فـــرص العمل، دفعت الإيرانيين، إلى البحث عن طرق تناسب ظروفهم الاقتصادية للهجرة. وبالنسبة لكثير من الإيرانيين فإنهم يفضلون الهجرة إلى أميركا وكندا وأوروبا.

يحدثنا حســـين جهانغير الذي قابلناه في واحد من مكاتب الســـفر في أكســـراي أن مـــن أهم الأســـباب التي جعلت الإيرانييـــن يتصدرون قائمة مشـــتري العقارات في تركيـــا في العاميـــن الماضيين العقوبات الأميركية، وانخفـــاض قيمة العملة الوطنية، وعدم الاســـتقرار الاقتصادي في بلدنا. وبســـبب انخفاض قيمة العملة التركية خلال

السنوات الأخيرة وعدم الاستقرار الاقتصادي في هذا البلد وإدراجها في القائمة الرمادية لمجموعة العمل المالي، في أكتوبر/ تشرين الأول 2021(62)، فقد تسبب ذلك بكثير من المخاوف للمستثمرين الإيرانيين الذين كانوا يعتقدون أن تركيا مكان جيد لاستثماراتهم.

الأفغان: رحلة الهرب واللجوء المضنية

على مدى السنوات التي سبقت عودة طالبان إلى سدة الحكم، رأت تركيا في أفغانستان ساحة مناسبة للعمل السياسي والدبلوماسي والعسكري لتحسين علاقاتها مع الولايات المتحدة وتعزيز مكانتها داخل حلف الناتو وكذلك تقوية موقعها في العالم الإسلامي. ولطالما كانت تركيا، الدولة الوحيدة ذات الأغلبية المسلمة في الناتو، ذات نفوذ دبلوماسي وسياسي في أفغانستان. فهي لا تتمتع فقط بعلاقات تاريخية وثقافية ودينية وعرقية عميقة الجذور مع أفغانستان ولكن أيضًا مع باكستان التي دعمت طالبان. وحاولت تركيا لعب دور سياسي فنظمت عدة اجتماعات قمة بين حكومتي باكستان وأفغانستان في محاولة لتحسين الحوار بين الدول المجاورة.

في مايو/ أيار من العام 2022، أعلنت دائرة الهجرة التركية، عن ترحيل أكثر من 28 ألف مهاجر غير شرعي من البلاد بزيادة بنسبة 70٪ مقارنة بالفترة نفسها من العام الذي سبقه. وبحسب الإعلان، فإن المهاجرين غير الشرعيين المُرحَّلين، والذين يزيد عددهم عن 28581 شخصًا، كانوا أشخاصًا دخلوا البلاد بشكل غير قانوني، وانتهكوا أنظمة التأشيرات والإقامة، وعملوا دون تصريح، وارتكبوا عمليات احتيال، أو عرَّضوا السلامة العامة للخطر. وكان المهاجرون غير الشرعيين المرحَّلون من 94 جنسية مختلفة، على رأسهم أكثر من 10000 مواطن أفغاني.

يتزايد عدد الأفغان في تركيا بشكل مطرد؛ حيث شهدت تركيا موجة كبيرة من اللاجئين الأفغان بعد عودة طالبان إلى سدة الحكم. وتزامن وصول هذه الموجة مع الأزمة الاقتصادية غير المسبوقة ومع تزايد حدة المناقشات السياسية حول المهاجرين؛ وهو ما عزَّز الدعوات المعارضة لوجودهم.

أدت الأزمة الاقتصادية وتهديدات الشرطة إلى خلق حالة من عدم اليقين لدى الأفغان الذين يعيشون في تركيا، بالإضافة إلى استغلالهم من قبل أرباب عملهم

وعدم تمكنهم من الوصول إلى الخدمات العامة، فإنهم يواجهون الآن خطر الاعتقال أو الترحيل إلى إيران.

بسبب النهج الأمني المشترك في المنطقة للسيطرة على الحدود، يواجه الأفغان بشكل متزايد مشـاكل كبيرة ليس فقط في دخـول تركيا، ولكن أيضًا في المرور عبر تركيا إلى أوروبا، التي تزداد تكاليف ومخاطر السـفر إليها. ويعبر المهاجرون الأفغان إلى تركيا من الحدود الشـرقية مع إيران، وتأخذ منهم الرحلة سـيرًا على الأقدام من 10 إلى 15 يومًا.

ورغم التشـديد الأمني اسـتطاع منصور (28) عامًا الوصول إلى إسطنبول من خلال مهرِّب نقله مع غيره في حافلة صغيرة. وتكشف أرقام وزارة الداخلية التركية أن عدد طالبي اللجوء الذين قُبض عليهم لدى دخولهم إلى تركيا عبر محافظة "وان" وحدها، في عام 2020، بلغ 500 ألف، توزعوا بين مهاجرين أفغان وباكستانيين وبنغاليين(63).

ويحتل الأفغان المرتبة الثانية بعد السوريين في الأراضي التركية؛ إذ يتجاوز عددهم 500 ألف شخص، حسب إحصائيات رسمية تركية. ووفقًا للأمم المتحدة، تستضيف تركيا حوالي 183 ألف طالب لجوء أفغاني، بينما يقيم هناك 300 ألف أفغاني بشكل دائم. وكان يدخل تركيا وهي البلد الأعلى في العالم من حيث عدد اللاجئين ما بين 500 إلى 2000 من اللاجئين الأفغان يوميًّا.

بدأ عدد المهاجرين الأفغان غير الشرعيين الذين يصلون إلى تركيا بالازدياد منذ عام 2018، عندما دخل حوالي 100000 مهاجر أفغاني غير شرعي إلى البلاد، وفقًا لأرقام مركـز الهجرة المختلـط (Mixed Migration Centre,). ولاقت موجة الهجرة هذه حالة من الرفض بين الشـعب التركي، وأعلن حزب الشـعب الجمهوري المعارض الرئيسـي فـي تركيا موقفًـا مناهضًا بصورة صريحة للاجئيـن، وتعهد زعيمه، كمال كليتشدار أوغلو، "بإعادتهم إلى الوطن" إذا تولى حزبه السلطة.

في ذلك الوقت، كانت تركيا تستضيف أكبر عدد من اللاجئين في جميع أنحاء العالم، واسـتجابت الحكومة بالتركيز على تأمين حدودها مـع إيران واللجوء إلى الترحيل الجماعي إلى كابل، وكان مصطلح "عمليات الإعادة الطوعية" يستهدف بشكل منتظم المهاجرين غير الشرعيين الذين احتُجزوا لشهور(64).

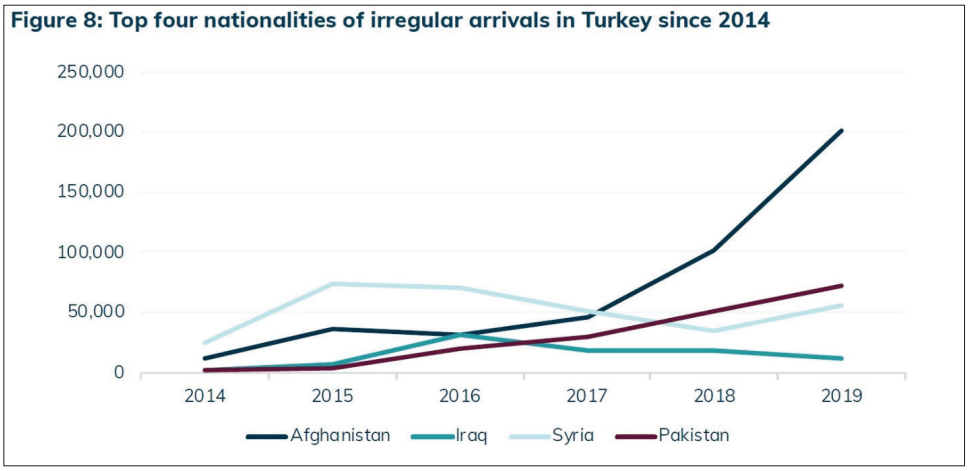

رسم بياني يوضح تصاعد أعداد اللاجئين الأفغان الذين يقصدون تركيا منذ العام 2014 (المصدر: www.mixedmigration.org)

ووفقًا لمعلومات قدمها رئيس مركز دراسات اللجوء والهجرة بأنقرة، متين كوراباتير، فمعظم الأفغان الذين وصلوا إلى تركيا عبر إيران هم رجال تتراوح أعمارهم بين 16 و25 عامًا، وأعطى الانسحاب الأميركي من أفغانستان زخمًا إضافيًّا للشباب الذين يسيرون عبر الطريق الجبلي، على الرغم من المخاطر وسيناريوهات الموت(65).

ومن خبرتها توضح "ن، أ" أن الأفغان هم أكثر صنف من اللاجئين يجهلون متطلبات وآليات اللجوء، وتضيف: يعتقد كثيرون ممن قابلناهم أن كونهم خدموا في الجيش الأفغاني وفرُّوا مع سيطرة طالبان على البلاد يعطيهم نقاطًا تساعد في قبولهم كلاجئين، في حين أن الخلفية الأمنية والعسكرية لطالب اللجوء هي من معيقات قبول طلبه(66).

في واحد من مطاعم الأفغان في إسطنبول، تجاذبنا أطراف الحديث مع شاهين: لا أحد يترك وطنه عبثًا! لقد كنت مضطرًّا وأُجبرت على مغادرة وطني، منذ عقود لم أذق -ومثلي كل الشعب الأفغاني- طعم الأمن.

يتناول تحقيق استقصائي أحوال الأفغان في إسطنبول ويتوقف فابريزو فوستشيني عند "جامعي القمامة"، وهم في أغلب الأحيان من الفتيان الصغار أو حتى القصر، وهو مشهد مألوف في جميع أنحاء إسطنبول. عادةً ما يكون جمع القمامة هو أول وظيفة

يمكــن للقادميــن الجدد الحصول عليها لأنهم لا يتحدثــون اللغة ولا يمتلكون أي مستندات. يمكن أن تكون هذه مهنة مؤقتة، تتراوح من بضعة أشهر إلى بضع سنوات، أو يمكن أن تصبح مهنة مدى الحياة. وتعكس قصص كثير من العمال الذين قابلتهم الباحثة من الأفغان طريقة الدولة التركية في غض الطرف عن أولئك الذين يقومون بنشاط اقتصادي غير منظم وحيوي مثل جمع القمامة.

وفي منطقة زيتون بورنو التي تقع في الجزء الأوروبي من مدينة إسطنبول، من الممكن أن تقابل كثيرًا من الأفغان بعضهم مقيم منذ ســنوات دون أن يكون مســجلًا بصورة رسمية، ويأمل كثيرون أن يتمكنوا من عبور البحر نحو أوروبا.

يقسِّم تحقيق مفصل لجمعية أبحاث الهجرة عنوانه "أشباح إسطنبول" ونُشِر في يناير/ كانون الثاني 2021، الأفغان الذين يعيشون في إسطنبول إلى خمس فئات:

1 . المهاجرون غير الشرعيين بدون جوازات سفر أو تأشيرات منتهية الصلاحية.

2. المســجلون في مدن صغيرة مختلفة ولكنهم يعيشــون في إســطنبول بشكل غير رسمي.

3. أولئك الذين يمرون إلى أوروبا.

4. أولئك الذين لديهم تصريح إقامة دائمة أو جنسية.

5. أولئك الذين يدخلون للعمل أو الدراسة بالطرق الرسمية.

وفقًا لهذا التقرير(67)، فإن معظم الأفغان الذين يعيشون في إسطنبول يندرجون في الفئة الأولى وهم من الشباب.

الكأس: النصف الممتلئ والنصف الفارغ

رغم الترحيب الكبير الذي يلمســه الفلســطينيون على وجه الخصوص من المجتمع التركي إذ يعتبرون أن الترحيب بالفلسطيني يأتي في إطار دعم القضية الفلسطينية، إلا أن الفلسطينيين يتشاركون مع الجاليات العربية الأخرى في المشاكل المتعلقة بالسكن والإقامات واللغة والاندماج، والإجراءات البيروقراطية المعقدة بشأن معاملات الإقامة والعنصرية تجاه العرب والصور النمطية التي تلاحق المهاجرين بأنهم يسرقون قوت

المواطن التركي ويزاحمونه في لقمة عيشه، والتوظيف السياسي لملف اللاجئين والذي يبرز بصورة جلية مع كل عملية انتخابية(68).

ويُجري المسؤولون عن الجاليات العربية حوارات دورية مع المسؤولين الأتراك، ومع العاملين في أقسام الاندماج في الاجتماعات الدورية التي تعقدها هذه الأقسام مع ممثلي المهاجرين؛ حيث إنهم جزء من منظومة الاندماج التي تسعى لدمج المهاجرين في المجتمع التركي، وتتم مناقشة المشكلات السابقة والسعي لحلها(69).

ولا يرى مشينش في المجتمعات المهاجرة تهديدًا للنسيج الاجتماعي التركي، وذلك لأسباب عدة أهمها تماسك المجتمع التركي ثقافيًّا، ووضوح هويته، وكذلك تعداده الكبير الذي يصل إلى 81 مليونًا. كما أن وجود نخب من جميع الجنسيات التي لجأت إلى تركيا يمثل إضافة تغني المجتمع(70).

ولا يمكن إغفال الأثر الذي تركه المهاجرون في مجالات عدة، ففي موضوع الارتباط الديني أحدث المهاجرون نقلة كبيرة على صعيد علاقة تركيا مع العالم الإسلامي، وأحدثوا تغييرًا في الحالة الدينية، فمن المعروف أن التدين التركي مرتبط بالطرق الصوفية، ومع مجيء المهاجرين العرب بدؤوا يتعاملون مع أنماط أخرى من التدين، وزاد الإقبال على المساجد.

وهذه المجتمعات المهاجرة في الأغلب يمكن تصنيفها في باب "القوة الناعمة" للدولة التركية، فالناس في الأغلب لديهم امتدادات في أوطانهم الأصلية وما ينقلونه عن صورة تركيا مؤثر جدًّا في مجتمعاتهم، حتى إذا تغيرت الأوضاع السياسة وقرر هؤلاء المهاجرون العودة إلى أوطانهم(71).

أوجدت المجتمعات العربية المهاجرة نوعًا من الاتصال المباشر بين العرب والأتراك، وهذا الاحتكاك أثَّر بصورة إيجابية على تجسير الفجوة وإسقاط كثير من الصور النمطية التي يحملها كل طرف عن الآخر.

يرى الشمري أن ظاهرة الهجرة واللجوء شكَّلت عبئًا على الدولة التركية والمجتمع التركي لأسباب كثيرة في مقدمتها الأسباب الاقتصادية والحاجة إلى تنظيم شؤونهم وتسكينهم..، ولكن هذا الوصف من وجهة نظره لا ينطبق على الجميع، ومنهم جزء لا يستهان به من الجالية العربية التي تشمل الجالية العراقية المهاجرة إلى تركيا؛ فهي -كما يقول- شكَّلت إضافة كرجال أعمال أو مشتري عقارات أو الساعين للحصول

على الجنسية التركية مقابل الاستثمار وشراء العقارات(72)، وفقًا للإجراءات التركية التي تتغير من فترة لأخرى حسب قرارات دائرة الهجرة ووزارة العمل وغيرها من المؤسسات التركية ذات العلاقة بموضوع الهجرة واللجوء. وهذه المداخل من وجهة نظر الشمري تمثل دخلًا يصب في الخزينة التركية. كما أن الطلاب العرب يقبلون على دخول الجامعات التركية وهو ما يضيف أيضًا إلى القطاع التعليمي، ومنهم خبرات تجد طريقها للعمل في الجامعات والمعاهد التركية، وذلك على الرغم من صعوبة الإجراءات المتعلقة بمعادلة وتصديق الشهادات الصادرة من جامعات خارج تركيا(73).

يتحدث بركة عن قدرة المهاجرين العرب على الانخراط في سوق العمل، بصورة لا يمكن وصفهم معها بالعبء، وإن كانت اللغة تعد أكبر عائق على هذا الصعيد، ويرى أن اللغة هي المدخل الأساسي للانخراط والتفاعل مع المجتمع التركي، ويصف التنوع الثقافي بـ"نقطة قوة للدولة والمجتمع وليس تهديدًا"(74).

قدَّم العرب في تركيا عمومًا الكثير من الخدمات والإضافات، فهناك كثير من رجال الأعمال والمستثمرين العرب من مختلف الجنسيات ممن استثمروا رؤوس أموال ضخمة في قطاعات اقتصادية متنوعة وأقاموا مشاريع وفرت فرص عمل للأتراك أنفسهم، خاصة أن القانون التركي يجبر أي مستثمر يؤسس شركة أن يقدم فرص عمل للأتراك داخل مؤسسته الناشئة(75).

ويجزم الشمري بوجود خبراء عرب في مختلف المجالات من الممكن أن يقدموا المشورة للقطاعات التركية مما يسهم في التخفيف من ضغط الهجرة، وذلك يحتاج إلى قرار سياسي بقبول هذه الآراء، ولكن الملاحظة التي يسجلها الشمري أن الدولة التركية تميل إلى الاستفادة من خبراتها وكوادرها الذاتية وترجح المقترحات التي تأتي من الأتراك بصورة أكبر في كافة القطاعات خاصة القانوني والأمني(76). وإن كان الشمري يعطي الحق للدولة التركية إلا أنه يأمل أن تصبح أكثر مرونة فيما يتعلق بالاستفادة من خبرات المهاجرين لتحقيق الفائدة المشتركة.

وهناك مؤسسات صحية أُنشئت من قبل المهاجرين العرب مثل مستشفى المهاجرين الذي أنشأته الجالية السورية، ولكن خدماته لا تقتصر على السوريين بل تشمل جميع المهاجرين، ومن خلال بطاقة الإقامة "كيملك" يقوم بالتسجيل للفحص الطبي المجاني

ويجري الفحوصات اللازمة ويُعطَى العلاج المناسب مجانًا. وهذه المشاريع إضافة إلى أنها مشاريع تقدم الخدمة الإنسانية فهي توفر فرص عمل وتدعم جهود الدولة في التعامل مع احتياجات اللاجئين.

تقوم الجاليات العربية ومنها المصرية بالتعاون مع مؤسسات تركية لتعزيز قضية الاندماج، ومن أمثلة هذه الجهود مشروع اسمه "أمة واحدة" يقوم عليه مصريون وأتراك، وبمشاركة ممثلين عن مؤسسة الهجرة ومؤسسة الإفتاء التركية في إسطنبول، وهدفه تعزيز الاندماج بين العرب عمومًا (مصريين وسوريين وعراقيين..) وبين المجتمع التركي، ويتم في إطار جهود الاندماج تنظيم أسواق خيرية مع بعض الشركات، وتنظيم رحلات جماعية لشباب عرب وأتراك.

تعاني المجتمعات العربية المهاجرة إلى تركيا من العنصرية، وهي مشكلة موجودة بقوة ولا يمكن إنكارها وفق ما يؤكده من قابلناهم، ولكن وللإنصاف فإنه يتم مواجهتها بقوة أيضًا من قبل الدولة، ومن مواطنين أتراك لا يقبلون بهذه السلوكيات العنصرية وهم قادرون على رؤية الجانب المشرق من مسألة اللجوء وكيف يشكِّل إضافة لمجتمعهم، في حين ينظر الطرف المعارض إلى المسألة بوصفها تهديدًا متعدد الأوجه، اجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، ويعزز من هذه المشكلة التوظيف السياسي لقضية اللاجئين والذي يتصاعد مع الانتخابات. ومع اقتراب الانتخابات لا يُخفي اللاجئون العرب قلقهم إزاء بعض الطروحات لأحزاب وتيارات مشاركة في الانتخابات وتحمل عداء ومواقف متشددة تجاه اللاجئين والمهاجرين.

وورقة اللجوء على الرغم من حساسيتها الإنسانية يجري توظيفها سياسيًّا من قبل كثير من الدول، فورقة المهاجرين في أميركا لعبها ترامب في وقت من الأوقات وكذلك الحال في فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، ويستدرك فتوح: رغم حدوث وقائع عنصرية في تركيا لا يمكن إنكارها، إلا أن الاتجاه الحاكم أو النظام الحاكم يدعم اللاجئين والمهاجرين، وربما يفسر ذلك حالة الخوف لدى اللاجئين من محاولة الانقلاب الفاشلة التي جرت في يوليو/ تموز 2016(77).

وأحيانًا تكون المجتمعات المهاجرة ضحية للتنافس السياسي، وقد يقدم مسؤول على إجراءات ضد المهاجرين من باب التضاد مع مسؤول آخر لديه مواقف داعمة لهم(78).

ورغم أن بركة تعرض لأكثر من موقف عنصري كان يسمع فيه شتائم عنصرية إلا أنه أيضًا اختبر تعاملًا إنسانيًّا أخويًّا من قبل الأتراك في مناسبات أخرى عديدة ومنها تعرضه للسقوط، ليندفع عشرات الأشخاص لمساعدته.

وهناك يمكن التوقف عند قضية الاندماج وعدم الاندماج فكثير من العرب خاصة من الكبار في السن يُحجم عن تعلم اللغة التركية ولا يختلط إلا بالتجمعات العربية وهذا بدوره يعيق جهود الاندماج ويغذي مسألة العنصرية، ونجد الصورة مغايرة عند الصغار في السن خاصة الذي التحقوا بالمدارس التركية. ويعتقد الشمري بوجود اختلاف في الثقافة بين العرب والأتراك في بعض المدن، وهذا الاختلاف مسؤول عن تكوين مجتمعات عربية داخل المجتمع التركي(79).

ويأخذ بركة على بعض المهاجرين العرب إحجامهم عن تعلم اللغة التركية والانخراط والتفاعل مع المجتمع التركي، ويصف بعض التجمعات العربية بأنها تعيش "في بيئة معزولة، فالذي يستقبلهم في المطار عند الوصول عربي، ويستأجرون بيتًا في حي عربي، ويرتادون مطاعم عربية"، وهذا في مجموعه لا يساعد في مسألة الاندماج، ويعطي بيئة خصبة لبناء كثير من الصور النمطية غير الصحيحة عنهم لدى المجتمع التركي(80). كما يأخذ عليهم بعض السلوكيات السلبية التي تشجع من وجهة نظرة على تعزيز حالة الرفض لهم من قبل المجتمع التركي.

ويروي بركة قصة عن مهاجر عربي أقام مع عائلته في احدى الولايات التركية، وكان مزارعًا ماهرًا وقد اجتهد في تعلم اللغة التركية من المزارعين الآخرين، وبعد عام من العمل والتعلم كان المختار يكافئه برفع توصية إلى الوالي يعدِّد فيها صدق الرجل وتفانيه في الزراعة ويشيد بتعلمه التركية، وقد تم منحه الجنسية بناء على هذه التوصية(81).

يصف الشمري الجهود التي تبذلها تركيا في مجال الاندماج بـ"المتواضعة والخجولة"، ويرى أن المسألة تحتاج إلى ما هو أكثر من جعل المهاجرين ينخرطون في "دورة للاندماج" لساعتين أو ثلاث ساعات وينتهي الأمر، وذلك إن هي أرادت إحداث اندماج مجتمعي حقيقي تظهر نتائجه بصورة ملموسة(82).

ويصف رئيس الجالية الليبية انخراط الليبيين في عملية الاندماج مع المجتمع التركي

بأنه ضعيف جدًّا، فهم يعيشــون مع بعضهم ولا يتكلمون اللغة التركية، وذلك "مرده في جزء كبير منه إلى الشــعب الليبي نفســه الذي يميل إلى البقاء داخل محيط ليبي أينما ذهب، وليس الشعب التركي الطيب"، وفق تعبير هاشم(83).

يشــير الشــمري إلى المعايير التي تتبعها الدولة التركية في الجانب الاجتماعي، وكل منطقة يجب ألا تتجاوز نسبة السكان الأجانب فيها الـ20٪ سواء كانوا عربًا أم غير عرب، وذلك بهدف حماية النسيج الاجتماعي والحفاظ على التوزيع الديمغرافي في البلاد عمومًا(84).

ولا يمكن وصف الانسجام بين المجتمع التركي والعرب بأنه على نفس السوية في جميــع الأماكــن، بل يختلف من منطقة إلى أخرى فــي تركيا، وهناك مناطق يوضح الشــمري أنها تشــهد انسجامًا كبيرًا مثل إسطنبول ويلوا وبنسبة أقل في أنقرة، ونجد الحساسية أقل في المدن التي اعتادت أن تستقبل عرقيات مختلفة مثل إسطنبول(85).

ولعل ما يســميه الشــمري بـ"اضطــراب وعدم ثبــات القانون التركــي فيما يتعلق بالمهاجرين كنظام الإقامة حيث تتغير المعايير بصورة مستمرة انعكس بصورة سلبية على المجتمعات المهاجرة التي باتت تشعر بعدم الاستقرار تبعًا لذلك، وهناك رجال أعمــال يجــدون صعوبة في الحصول على إقامة عمل رغم أنهم يُدخلون أموالًا إلى القطاع الاقتصادي التركي(86). ولدى الجالية العربية مقترحات تنفع الحكومة التركية والمهاجرين في هذا الجانب، وجرت مناقشــتها في جلســات رسمية مع المسؤولين الأتــراك، ولكــن كانت هذه المقترحات تصطدم دائمًا بالبيروقراطية الشــديدة داخل المؤسسات التركية ولم يتم الاستجابة لها(87).

ومــن المقترحات التي جــرى تقديمها مقترح يتعلق بالمعاييــر، فطبق معايير الأمم المتحــدة فــإن متوســط العائلة (6 أفراد)، فذلك يعنــي أن تركيا تضم ما يقرب من مليون عائلة من المهاجرين، فلو جرى تخصيص مبلغ مالي (10 آلاف دولار) تدفعه كل عائلة مقابل الإقامة وتودعه في بنك معتمد لهذه الغاية فسيوفر ذلك دخلًا ضخمًا، وبــدلًا مــن إلغاء الإقامة يتم تحويل هذا الكم الهائل من البشــر إلى مصدر للدخل ويعطي فرصة لتدوير الأموال لأكثر من مرة خلال السنة المالية.

كما أن الشــروط المتعلقة بتوظيف الأتراك داخل الشــركات التي ينشــئها الأجانب

تحتاج إلى مراجعة، فمقابل كل أجنبي يجب أن توظف الشـركة خمسـة أتراك، لأن ذلك دفع شـركات أجنبية إلى التوظيف بشكل غير قانوني (عقود خارجية، أو عقود لفظيـة)، وهذا إضافـة إلى أنه يمس بمصالح العاملين وفيه تجاوز للقانون فقد حرم الدولة في الوقت ذاته من مستحقات يجب أن تدفع لقاء التأمين الصحي وغيرها من الامتيازات التي تُعطى للعاملين(88).

وهذا الإشكاليات يمكن حلها بطرق عدة في إطار التعامل مع رجال الأعمال بصورة تجارية، ولكن الحلول المقترحة تُقابَل بالرفض لأسـباب لا تبدو مفهومة للشـمري الذي يعمل في الحقل الاقتصادي، "في كل مرة نقدم مقترحًا يقولون: ما شاء الله رأي جيد.. ولكن الأمر بيد وزارة الداخلية، أو الأمر بيد وزارة العمل أو.. أو ...."(89).

وتتأثر هذه المسـائل بصورة كبيرة بالموضوع السياسـي الداخلي وكيفية إدارة لعبة التنافس السياسي بين الحكومة والأحزاب السياسية الأخرى على الساحة التركية.

العملية الطويلة لقبول طالبي اللجوء؛ أولئك الذين يدخلون تركيا لأول مرة ويُحالون إلـى مكتب الأمم المتحدة، عادة، يجـب تحديد موعد للاجتماع الأول في غضون أسبوعين، ولكن هذه الفترة قد تمت زيادتها إلى 8 أشهر. ثم تبدأ عملية رفع القضية، والتي تستغرق وقتًا طويلًا، وفقًا لطالبي اللجوء، وقد تستمر لسنوات.

بعد يوم شـاق من العمل في قضايا اللاجئين، قابلنا السـيدة "ن. أ"(90) والتي تعمل في قضايا اللاجئين وفضلت أن تبقي هويتها مجهولة، تقول: نعمل مع ثلاثة أصناف من الأجانب في تركيا: لاجئين مسـجلين، ولاجئين غير مسـجلين، ومهاجرين، أما الإقامات فهي تتم وفق العملية التالية:

الإقامـة المؤقتة: حتى تتم مراجعة حالة طالب اللجوء والرد عليها، سـتمنح الإدارة العامة للهجرة التركية هؤلاء الأشخاص تصريح إقامة مؤقتة. وبعد التسجيل كلاجئين وتقديم المسـتندات لطلب اللجوء، يضطر هؤلاء الأشـخاص إلى الإقامة في مدن تحددها إدارة الهجرة ويُسـتثنى منها إسـطنبول وأنقرة بصورة أساسـية ولا يمكنهم مغادرة هذه المدينة دون إذن. ولإثبات وجودهم في المدينة، يجب عليهم الحضور في مركز الشرطة أو مكتب الهجرة في مدينتهم بين يوم وثلاثة أيام في الأسبوع.

وفيما يتعلق بالعمل توضح أنه في القوانين المتعلقة باللاجئين، يُسمَح بتقديم طلب للحصول على تصريح عمل للاجئين، ولكن في الممارسة العملية، فالشروط معقدة فيما يتعلق بالحصول على عمل، ويجب تقديم طلب تصريح من صاحب العمل الذي يحمل الجنسية التركية وكان قد وظَّف سابقًا 5 مواطنين أتراك في مكان عمله ونشر إعلانًا عن الوظيفة قبل 4 أسابيع، وإذا لم يتقدم مواطن تركي بناء على هذا الإعلان، يمكن توظيف طالبي اللجوء هؤلاء. ويُحجم كثير من اللاجئين عن السعي للتقدم بطلب عمل بسبب تعقيد هذه العملية(91).

وتشير إلى أن عددًا آخر من اللاجئين، ولتعقيد الحصول على عمل، يلجأ إلى العمل بشكل غير قانوني، وهو ما يعرضهم للكثير من الانتهاكات، وتشير إلى أن كثيرًا من النساء اللاجئات واللواتي يعملن بطرق غير قانونية يتعرضن للتحرش وعدم تلقي الأجور، وتؤكد أن النساء اللاجئات خاصة الإيرانيات ممن يعملن في المطاعم والبيوت قلن إنهن تعرضن للابتزاز والتحرش ولكنهن لا يُقدمن على تقديم شكوى بسبب مخالفتهن لقانون العمل(92).

تصف "ن. أ" رفض طلبات اللجوء من قبل المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بالقاسية للبعض خاصة عندما يعجزون عن تقديم أدلة تدعم طلب اللجوء، وتشير إلى أنه يتم التعامل بحساسية عالية مع أولئك الذين لديهم الحق في اللجوء، وإذا كان الشخص لا يحتاج حقًّا إلى الحماية الدولية، يتم رفض طلب لجوئه أو تتم إعادته إلى بلاده.

ويبدو البقاء في تركيا مسألة مكلفة بالنسبة لكثير من اللاجئين الذين لا يستطيعون تصويب أوضاعهم، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم للوصول إلى حدود أوروبا. ومعظم اللاجئين الذين هرعوا إلى حدود تركيا لعبور الحدود والوصول إلى الدول الأوروبية هم من أفغانستان. لكن الإيرانيين، إلى جانب العراقيين والسوريين ولاجئين من دول أخرى، يسعون أيضًا للوصول إلى أوروبا.

ولا تبدو تركيا هي الأفضل بالنسبة للاجئين لأسباب عديدة، أهمها: تسييس موضوع اللاجئين، وصعوبة الحصول على الجنسية التركية، وتعاظم المشاكل الاقتصادية بالنسبة للمواطنين الأتراك الذين باتوا ينظرون إلى اللاجئين كتهديد اجتماعي واقتصادي،

وذلك في جزء منه يرتبط بسلوك اللاجئين أنفسهم، والبعض منهم يخلق مشاكل اجتماعية خاصة أولئك الذي دخلوا بصورة غير قانونية. صحيح أنهم هاربون من أجل حقهم في الحياة، وهو حق مقدس للجميع، لكن كثيرًا من اللاجئين يخلقون مشاكل في تركيا بسبب اختلاف الثقافة والسلوك(93).

خلاصات ونتائج

- تتعدد المجتمعات المهاجرة في تركيا، حسب البلد الأصلي الذي جاء منه المهاجرون، ولا يمكن تصنيفها بأنها مجتمعات مندمجة في المجتمع التركي، فهذه المجتمعات، ومنها العربية، حافظت على مزاياها الأصلية، وحاول أعضاؤها بناء مجتمع من أبناء وطنهم؛ حيث يسكنون في حي واحد ويرتادون مطاعم أقاموها، ويرسلون أبناءهم إلى مدارس أنشؤوها ولا يبادر كثير منه لتعلم اللغة التركية والانخراط في المجتمع التركي.
- ترك المهاجرون أثرًا كبيرًا في مجالات عدة، وأحدثوا نقلة كبيرة على صعيد علاقة تركيا مع العالم الإسلامي، ويمكن اعتبارهم رصيدًا في مجال القوة الناعمة لتركيا.
- يمكن وضع المجتمعات المهاجرة في تركيا ضمن الفئات التالية:
  - المهاجرون غير الشرعيين بدون جوازات سفر أو تأشيرات منتهية الصلاحية (كثير منهم من الأفغان).
  - المسجلون في مدن صغيرة مختلفة ولكنهم يعيشون في إسطنبول بشكل غير رسمي (معظمهم من الأفغان والإيرانيين).
  - من يعتبرون تركيا محطة مؤقتة نحو إلى أوروبا (جنسيات مختلفة: عرب وإيرانيون وأفغان).
  - الذين لديهم تصريح إقامة دائمة أو جنسية (معظم الجنسيات العربية).
  - الذين يدخلون للعمل أو الدراسة بالطرق الرسمية "الطلاب من جنسيات مختلفة: عرب وإيرانيون وأفغان).
- لا تبدو جهود الدولة التركية على صعيد تعزيز حالة الاندماج كافية.
- أنشأ العرب حالة اجتماعية واقتصادية ملموسة داخل تركيا، وأسهموا

بصورة كبيرة في تعزيز الحالة الاقتصادية عبر شراء العقارات وفتح المشاريع الاقتصادية والمساهمة في سوق العمل، لكن لديهم ملاحظات كثيرة بشأن القيود الموضوعة في مجال افتتاح المؤسسات الاقتصادية.

- شكلت الحالة السياسية العربية سببًا أساسيًّا في هجرة العرب إلى تركيا.
- ارتبطت موجات الهجرة العربية إلى تركيا بحالة انعدام الأمن، وحدثت أكبر موجاتها بعد الانتكاسة السياسية لـ"الربيع العربي"، والقمع والبطش الذي شهده كثير من المهاجرين في الدول العربية.
- العنصرية ضد المهاجرين واللاجئين حالة ملحوظة في تركيا، وترتبط بصورة أساسية بالأوضاع الاقتصادية وحالة التنافس السياسي.
- يقع المهاجرون واللاجئون ضحية للتنافس السياسي ومواقف الأحزاب السياسية الداخلية فيما يتعلق بهم، كما أن هذه الورقة يتم توظيفها من حين لآخر في العلاقة مع الخارج.
- يأتي الأفغان في المرتبة الثانية بعد اللاجئين السوريين من حيث العدد وهم يفرون هربًا من الحرب والعنف والقتل الجماعي والكوارث الطبيعية والفقر المدقع، ولا تزال الإجراءات المتبعة عاجزة عن التعامل مع قضايا اللجوء الجماعية للأفغان.
- تزامنت أكبر موجة من اللجوء الأفغاني إلى تركيا مع الأزمة الاقتصادية الطاحنة، وتراجع مستوى صرف العملة التركية مما عزز من حالة الرفض داخل المجتمع التركي تجاه المهاجرين واللاجئين عمومًا وتجاه الأفغان على وجه الخصوص. في المقابل، تحاول مبادرات شعبية مواجهة هذه الحالة والتعامل مع سلبياتها، ولكنها تقدم حلولًا جزئية بشأنها.
- يشكِّل المهاجرون غير الموثقين وخاصة من الأفغان والإيرانيين طبقة دنيا، تشكل القوى العاملة غير الرسمية، يعملون في ظروف قاسية، ويتعرضون لانتهاكات ويحجمون عن تقديم شكوى بسبب أوضاعهم غير القانونية.
- يعد عدم الاستقرار القانوني فيما يتعلق بالمهاجرين من القضايا المقلقة لهم، فضلًا عن البيروقراطية وتعدد المؤسسات ذات العلاقة.

المصادر

1- Ben Feldmeyer, The Classical Assimilation Model A Controversial Canon, Routledge Handbook on Immigration and Crime, February 2018, pp35-47 Accessed on: 25 Jan 2023 https://www.routledgehandbooks.com/doi/10.4324/9781317211563-4

2- Ben Feldmeyer, Ibid

3- عبد الرحمن المالكي، "مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة"، (إفريقيا الشرق، المغرب)، 2016، ص 8.

4- نشأت مدرسة شيكاغو في أحضان مؤسسة جامعية فتية، وفي خضم ظروف فكرية واجتماعية خاصة جدًّا، فقد احتضنت مدينة شيكاغو، في نهاية القرن التاسع عشر، جامعة رائدة في جميع حقول المعرفة، وفي حقل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بشكل خاص، وفي توجه رواد هذه المدرسة منذ البداية إلى البحث الميداني لرصد ودراسة مختلف التحولات الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرفها مدينة استوعبت في ظرف خمسين عامًا أكثر من ثلاثة ملايين مهاجر من القادمين من الخارج ومن مختلف مناطق أميركا. وهذا الأمر ينطبق على الجيل الأول للمدرسة كما ينسحب على الجيل الجديد ابتداء من منتصف الخمسينات من القرن الماضي. ورغم أصالة هذه المدرسة وقيامها في حضن المؤسسات الأكاديمية الأميركية إلا أنها لم تنشأ من فراغ، لأن أعمال روادها تحيل إلى الفكر السوسيولوجي الحضري الأوروبي وتعتبر امتدادًا وتجديدًا له في الوقت ذاته. انظر: المالكي، مرجع سابق، ص 6-9.

5- عمل روبرت بارك صحفيًّا حتى سن الخمسين من عمره، وقد سعى إلى الاستعانة بتقنية التحقيق الصحفي ليدمجه في السوسيولوجيا، وكان يرى أن علم الاجتماع ليس إلا ضربًا من الصحافة الأكثر دقة، وكان يشجع طلبته على تجميع وثائقهم بأنفسهم من خلال الاتصال بالأفراد المبحوثين عن طريق ما كان يسميه: الملاحظة في عين المكان (observation in situ) وعن طريق المقابلة، انظر: عبد الرحمن المالكي، "مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة"، مرجع سابق، ص 85-86.

6- نبيل العتاوي وحسن البياضي، البنية المفاهيمية لمقاربة موضوع الهجرة، الحوار المتمدن، 20 يناير/ كانون الثاني 2018، (تاريخ الدخول: 25 يناير/ كانون الثاني 2023)، https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=586550

7- فترة التأسيس كان الخط يقدم خدمات بأربع لغات: التركية، والإنكليزية، والعربية، والروسية، ومع بداية أبريل/ نيسان 2016، جرت إضافة اللغة الألمانية والفارسية لتصبح 6 لغات، ومع يناير/ كانـــون الثانـــي 2020، ومع وصول أعداد كبير من الأفغان جرت إضافة لغة البشـــتو ليصبح نطاق خدمته 7 لغات هي (التركية والإنكليزية والعربية والفارسية والروسية والألمانية والبشتو).

8- الكشـــف عن عدد العرب المقيمين في تركيا، روســـيا اليوم، 7 أبريل/ نيســـان 2019، (تاريخ الدخول: 15 فبراير/ شباط 2023): https: / /bit.ly /3YPZGWn

9- المصدر السابق.

10- المصدر السابق.

11- الفيلم الذي عُرض في العام 2002 وأثار ضجة كبيرة يقوم بطله بمحاولة التغلب على البطالة وســـوء الحال من خلال امتهان مهنة والده المتوفى وبيع سندوتشـــات الكبدة، فيقوم بإعادة تشغيل عربة الكبدة التي كان والده يعمل عليها.

12- مقابلة للباحثة مع رئيس المؤتمر الشـــعبي لفلســـطينيي تركيا، محمد مشـــينش، إسطنبول، 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

13- من المقابلة مع مشينش.

14- المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين هي منظمة عالمية لحماية اللاجئين وسواهم من النازحين قسرًا وعديمي الجنسية. وتعمل المفوضية في 130 بلدًا حول العالم.

15- من المقابلة مع مشينش.

16- من المقابلة مع مشينش.

17- من المقابلة مع مشينش.

18- أسهم بركة مع نشطاء آخرين بتشكيل فريق تطوعي في بداية أزمة كورونا نجح في جمع مبلغ جيد من المال إضافة إلى المســـاعدات العينية لمســـاعدة الجاليات العربية بشكل عام والفلسطينية بشـــكل خـــاص، وجاء ذلك للتعامل مع تأثيرات الجائحة والعطـــل الذي أصاب حياة الناس حتى تعود الأمور إلى الاستقرار، وجرى تقديم مساعدات لأناس ممن هم في حاجة للعلاج، أو السكن أو الغذاء.

19- من مقابلة للباحثة مع ســاري بركة، ناشــط شبابي فلسطيني في تركيا، إسطنبول، 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

20- من المقابلة مع بركة.

21- من المقابلة مع بركة.

22- من المقابلة مع بركة.

23- من مقابلة للباحثة مع أبو وسام صاحب مقهى في إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

24- أحمد رمضان، الجمعيات المصرية بتركيا.. محاولة لتنظيم المهاجرين وتمثيلهم، الجزيرة نت، 12 مارس/ آذار 2020، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/ شباط 2023)، https: / /bit.ly /3xrzOV6

25- من المقابلة مع نادر فتوح، الناطق باسم الجالية المصرية، إسطنبول، 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

26- المصدر السابق.

27- عقدت الباحثة هذه الجلسة في إسطنبول، في 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

28- من المقابلة مع الشمري.

29- العراقيون في تركيا.. من أكثر الجاليات نشــاطًا في التجارة، نون بوســت، 17 مارس/ آذار 2022، (تاريخ الدخول: 5 مارس/ آذار 2023): https: / /bit.ly /3SNvrxE

30- عودة 100 لاجئ عراقي من تركيا إلى بلادهم طوعًا، وكالة الأناضول، 2 يناير/ كانون الثاني 2021، (تاريخ الدخول: 5 مارس/ آذار 2023): https: / /bit.ly /3mqFgp7

31- طه العاني، العراقيون أكبر مشتري العقار في تركيا.. ما الأسباب؟، الجزيرة نت، 19 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022، (تاريخ الدخول: 5 مارس/ آذار 2023):https: / /bit.ly /3JgkIbC

32- نون بوست، مصدر سابق.

33- من الجلســة التي عقدتها الباحثة في مكتب الســيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

34- من الجلسة التي عقدتها الباحثة في مكتب السيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

35- من مداخلة السيد الفايز في الجلسة التي عقدتها الباحثة في مكتب السيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

36- من مداخلة الدكتور سرمد راشد، في الجلسة التي عقدتها الباحثة في مكتب السيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

37- من مداخلة السيد الفايز.

38- المصدر السابق.

39- المصدر السابق.

40- من الجلسة التي عقدتها الباحثة في مكتب السيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

41- من مداخلة الدكتور سرمد راشد، المرجع السابق.

42- تم انتخاب هاشم رئيسًا للجالية، من قبل أعضاء الجمعية العمومية في تركيا، في يوليو/ تموز 2021، بمقر القنصلية الليبية العامة/ إسطنبول، وقد اعتُمدت نتائج الانتخابات رسميًّا لدى القنصلية الليبية في تركيا، وتم اعتمادها من قبل والي مدينة إسطنبول ضمن مؤسسات المجتمع المدني في تركيا تحت رقم 4458 في سبتمبر/ أيلول 2021.

43- من مقابلة للباحثة مع زياد هاشم رئيس الجالية الليبية في تركيا، إسطنبول، 23 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

44- من المقابلة مع هاشم.

45- المصدر السابق.

46- المصدر السابق.

47- من المقابلة مع هاشم، مصدر سابق.

48- المصدر السابق.

49- المصدر السابق.

50- المصدر السابق.

51- سيد كمال مير خلف، مساجد إيران وقبرستان إيراني ير استانبول، المساجد والقبور الإيرانية في إسطنبول، دورية "پيام بهارستان"، السنة الثانية، العدد 8، صيف 1389ش، ص 832-833.

52- من ملاحظات سجلتها الباحثة، 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

53- من الملاحظات التي سجلتها الباحثة.

54- مقابلة للباحثة مع امام مسجد خان والده، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

55- المصدر السابق.

56- المصدر السابق؟

57- مهاجرو إيران... بحث عن الأمان وهرب من الأزمة الاقتصادية، العربي الجديد، 25 نوفمبر/ تشرين الثاني 2020، (تاريخ الدخول: 14 مارس/ آذار 2023)، https: / /bit.ly /42a8pFt

58- مهاجرو إيران... بحث عن الأمان وهرب من الأزمة الاقتصادية، العربي الجديد، 25 نوفمبر/ تشرين الثاني 2020، (تاريخ الدخول: 14 مارس/ آذار 2023): https: / /bit.ly /42a8pFt

59- ينظم قانون الأجانب والحماية الدولية رقم 6458، والذي دخل حيز التنفيذ في 2013، القضايا المتعلقة بالهجرة وقد تم تعديله حتى الآن 11 مرة، كان آخرها في 2019، وهو قانون شامل تمامًا لأنه ينظم جميع الموضوعات المتعلقة بإقامة الأجنبي في تركيا بدءًا من إجراءات التأشيرة إلى تصاريح الإقامة وإجراءات الحماية الدولية.

60- يفرض القانون على حَمَلة الإقامة السياحية الخروج من تركيا لمدة عام كامل، وبعدها التقديم على "التأشيرة " واستصدار إقامة سياحية جديدة مدتها سنة لا يتم تجديدها، أي إن حاملي الإقامة السياحية لن يستطيعوا تجديد إقاماتهم، إلا في حال استبدلوا بها نوعًا آخر من الإقامات (إقامة عمل، إقامة مستثمر، إقامة عائلية).

61- اقامت موقت 80 هزار ايرانى در تركيه تمديد نمى‌شود، ايندىپندنت فارسى، 25 مارس/ آذار 2022، (تاريخ الدخول: 14 مارس/ آذار 2023): https: / /bit.ly /3ZOwa48

62- "مجموعة العمل المالي" هي منظمة تضع المعايير الدولية في مجال مكافحة غسل الأموال وتمويل الإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل، وتقييم مدى التزام الدول بهذه المعايير. وتركيا عضو في "مجموعة العمل المالي" التي تضم 39 عضوًا منذ عام 1991، واتخذت الخطوات اللازمة في إطار اللوائح التي تم وضعها وفقًا للمعايير الدولية. وأصدرت وزارة الخزانة التركية بيانًا قالت فيه: "قامت بلادنا بسن قانون منع تمويل انتشار أسلحة الدمار الشامل في 27 ديسمبر/ كانون الأول 2020، مع الأخذ في الاعتبار التقرير الذي أعدته مجموعة العمل المالي"؛ "وبذلك تم تحقيق تحسن كبير في 4 قضايا وردت في تقرير مجموعة العمل المالي لعام 2019 (العقوبات المالية الموجهة في مجال تمويل الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، والرقابة الداخلية، والشركات التابعة، والعقوبات)"، أعلنت وزارة الخزانة والمالية التركية، الخميس، أنها ستواصل اتخاذ الخطوات اللازمة في إطار التعاون مع مجموعة العمل المالي "فاتف" لشطب اسم تركيا من "القائمة الرمادية". انظر: تركيا تواصل خطواتها لشطبها من القائمة الرمادية لـ"مجموعة العمل المالي"، وكالة الأناضول، 21 أكتوبر/ تشرين الأول 2021، (تاريخ الدخول: 16 مارس/ آذار 2023)، https: / /bit.ly /40e1QQy

63- زاهر البيك، تدفق غير مسبوق للاجئين الأفغان في تركيا.. لماذا تخشاهم أنقرة وكيف يدخلون البلاد؟، الجزيرة نت، 24 أغسطس/ آب 2021، (تاريخ الدخول: 17 مارس/ آذار 2023): https: / /bit.ly /3YYf6rp

64- Mixed Migration Centre (2020),Destination Unknown – Afghans on the move in Turkey. Report, June 2020, (accessd: 17 march 2023): www. mixedmigration.org

66- المصدر السابق.

67- من المقابلة مع "ن. أ" عاملة في قضايا اللاجئين، مصدر سبق ذكره.

65- "Ghosts of Istanbul: Afghans at the Margins of Precarity", Association for Migration Research (GAR) January, 2021 (accessed: 18 march 2023): https://bit.ly/3YZd7TJ

68- من المقابلة مع مشينش.

69- من المقابلة مع مشينش، من المقابلة مع من المقابلة مع نادر فتوح، الناطق باسم الجالية المصرية، إسطنبول، 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

70- من المقابلة مع مشينش.

71- من المقابلة مع مشينش.

72- من مقابلة الباحثة مع السيد شعلان الشمري.

73- من المقابلة مع الشمري.

74- من المقابلة مع بركة.

75- يعرِّف القانون التركي العمل في تركيا للأجانب على أنه نشاط الشخص بهدف الكسب، وأنه حق مشروع للأجنبي يكفله القانون بموجب المادة رقم 40 من الدستور التركي الصادر في العام 1961. ويساوي القانون التركي بين العاملين الأتراك والأجانب في البلاد وفقًا للمادة رقم 10 من الدستور الصادر عام 1982، بالإضافة إلى الاتفاقيات الدولية التي وقعتها تركيا، مع ذلك تفرض القوانين التركية على الأجانب شروطًا من بينها أن على الشركات توظيف خمسة موظفين أتراك مقابل كل موظف أجنبي وذلك بموجب القانون رقم 4817 المادة رقم 13، بالإضافة إلى حظر عمل الأجانب في بعض المهن التي يجيدها الأتراك والتي لا تتحمل أي زيادة أو منافسة. وحدَّد القانون أيضًا بعض الوظائف المنوطة بالأتراك فقط حيث منعت هذه القوانين الأجانب من العمل بهذه المهن، وبحسب المادة رقم 1 من القانون رقم 2007، يمنع الأجانب من العمل في الوظائف التالية: "الآلات الموسيقية، التصوير الفوتوغرافي، صناعة الأغطية والأحذية، البورصة، مبيعات المُنتجات التي تحتكرها الدولة، البناء، صناعة الحديد والأخشاب، النقل العام، العمل الدائم أو المؤقت في أعمال الإنارة والإصلاح والاتصالات، أعمال التحميل والتفريغ، الكونسيرج، التمثيل والغناء في الحانات". انظر: قانون الاستثمار المباشر للأجانب، مركز اتصالات الأجانب، رئاسة إدارة الهجرة، الجمهورية التركية، (تاريخ الدخول: 16 فبراير/ شباط 2023): https: // bit.ly /3KbAupp

76- من المقابلة مع الشمري.

77- من المقابلة مع نادر فتوح.

78- من الجلسة التي عقدتها الباحثة في مكتب السيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

79- من المقابلة مع الشمري.

80- من المقابلة مع بركة.

81- من المقابلة مع بركة.

82- من الجلسة التي عقدتها الباحثة في مكتب السيد الشمري، إسطنبول، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

83- من المقابلة مع هاشم، مصدر سابق.

84- من المقابلة مع الشمري.

85- من المقابلة مع الشمري.

86- المصدر السابق.

87- المصدر السابق.

88- المصدر السابق.

89- من المقابلة مع الشمري.

90- مقابلة للباحثة. مع "ن. أ" متخصصة في قضايا اللاجئين، أنقرة، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

91- من المقابلة مع "ن. أ"، أنقرة، أكتوبر/ تشرين الأول 2022.

92- المصدر السابق.

93- المصدر السابق.

" الإسلام السياسي" في السياق المستجد بين الاندثار والتسوية التاريخية

" Political Islam " in the emerging context Between Extinction and Historical Settlement

احميده النيفر - Hmida Ennaifer*

ملخص

مـاذا لـو بحثنـا موضـوع "الإسـلام السياسـي" خـارج اعتبـاره ظاهـرةً مَرَضيـة مُعيقـة للتنميـة باختـلاف أوجههـا، وأنهـا، لذلـك، لا تنفـك أن تكـون وجهًـا آخـر للرأسـمالية المتوحشـة المحكومـة بضـرورة التحالـف الوثيـق مـع القـوى الإمبرياليـة؟ في ذات الوقـت، مـاذا لـو لـم نسـاير مقـولات رفـض حـركات "الإسـلام السياسـي" حيـن تنظـر إليهـا بعيـون خارجيـة فلـم نَسـتخف بالمضمـون الحضـاري للـذات الثقافية ومـا تُصدره مـن خطـاب للهويـة في نقـد سـياق "حداثتنـا العربيـة" وموقعنـا الاسـتتباعي فيـه؟ مـاذا لـو تخطينـا موقفَـيْ الرفـض والنقـد وتمثَّلنـا خصوصيـة المقاربتَيْـن لبنـاء بُعـد ثالـث رهانُـه وعـيٌ نقـديٌّ لحـركات "الإسـلام السياسـي" مـن منظـور تحمُّـل الهـمِّ الإنسـانَي فكـرًا وثقافـةً وتموقعًـا.

انخراطًـا في هـذا البُعـد الثالـث التركيبـي يطـرح هـذا البحـث جملـة مـن الأسـئلة، مـن أهمهـا:

- لمـاذا انحسـر خطـاب الحـركات الإسـلامية في الحقـل السياسـي بمـا أعجزهـا عـن أي تغييـر للمجـال التدينـي في أبعـاده الفكريـة والثقافيـة والاجتماعيـة وركّـز لديهـا قيـم الامتثـال بعيـدًا عـن التحـرر والتجديـد؟

- كيـف تحجـز الفاعليـات الإسـلامية نفسـها عـن مراتـع الاسـتبداد والفوضـى؟ وكيـف تتجـاوز سياسـات اسـتدراجها لتكـون مطيـة مسـتهدَفة داخليًّـا وخارجيًّـا؟

- كيـف ينتهـي الفـرز الأيديولوجـي المُنهِـك للثـورات العربيـة مـن أجـل تجـاوز سياسـة فـرض النظـام الليبرالـي للعولمـة على الإسـلاميين خاصـة وعلى النظـام العربـي عامـة؟

* أ.د. احميـدة النيفـر، كاتـب وجامعـي مـن تونـس، وأحـد مؤسسـي حركـة النهضـة التونسـية سـبعينات القـرن الماضـي وهـو أول مـن راجـع مواقفهـا وسياسـاتها فـي نهايـات سـبعينات القـرن الماضـي لتأسـيس مـا عُـرف عندئـذ بتيـار الإسـلاميين التقدمييـن.

Hmida Ennaifer, Writer and academic from Tunisia, one of the founders of the Tunisian Renaissance Movement in the early seventies of the last century. He was the first to review its positions and policies at the end of the seventies of the last century to establish what was then known as the progressive Islamists movement.

- أيــة رهانــات وأيــة شــروط تحتاجهــا النخــب الصاعــدة اليــوم في نضالهــا المجــدد إن أرادت فاعليــة سياســية مدنيــة وطنيــة، لتقطــعَ مــع حــال المخاطِــب لذاتــه المُعــرض عــن واقعــه الرافــض لمكاســب عصــره؟

كلمــات مفتاحيــة: الإســلام السياســي، الإســلاميون، الربيــع العربــي، خطــاب الهويــة، الدولــة.

Abstract:

What if we explored political Islam without considering it a pathological phenomenon that impedes development in its various aspects and, therefore, continues to be another face of savage capitalism governed by the need for close alliance with the imperialist powers?

At the same time, what if we did not agree with statements rejecting political Islamist movements from a foreign perspective? Why do we undermine the civilizational content of the cultural self and its identity discourse in criticising the context of "our Arab modernity" and our subordinate position in it ?

What if we transcended the positions of rejection and criticism, and instead represent the particularity of the two approaches to build a third dimension subject to a critical awareness of the political Islamist movements from the perspective of concern for humanity in thought, culture and position?

Engaging in this synthetic third dimension, this research raises a number of questions, the most important of which are:

• Why did the discourse of Islamist movements decline in the political field in a way that made them unable to make any changes to the field of religiosity in its intellectual, cultural and social dimensions, focusing instead on the values of compliance away from liberation and renewal?

• How do Islamist actors keep themselves away from the breeding grounds of tyranny and chaos, and how do they overcome policies that lure them into becoming targeted internally and externally?

• How does the exhausted ideological separation of Arab revolutions end in order to bypass the imposition of the liberal system of globalisation on the Islamists in particular and the Arab system in general?

• What stakes and conditions do the rising elites need today in their renewed struggle for civil and national political activity to break with the state of self-discourse that exposes its reality that rejects the gains of its era?

Keywords: political Islam, Islamists, Arab Spring, identity discourse, state.

مقدمة

عندما انفجرت الأحداث الثورية سنة 2011، فيما سيُعرف لاحقًا بالربيع، العربي تكشَّف عالم العرب بوجهيه: وجه مشرق متوثب عبَّر عنه المخاض التغييري بما تكشَّف عن تصميم وطاقات وآفاق، ووجه كالح تعرَّت فيه الإعاقات والهنات بصورة فاجعة مكَّنت لخيبة أمل وإحباط واسعَيْن.

انحسر وجه المعضلة العربية منذ الشرارة التي أوقدها "محمد البوعزيزي" بجسده، يوم 17 ديسمبر/كانون الأول 2010، احتجاجًا على ما سُلِّط عليه من قهر. وإذا كان معظم النار من مستصغر الشرر فإن تلك الشرارة استطاعت منذ اتقادها أن تستشريَ وتتواصل متسارعة كل هذه السنوات لتمحِّص للباحث المتأمل أكثر من قضية مهمة في السياق المستجد وأن تدفع إلى استجلاء ما وقعت الاستهانة به من كبريات الأسئلة.

في مقدمة هذه القضايا الكبرى المهمشة يبرز "السؤال الديني" الذي ظلت عموم النخب المثقفة والحاكمة العربية مصرَّة طوال العقود على استصغاره بما أفضى به إلى أن يُصبح إعاقة إشكالية. لكن انتحار "البوعزيزي" وما نتج عنه في تونس وخارجها حوَّل وجهَ المعضلة العربية جاعلًا أول عناوينها وأبرزها هو " الإسلام السياسي" حيث صار يحتل صدارة المشهد السياسي التونسي خاصة والعربي عامة.

إشكالية هذه الصيغة جعلتْ، ما كان يُعدُّ إعاقة تحديًا بما يطرحه "الإسلام السياسي" من اجتراح بُعدٍ ثقافي/أخلاقي للمجال السياسي، هو الإعلان عن ضرورة ولوج العالم العربي العصرَ الحاضر بزمن مغاير في قيمه وفيما انساقت فيه نخب عربية في العقود الخالية.

صميم المعضلة العربية في الزمن الجديد الذي أقحَم فيه "الإسلام السياسي" الفاعلين السياسيين هو إخضاعهم لثقافة "ناقل الريشة" وحيرتها. رمزية هذا الزمن تضع الفرد أو الجماعة أمام "اختيار إلزامي" مُجْبِر على تحمُّل عاقبة أخذ الريشة أو تركها على السواء. هو زمن الحرية المـُرَّة التي لا يُجدي معها التعالي أو التردد.

معنى ذلك أن إنسانية هذا الزمن تتكشف بجلاء لتبرز في القدرة على الاختيار لكن مع ضرورة الرضا بالتناهي والمحدودية.

هذا هو الزمن الجديد الذي دشنته شرارات الغضب تونسيًّا وعربيًّا في تحدٍّ صامت. هو زمن يضيق ذرعًا به الجميع والنخب السياسية تحديدًا لأنها، وقد نَشَأت وتخرجت بثقافة ملتبسة بعَلْمنة خاصة، لا تحتمل التعدد بل تُرسي مواقفها على شمولية وثوقية حدية مسكونة بنزوع إلى المسايرة وركون إلى المعهودية.

لذلك ينطلق اليوم هذا البحث من فرضية مركبة يقتضيها السياق السياسي-الدستوري الإقليمي المستجد الذي تلا وصول "الإسلام السياسي" إلى الحكم ثم اضطراره إلى مغادرته في تونس ومصر والمغرب. فرضية البحث يختزلها التساؤل التالي:

* ماذا لو بحثنا موضوع "الإسلام السياسي" بعد سنوات من التجارب التي تلت الأحداث الثورية لسنة 2011 وصولًا إلى سنة 2023 خارج اعتباره مجرد ظاهرة مَرَضية مُصطَنَعَة لا تستطيع أن تحقق أي نجاح لأنها مُعيقة للتنمية باختلاف أوجهها؟

* في ذات الوقت، ماذا لو لم نساير هذه المقولة الرافضة لحركات "الإسلام السياسي" الناظرة إليه بعيون خارجية بل صدرنا عن قول من داخل فضائه الثقافي المولي أهمية تأسيسية للمضمون الحضاري للذات الثقافية مع استحضار نقدي تحليلي للتعثرات والإخفاقات التي وقعت لـ"الإسلام السياسي" فيما بين 2011 و2023؟

فرضية هذا البحث تعمل على تخطي مقولتي الرفض والتفهم النقدي مع استيعاب خصوصيتي المقاربتَيْن من أجل بناء بُعدٍ ثالثٍ رِهانُه وعيٌ نقديٌّ لحركات "الإسلام السياسي" من منظور إمكان تحمُّل الهمِّ الإنساني فكرًا وثقافةً وتموقعًا مع ما يستلزمه خطاب الهوية من نقد لسياق "حداثتنا العربية" وموقعنا الاستتباعي فيه؟

مفاهيم متعددة لظاهرة واحدة

لمعالجة أولى القضايا الكبرى للمعضلة العربية يُطرَح السؤال المتعلق باستقرار مفهوم "الإسلام السياسي" في تداول الثقافة السياسية عربيًّا ودوليًّا؟

بالعودة إلى العقود الخمسة الماضية يتبين أن أول استعمال لهذا المفهوم كان في الولايات المتحدة الأميركية من قِبَل مارتن كرامر (Martin Kramer)(2) في كتابه الصادر سنة 1980 بعنوان " الإسلام السياسي" (Political Islam). جاء هذا الكتاب ليطور مقولتين نظَّر لهما قبله أستاذه "برنارد لويس" (Bernard Lewis)(3)

تتعلق الأولى بـ"صراع الحضارات"(4) بينما تتصل الثانية بما تبنَّاه من شرح لجذور "الغضب الإسلامي"(5). خلاصة المقولتين اللتين سيعتمدهما "كرامر" تفضي إلى أن "تسييس الإسلام" نجم عن عوامل تاريخية-سياسية ونفسية أدَّت إلى توتر تحوَّل إلى خلل سببه فشل أنظمة الحكم الحديثة في البلاد العربية(6). وفق هذا التفسير تكون حركات "الإسلام السياسي" قائمة بالاستثمار في هذه العطوبة لتحقيق تغيير سياسي على أساس أن الإسلام يشتمل على نظام للحكم وأن له نهجًا اجتماعيًّا وقانونيًّا واقتصاديًّا قادرًا على بناء مؤسسات الدولة.

على أساس مثل هذا التفسير تواصل استعمال مفهوم "الإسلام السياسي" لدى قسم من الباحثين الغربيين الذين اعتبروه تعبيرًا عن حالة مَرَضية تعاني منها "الحركات الإسلامية". نتجت هذه الإعاقة أو الخلل كما يسميه "برنارد لويس" عن عجز أنظمة بلدان تلك الحركات ومجتمعاتها عن النهوض للتلاؤم مع مقتضيات العصر ومستلزمات الانخراط في التمدن الحديث.

استمر هذا الاستعمال دون أن ينفرد وحده بالتداول إذ حاذته مفاهيم مغايرة أخرى مثل "الأصولية الإسلامية" (Islamic fundamentalism) أو "الإسلاموية" (Islamism) والمختلفة في تحديد دقيق للموضوع المدروس وخصوصية جذوره ومآلاته والسياسات التي ينبغي اتخاذها إزاءه.

في المجال العربي الإسلامي، لم يُحسم أمر اختلاف تسمية ظاهرة الحركات الإسلامية؛ فإذا تجاوزنا التسميات التبخيسية(7) التي يتناقلها بعض السياسيين والإعلاميين فإن عددًا من الباحثين المهتمين لم يتقبلوا مفهوم "الإسلام السياسي" لما كانوا يرون فيه من تضليل. لذلك ظلوا مترددين بين من يستعمل عبارة "عودة المقدس"(8) وبين من يفضِّل تسمية "الإسلام الاحتجاجي" أو "الإسلام المناضل"(9) بإزاء من يساير عبارة "الإسلاموية" للدلالة على مضمونها السياسي الأيديولوجي وعلى ما تحمله من فكر نسقي ضمن نوع من الوعي الموظف للدين لأهداف سياسية(10).

في الحفر التَفَهُّمي الأوروبي

ثم كانت سنة 2011 وما تلاها من أحداث نوعية دفعت بالحركات الإسلامية إلى صدارة المشهد السياسي ومواقع القرار في تونس ومصر والمغرب. بذلك غَلَب

مفهوم "الإســلام السياســي" على بقية المفاهيم الأخرى(11) بالنظر إلى السياسات الواقعية لعموم الحراك الإسلامي في كونه لم يُولِ عناية لما تعنيه التسمية من تحكيم البُعد الثقافي في المجال السياسي.

اللافت للنظر أن أكثر من باحث غربي، وإن بقي مُقِرًّا لاســتعمال مفهوم "الإســلام السياســي"، فإنه أســهم في تشــكيل توجه متمايز عن منهج الوصم الاستشــراقي المنحاز(12) الذي اشتغل عليه "برنارد لويس" و "مارتن كرامر" و"صامويل هنتنغتون" وذلك برفض اعتبار" الإسلام السياسي" ظاهرة مَرَضية كارهة لنفسها ولغيرها.

في طليعة هؤلاء الباحثين الذين تميزوا بمنهج تَفَهُّمِي يســعى إلى تحديد "معقولية" حركات "الإســلام السياســي" بصورة نقديــة، نذكر الأنثربولوجــي والمختص في العلوم السياســية والاجتماعية "برونو إيتيان" (Bruno Étienne) في كتابه "الإســلام الراديكالي"(13).

بنفس المقاربة عالج الخبير في الحركات الإســلامية وفي القانون "فرانســوا بورجا" (François Burgat) الظاهــرة في كتاب "الحركات الإســلامية في المغرب الكبير، صوت الجنوب"(14)، وفيما عاد إليه في كتاب "في فهم الإســلام السياســي: مسار البحث في الآخرية الإسلامية"(15).

ثالث ممثلي هذا التوجه نجده في أعمال الباحث والمختص في الفلسفة "أوليفي روا (Olivier Roy) في كتابه "فشل الإسلام السياسي"(16) مؤكدًا نفس التوجه في بحث ثانٍ لاحق تحت عنوان "الإسلام السياسي: الإخفاق متواصل"(17).

لإضــاءة هــذا النهج المتميز بالحفــر التفهمي النقدي في فرنســا، يؤكد "إيتيان" أنه ليس بصدد القيام بأي تبرير للإسلاميين، بل إن ما يحاول تحديده هو الوقوف على مكونات عالَمهم الذهني لأن إدراك حقيقة دين أو وجه ديني أو أســطورة أو طقس من الطقوس الخاصة يقتضي تحليل النسق الأيديولوجي الخاص به الذي أقيمت عليه مؤسساته الاجتماعية والدينية والذي يُعلن عن معناه الخفي(18).

مع "بورجا" في كتابه "الإسلام السياسي: صوت الجنوب"، يتعمق الحفر في الظاهرة الإسلامية التي يقرر أنها "طبيعية ناشئة عن مناهضة الاستعمار أولًا ومتطورة عن فشل الخطــاب النهضــوي القومي ثانيًا". ثم يضيــف أن الظاهرة "متولدة عن واقع مركب

وهي التي تصنع الإســلام الراهن"(19)؛ وأنها إلى حدٍّ كبير أولى القوى المرشــحة فــي مختلــف أنحاء العالم العربي لتحل محل أنظمــة الحكم الناجمة عن الحركات الاستقلالية(20).

أما "روا" فلا يتردد في القول إن ما يقوم به في حفره جعله ينتهي من فترة مبكرة إلى أن صعود حركات الإســلام السياســي مؤذن بفشلها نتيجة التصور الذي تحتكم إليه والقائم على اعتقاد أن القرآن هو برنامج حكم. بتعبير آخر، يقول "روا": إن "مفهوم الدولة الإســلامية متناقض ومستحيل التحقيق"(21) مضيفًا أن "الإسلاميين سيظلون موجودين، وهذا هو المجهول الكبير"(22).

شرارات الفصل والوصل

مواكِبًا لهذا النهج التفهمي الغربي، توصل الوعي السياســي-الاجتماعي لقســم من النخــب العربية والإســلامية إلــى لحظة مفصلية تحتاج إلــى توقف تمحيصي. لقد أضاءت شــرارات 2011 مداخل مهمة للنظر والفعل في معضلة عالم عربي يســعى لدخول العصر للإسهام فيه من خارج دوائر الاستتباع.

معها، أُضيئت دروبُ وعي مفصول عن مقولة الوصم التي تعتبر الظاهرة الإســلامية حالة مرضية تكوينية في أصل الإسلام وتاريخه.

ذلــك أتــاح بحوثًا تفهمية لأكثر من مســألة بالقطع مع منظــور المركزية الغربية في تعاطيها الجوهراني(23) الثبوتي لظاهرة "الإسلام السياسي".

في طليعة العناصر الفاعلة ضمن التيار المتحرر من المشهد المعبأ بالتوتر الاستقطابي، تبرز عدة أسماء(24) نختار منها ثلاثة نماذج مختلفة تتكامل زوايا تحليلها في تجاوز الوصم الاستشــراقي المنحاز باعتماد عوامل موضوعية تفتح أفق بُعد ثالث لمنظور إنساني من الداخل الثقافي الإسلامي.

أول هذه النماذج التحليلية المهتمة بدلالة "الإســلام السياســي" وفكره وخصائصه ومآلاته، نقرأ للمفكر والاقتصادي "ســمير أمين"(25) أن "الإســلام السياسي" يمكنه الخــروج "مــن هذه التجارب بقدر من النجاح إن هو وعى طبيعة التحديات المحلية والدولية وإن صاغ من خصوصياته الثقافية والاجتماعية الإجابات المطلوبة"(26).

تقدير "سمير أمين" لهذا الإمكان موصول برؤية إستراتيجية تحررية ناقدة للإسلام السياسي إن هو ظل يقود نضاله من منظور ديني تعبدي عاجز عن إدراك حقيقة أزمة المجتمع العربي المندرجة ضرورة في نظام عالمي مأزوم ومفروض عليها(27).

بجانب هذه القراءة، نقف عند تشخيص الأستاذ الباحث "خليل العناني" الذي يرى أن سقوط جماعة "الإخوان المسلمين" في مصر يمثل نهاية حقبة يمكن اعتبارها حقبة "الإسلاموية الأرثوذكسية" في تاريخ الحركات الإسلامية(28). خصوصية هذه القراءة وثيقة الصلة باختصاص العلوم السياسية المعتمدة على الدراسة الاستقرائية والتحليلية للنظم السياسية وتطورها وأثرها في المجتمع.

من هذه الزاوية يكون "الإسلام السياسي" قد بلغ، في الوضع المستجد، مرحلة استنفاد أغراضه الموضوعية في ارتهانه إلى ثلاثة أركان أساسية: الأيديولوجية المحافظة والتنظيم الصارم والقيادة المركزية الجامدة(29).

من هذا المنظور، يتبين أن المستجدات السياسية والدستورية جعلت "الإسلام السياسي" في أكثر من قُطر عربي، وخاصة في مصر وتونس، يواجه حالة انكفاء واضح بفعل موجات اكتساح عارم مناهض لم تجد إزاءها مناعة حضارية مكتسبة تتناسب مع توازنات السياق الدولي والإقليمي.

بهذا يتضح جانب من الإشكال الهيكلي للحراك الإسلامي الخاص بمرجعيته الفكرية والتنظيمية المركزية حين يلتقي مع القصور الاجتماعي الذي يجعل "الإسلام السياسي"، فاعلًا "غير مُشَكَّل" وفق المجال الإستراتيجي وما يقتضيه من وعي بالجغرافية السياسية وتوازناتها الدولية والداخلية التي اهتم بها "سمير أمين".

في مستوى الزاوية الثالثة، يقدم الأكاديمي السوداني وأستاذ العلوم السياسية "عبد الوهاب الأفندي" تحليلًا لـ"الإسلام السياسي" ركزه على أهمية العوامل البنيوية التحتية للمجتمع، التي لا يُمكن الاقتصار فيها على الجوانب النظرية للعلوم السياسية. بهذا تتأكد الحاجة لمراجعة مقولة وجود "إسلام سياسي" واحد في البلاد العربية لأن بنية الواقع المجتمعي الثقافي في اختلافها وحراكها تؤدي إلى اختلاف نوعي بين المسارات القُطرية لكل حركة إسلامية.

هو اختلاف وازن في مسارات كل تجربة عن بقية التجارب، يتضح خاصة في

حالتي كل من مصر وتونس ومسيرة الإسلاميين فيهما. في هذا، يقول عبد الوهاب الأفندي: "لقد تصرف الشيخ الغنوشي بحكمة وعقلانية بعد أن تعرضت النهضة لابتزاز مفضوح من الفئات التي رفضها الشعب، فسعت كما كان الأمر في سوريا لتمزيق البلاد وتدميرها نكاية في النهضة"(30).

أهمية هذه المقاربة التفهمية الثالثة أنها في اشتغالها على التنوع الحركي القُطري للإسلاميين وفي علاقتها بالنموذجين السابقَيْن إنما تكشف ما للحركات الإسلامية من قدرة على العَوْد للنمو بعد محاولات اجتثاثها.

ذلك يحيل على مجال ذَكرَه "أوليفي روا" عن "الإسلاميين الذين سيظلون موجودين" رغم فشلهم في الحكم.

سؤال الدولة واستتباع المركزية الأوروبية

في نقد صارخ للحركات الإسلامية في العالم العربي، يقرر عبد الوهاب الأفندي(31) أن قياداتها عجزت عن أن تتصدى لأي دور إيجابي في مواجهة أزمة سير الأمة نحو الهاوية. مرجع هذا العجز عنده هو الفكر السياسي الذي "يقود خطى هذه الحركات والذي عجز أن يُشكِّل الجسر الذي تَعبُر من خلاله هذه الحركات من السلبية إلى الإيجابية"(32).

مؤدى هذا أنه لا سبيل للتصدي لهذه الأزمة إلا "بإعادة صياغة كاملة للفكر الإسلامي المتعلق بالدولة وشؤونها"(33).

طرْحُ "الأفندي" مسألة الدولة في كامل فصول كتابه، بجعله معضلةً فكرية-تاريخية وتعطلًا حركيًّا-أخلاقيًّا تعاني منه الحركات الإسلامية، يكشف قضية كبرى ثانية مهمشة في العالم العربي زادت في إبرازها شرارات الحراك الثوري العربي.

ذلك أن مسألة الدولة حين تُطرح بمَعِيَّة "السؤال الديني" فإنها تدفع بدائرة معالجة مفهوم "الإسلام السياسي" إلى بُعدٍ ثالث، هو بُعد لا يرى في " الإسلام السياسي" ظاهرةً مَرَضية مُعيقة ويتجاوز تقدير أنها مجرد تعبير سياسي فكري يحلَّل بعيون خارجية بحثية، يتجاوز ذلك ليرى أنها تصدر من مضمون حضاري إنساني للإسلام تكتسيه نزعات ملحوظة في حراك قسم من مسلمي اليوم.

حين يفعَّل سؤال الدولة بسؤال الدين يتضح قصور مفهوم "الإسلام السياسي" عن الإفصاح عما في الظاهرة الإسلامية من طبيعة إشكالية مركبة تتداخل فيها متغيرات متعددة تستدعي إجابة قابلة للاتساع والمراجعة بصورة مستمرة.

بتناول مسألة الدولة تظهر الحاجة إلى بُعد ثالث متحرر من المركزية الأوروبية في تمثلها للإسلام دينًا وتاريخًا منجزًا وإمكانًا حضاريًّا إنسانيًّا. مع البعد الثالث الحضاري لمقاربة الظاهرة الإسلامية تتبين حالة المفارقة التاريخية (anachronisme) التي عاشتها الظاهرة بعد 2011 وجعلتها في وضع مُفَوَّتٍ. حقيقة هذه المفارقة أن الإسلاميين في إدارتهم التسييرية لأوضاع الحكم استندوا إلى البناء التنظيمي وليس باعتماد الكفاءات الذاتية والوطنية.

حصل هذا التفويت من عدم وضوح علاقة السياسي بالثقافي في فكر الإسلاميين، ومن الخلط المخل بين استحقاقات التنظيم واستحقاقات الدولة عند توليهم مقاليدها. نتج ذلك أيضًا من أن التحديث القسري كان مدخلًا للاستلاب والاستبداد وأنه كان من اللازم القطع مع باراديغماته؛ لاسيما أنه فقد بريقه وجاذبيته لدى النخب العربية الصاعدة.

ذلك ما أعاق العشرية التي تلت الشرارات العربية بتعذُّر الإسهام في بناء مشروع وطني متناسب مع مقتضيات العصر في المستويات المادية والعقلية والروحية. لقد أُهدرت فرصة تاريخية لمعطى إستراتيجي كامن كان من المتاح للحركات الإسلامية أن تفعِّله بصورة ناجعة تمكينًا لمشروعيتها وإسهامًا في الارتقاء بالمشروع الوطني الجامع. في ذات الوقت، يتم دحض خطاب المركزية الأوروبية التي لا ترى في الحراك الإسلامي إلا تعبيرًا من شعوب متخلفة ثقافيًّا، انقسامية سياسيًّا في سياق معولم؛ هي لذلك لا تستطيع أن تفهم سوى اللغة الظلامية التي تكاد ترتدُّ لعصورها القديمة وحدها.

هو خطاب الوصم المنحاز والمبني على أن الغرب وحده هو القادر على اختراع الحداثة المنفتحة، بينما تنغلق الشعوب الإسلامية في إطار "تقاليد" جامدة لا تسمح لها بفهم حجم التغييرات الضرورية واستيعابها.

ما يضيفه البعد الثالث للطبيعة الإشكالية المركبة لـ"الإسلام السياسي" هو تحقيق

معالجة توليفية مزدوجَة المداخل لواقعه الملتبس. بذلك يتبين ترسخ علاقة "الإسلام السياسي" بمرحلة تاريخية ماضية بينما كان يخوض تحديات واقع حضاري حديث مختلف باسم الهوية الثقافية الدينية التي لم يكن يمتلك منها وعيَها الفاعل ورؤى عبقريتها المميزة.

من هذا المنظور، تكون معضلة "الإسلام السياسي" في بنيته المُعْتَلَّة نتيجة ما يمكن تسميته بالالتباس المؤسساتي. هي معضلة السعي، بعد ثورة 2011، بحراك سياسي رافع شعارَ الهوية ظنًّا منه امتلاك نجاعتها فيما يعتمده من مكوناته المرجعية والتنظيمية والقيَادية. هو سعي مختل يظن أن رفع الشعار الحضاري للذات الثقافية وما تُصدره من خطاب للهوية قادر على تجاوز سياق "الحداثة العربية" في موقعها الاستتباعي.

ثقافة الدولة إزاء خطاب الهوية

كان طور إدارة الحكم الذي صارت إليه قيادات "الإسلام السياسي" بعد 2011 فاجعًا وذلك بتسجيل منسوب عالٍ من الفشل السياسي لأكثر من اعتبار. أهم هذه الاعتبارات أنه كان جزءًا من فشل عامٍ استنفد طاقات "النظام العربي" في إقامة دولة متميزة بوظائفها السياسية-السيادية والإستراتيجية وفاعليتها الاجتماعية والقانونية.

في هذا تلتقي حركات "الإسلام السياسي" مع منافسيها وخصومها في عجز مشترك عن التوصل إلى معالجة معضلة الحكم في النظام العربي الحديث إزاء تصاعد مطالب الحرية والكرامة والتنمية في مختلف الأقطار.

ما يحتاج إلى توقف خاص عند تقييم الأداء العام لحركات "الإسلام السياسي" استشرافًا لمستقبلها يتعلق بالمرجعية التي تستند إليها وما تنشره من خطاب الهوية الثقافية والدينية. إشكالها المرجعي أنها ظلت مجرد مرجعية تحشيدٍ إذ لم تُفَعَّل لبناء خيارات مميزة يمكن أن تشتغل عليها الحركة بمنظور حضاري ضمن تيار تحالفي سياسي-اجتماعي يُقلِّص من منسوب الاستقطاب السياسوي الذي ساد بعد سنة 2011.

قبل ذلك وطوال سنوات النشأة والتوسع والقهر، أكسب الموقفُ الحدي لخطاب الهوية مناضلي "الإسلام السياسي" مكانة وتأثيرًا بالغيْن. لقد وفَّر لهم خطاب الهوية

موقفًــا لافتًــا مَكَّنهم من التقدم والنهوض والصمــود. كان ذلك اعتمادًا على العاملِ الثقافــي الاجتماعي الذي اتخذ مكانة مرجعيــة للتغيير بالإحالة على التراث العربيِ الإسلامي أساسًا وليس انطلاقًا من الشروط العالمية للرقي والتحرر.

بذلك تمكن "الإســلام السياســي" من تجاوز مقولة "اللحاق بركب الحضارة" التي ذاعت مع التجارب العربية المختلفة في البناء والتنمية القُطريين عقب الحرب العالمية الثانية حتى نهاية الحرب الباردة. بذلك تحول موضوع الهوية إلى ركن أساسي تمكن به الإســلاميون أن يُرسوا خطابًا نِديًّا يواجه الحضارة المعاصرة بتحول للـ"ذات" من عامل مُندرج في السياق التاريخي العالمي إلى مرجع مستقل عنه.

لكن هذا الوضع شهد تغيرًا نوعيًّا بعد انفجار الأوضاع الداخلية للنظام العربي، سنة 2011، عندما واجه "الإســلام السياســي" حراكًا ثوريًّا ممتدًّا بتحديات نوعية مركبة دون حصانــة ثقافيــة مميزة. واجه قضايا حيوية من قبيل: علاقة الحكم بالمشــروع الوطني ومقتضياته التنموية، والمجتمع وإســتراتيجيات الواقع، والســيادة الوطنية في منظور الجغرافيا السياســية، مكتفيًا بخطاب للهوية مُســتَقدَم من مرحلة النضال ضد الأنظمة القمعية. ذلك لم يعد عنصرًا مقنعًا في ممارســة الحَكم للمســاهمة في بناء انتظام سياسي ناجع.

من ثم توالت تعثرات "الإســلام السياســي" في تحديد إجرائي لمفهوم الهوية وفي طبيعتها وهل هي بِنية ثابتة لا تتغير وجوهر قارٌّ لا يتبدل أم أنها جملة من الخصائص والسمات في تشكّل وصيرورة دائبين؟

نجم هذا القصور نتيجة فقدان مســتلزمات ثقافة الدولة وما أدى إليه من ضعف من ارتباك الإســلاميين في اختياراتهم وسياســاتهم ضمن المشهد الوطني العام الخاص بالإنجاز التنموي.

امتــد هذا القصور أيضًا لمجالات متفرعة عــن البنية الحضارية للهوية تناولت قيمة الفــرد المســلم وحاجياته الروحية والعقلية والمادية ضمــن مجتمعه، وهل يتواصل الإقرار بإعطاء الجماعة والتنظيم الأولوية المطلقة فيما تقوم عليه من بناء للمستقبل؟

من هذه التساؤلات تظهر أهمية مسألة الدولة وثقافتها في العالم العربي بما يستدعي الطرح الإشكالي: هل من المُجدي قيام عمل سياسي حزبي دون ثقافة، أي دون رؤية

تتشكل في نظم مختلفة باختلاف الأزمنة والبيئات يطلُّ من خلالها العقل على مجمل البنية الاجتماعية ومستلزماتها؟

الواضح أن فقدان هذه الثقافة جعل الفكر الذي ينبثق عن مفهوم الهوية الثبوتي فكرًا قاطعًا وحَدِّيًّا لا يتصور للمجتمع والإنسان علائق أخرى غير العلائق الدينية التنميطية فلا يعترف بالمجال السياسي الاجتماعي وبضوابطهما الخاصة.

السياسة ثقافة أو لا تكون

عندما تختزل الهويةُ مجال الاجتماع البشري وحراكه في البعد الظاهري للدين فإنها تصبح كيانًا ناجزًا وذاتًا افتراضية لانقطاع صلتها بأي واقع تاريخي مما يُفقدها إمكانية التطور والنمو ويقلِّص عالمية رسالتها.

مثل هذا التوجه في فهم الهوية ينتهي إلى الاعتقاد بأن مشاكل المسلمين وعوامل ضعفهم موجودة في الواقع السيء الذي يعيشونه فقط وليس فيما يحمله المسلم من رؤية وتصورات عن ذاته وتاريخه وعن الآخر.

تلك هي هوية الانطواء على الذات صونًا لها من دواعي التعدد والاختلاف اللذين يشملان العالَم من حولها بما يعتمل فيه من حركة وتفاعل دائبين.

ينسى دعاة هذه الهوية القلقة حضاريًّا حقيقتين: الأولى إنسانية وهي أنَّ الأصالة ليست تكرارًا للأصل وإلا غدت مسخًا وانحدارًا بصوره الرائعة إلى صور حائلة زائلة. أما الحقيقة الثانية فهي أن الهوية في دلالتها الإسلامية الرسالية تنطلق من التصور القرآني للوجود بأنه خلق يزداد ويرتقي بالتدرج والاختلاف مع استيعاب نوعي لمقتضيات واقع هذا التحول(34).

مؤدى هاتين الحقيقتين في المجال الحضاري-السياسي هو أن يهتدي كل جيل بما ورثه من آثار أسلافه من غير أن يعوقه ذلك التراث في تفكيره وحكمه وحل مشكلاته الخاصة. إشكال هذه الخصوصية في واقع حركات "الإسلام السياسي" وهي تدير الحكمَ أنها انزوت في التنظيم وعناصره فأنهكت التنظيم وشتتتْ ولاء عناصره ليتضاءل وزنها في حاضنتها الشعبية قبل أن تنتهي مكانتها في الحكم.

مصدر هذا الانتكاس في التباس الأولويات الإستراتيجية المحلية وما ينجرُّ عنها من

اختيارات وسياسات في علاقة بالمعادلات الداخلية والإقليمية والدولية. ذلك ما سمح بالقول عن الإسلاميين في الحكم أنهم أصحاب الأيدي المرتعشة لكونهم الأقل امتلاكًا لثقافة الدولة وحسن إدارة شؤونها وقصورها الإستراتيجي والاجتماعي.

المستوى الأخطر للتحديات التي برزت بعد الأحداث الثورية لسنة 2011 يتعلق بخصوصية "الإسلام السياسي" في كونه ظاهرة ثقافية اجتماعية وتاريخية. ذلك يعني أنها ظاهرة "حديثة" تاريخيًّا نجمت عما اندرجت فيه مجتمعات جنوب المتوسط ونخبه منذ القرن التاسع عشر في تحديث يرتكز إلى الثقافة الأوروبية وباتباع نمط حياتها. الأهم في هذا التلازم هو أن حركة التحديث التي ستتولاها النخب العثمانية والتركية والعربية ستواكبها سياسة تعزيز أوروبي جعلت من التحديث بوابة لهيمنة مفروضة على مجتمعات الجنوب التي انساقت في استلاب حضاري واضح. هذه السيرورة لا يستطيع الإسلاميون تجاوزها مهما كانت أفكارهم في الأطوار اللاحقة.

من ثم صارت سمة حداثة الإسلاميين هذه، إشكالية بصورة مركبة: هي تتطلب، أولًا، الوعي بها، وهي تدعوهم، ثانيًا، للاستمداد من المخزون التراثي ما يثري إسهامهم في الإجابة عن الأقضية المستجدة. ثم هي تعني، ثالثًا، التحرر من وطأة الحداثة الغربية في الحاجات والقرارات وفيما تعيشه الحداثة من أزمة فكرية وأخلاقية فاقمها النموذج المعولم.

كيف يمكن للإسلاميين أن يُوَفَّقُوا في التوصل إلى توازنات جديدة يتعدون بها المصالح الاستعمارية وما وقع إرساؤه من سياسات الهيمنة بعد ذلك في أطوار الاستقلال اللاحق؟(35)

حصيلة هذه التحديات جميعًا تقتضي الوعي المركب بأن التحديث القسري كان مدخلًا للاستلاب الحضاري وأن سند التحرر منه بالنجاعة في مجالات العدالة والتنمية والسيادة وأن صميم التوازنات الفاعلة هو أن السياسة ثقافة أو لا تكون.

البعد الثالث والوعي الحضاري

عند إيجاز ما توصل إليه البحث في الطبيعة المركبة لـ"الإسلام السياسي" وفي علاقة هذه الطبيعة بتعثراته في الحكم، يتبين أن مسيرته تواجه تقويضًا لمشروعيته بما يهدده جديًّا بالاندثار.

ما يُرَجِّح هذا الاستخلاص:

1- تَدَرُّج الإسلاميين من خطاب احتجاج دفاعي عن الموروث القيمي والشرعي إلى أيديولوجية عقائدية انتهت بهم إلى مواقع الحراك السياسي ومؤسسات الحكم لكن دون التوصل للإسهام في الخروج بمجتمعاتهم من حال الانقسام والاستتباع والخصاصة.

2- تشكيلهم ظاهرةً هجينة: عنوانها المحافظة ومكوناتها وأهدافها حديثة. هو تهجين إشكالي لكونه جمع بين حداثة غربية نظامها السياسي متجرد من البعد الأخلاقي إلى درجة كبيرة دون إحالة على قيم دينية أو تاريخية وبين حراك يسعى لرد الاعتبار إلى الذات برفض القول بالقطيعة التاريخية مع اعتماد تصور وقيم للحياة بفكر حضاري مغاير.

3- اندراجَ منافسي الحراك الإسلامي في هجنة أخرى جعلتهم في نضالهم السياسي الأيديولوجي غير مستحضرين أن الحداثة ليست مسألة تقليد أو اقتباس أو استيعاب عقلية. إنها إفراز داخلي لكل مجتمع نتيجة ما يعيشه من صراع تاريخي بين قواه الداخلية والخارجية لبناء مستقبل جماعي يعزز قوته ونفوذه.

4- عبثية التعدد السياسي العربي الذي تلا 2011 أدَّى إلى تكريس حالة التدابر والتنافي بين الفرقاء في مختلف الأقطار بما واصل الانسياق في حضور مركزية غربية متهافتة بفرض ذاتها ونموذجها في الحياة والوجود. يحصل هذا رغم تنبيهات عدد من المفكرين الداعين إلى ضرورة التيقظ لمخاطر التحديث والعولمة شأنَ جهود الفيلسوف الألماني "يورغن هابرماس" في التعريف بأزمة الحداثة الأيديولوجية والفلسفية الكبرى(36).

بالعودة إلى مقاربة "البُعد الثالث" في رهانه على الداخل الثقافي لحركات "الإسلام السياسي" فإن أهم ما يعمل على التوصل إليه هو ضرورة معالجة مفارقة "الإسلام السياسي" في علاقته المختَلَّة بالسند المرجعي الذي يميزه.

عنوان هذه المعالجة وعي حضاري يسمح ببلوغ أخص مخرجات "البعد الثالث" في استعماله نقدًا بنائيًّا بما يمكِّن الإسلاميين من تحمل الهمِّ الإنساني فكرًا وثقافةً وتموقعًا.

مقتضى هذا المنظور تثمين السند المرجعي للإسلاميين على أساس أنه ليس مجرد شعار تحشيدٍ بل إنه مستودع معرفي وحضاري وأخلاقي يتوفر على خبرات وطاقات هائلة قادرة على فتح أبواب المساهمة الفعلية في مواجهة المصاعب الإستراتيجية والسياسية وحل المعضلات الاجتماعية الاقتصادية.

هو حسٌّ حضاري حاضر لدى عدد من المشتغلين على المشاريع التاريخية الكبرى في الغرب من أمثال الأميركي "مارشال هودجسن" (Marshall Hodgson)(37)، والألمانيين "فريتس شتيبات" (Fritz Stepat)(38) و"توماس باور (Thomas Bauer)(39).

أساس "البعد الثالث" هو أن لا بديل عن طرح موضوع الوعي الحضاري للإسلاميين ولمخالفيهم على السواء. مدخل الإجابة عن هذه القضية المستقبلية أن الحداثة ليست صيغة واحدة وأمرًا مُعْطى يُستنسخ ويُقتبس بل هي حداثات تعبِّر كل واحدة منها عن إرادة لحياة أعدل وفق تاريخ وثقافة واحتياجات كل مجتمع حي في عالم متحرك بمشاغله ومضائقه.

بناء على ما ستنتهي إليه أشغال تفعيل الحس الحضاري يمكن أن تتحدد مآلات "الإسلام السياسي" في المستقبل المنظور، وهل يمكنه التوصل إلى بدائل دينية أو فلسفية واجتماعية مميزة.

مربط الفرس في جملة هذه الإمكانيات هو الإسهام في إقامة نظام سياسي تُحَدَّدُ فيه مجالات التفاعل والتمايز بين سؤالي الدين والدولة اللذين اعتمدهما هذا البحث. ذلك هو الرهان الحضاري الوازن.

تسوية تاريخية لعمران جديد

في معالجة دقيقة لما كنا بصدده، نقرأ للأستاذة المصرية في العلوم السياسية "هبة رءوف عزة"(40) ما يساعد على استشراف مآلات "الإسلام السياسي" بعد تجربته في الحكم. تتحدث عن أسباب الارتباك في الإدارة السياسية لتلك التجربة فتربطها بالعلل الكامنة في بنية الدولة الحديثة؛ حيث تقول: إن ما لم ينتبه إليه "القطاع الأوسع من التيار الإسلامي (أنه) ظنَّ أنها (الدولة الحديثة) حصن يمكن الاستيلاء عليه في حين

أن من درس الدولة القومية ونشأتها وعرف خرائطها التاريخية والمنطق الكامن فيها يعلم أنها ثقب أسود يلتهم الأيديولوجيا والأخلاق لصالح الهيمنة والتحكم ومصالح رأس المال وأنها كيان قام على العلمانية"(41).

أخطر ما في تجربة "الإسلام السياسي" للحكم أنه فوَّت على نفسه الاستفادة من الخبرة التاريخية للمسلمين لكونها كانت إحدى تجارب السلطة في علاقتها بالمجتمعات والثقافات في التاريخ. ما نجم عن ذلك أن التحدي الذي واجه هذه التجربة من منظور الدولة الحديثة وطبيعة الانتظام السياسي لم يعتمد نظرية في الدولة تتمثل مكوناته الثقافية-الرمزية والاعتقادية-الأخلاقية والحضارية-الإنسانية.

أكثر من ذلك، لقد رجحت ممارسات "الإسلام السياسي" في الحكم بعد 2011 ما ذهب إليه "وائل حلاق" في كتابه "الدولة المستحيلة"(42) إلى أن امتناع قيام الدولة بالمفهوم الحديث في المجال الثقافي الاجتماعي العربي الإسلامي وفق ما أقامته ونادت به جماعات "الإسلام السياسي" وحركاته يعود إلى الأزمة الأخلاقية التي عرفتها الحداثة الغربية. حصل ذلك لتعذر استعادة تجربة تاريخية ماضية إلا وفق المنظور الحاضر مما يجعل تلك التجربة الماضية موضوعًا للحكم عليها وليست مصدرًا للهداية والتمثل في ذاتها.

مع ذلك، فإن ظاهرة "الاسلام السياسي" تبقى تتحرك، مع كافة القوى السياسية والاجتماعية الفاعلة في المجال العربي، بعطبها الهيكلي والفكري ضمن منطقة فقدت سيطرتها على مصيرها، هذا من جهة. هي من جهة أخرى يمكن أن تظل في اتصال بدورة حضارية جديدة تفرض نفسها على المثقفين والسياسيين كما تفرضها على عموم القوى الاجتماعية والمدنية.

طوق نجاة الجميع، في هذه الحالة، يتمثل في إدراك مُضي لحظة حضارية وقدوم أخرى تختلف عنها فيما تستدعيه من مراجعات نوعية طالما أعرض عنها حزبيو "الإسلام السياسي" مكابرة بما أعجزهم عن بناء تصور ثقافي ديني يقتضيه الواقع والعصر.

ما لا يدع مجالًا للشك أن "الإسلام السياسي" يظل مدفوعًا لمراجعات نوعية مريرة وأكيدة دونها الاندثار التنظيمي. ذلك أنه، إضافة إلى أزمته المزدوجة في الحكم

المحلي وفي انفكاك قاعدته الشعبية، يواجه أزمة الحكم في العالم العربي في ارتهانها بأزمة الدولة الوطنية في السياق المعولم.

لم يَبْقَ عندئذ للإسلاميين من خيار سوى التسوية التاريخية الشجاعة للخروج من حال التشظي العام بما يواصل سيرورتهم ضمن الإسهام في تأسيس المشترك الذي يحرر الديني من سطوة الدولة بما يُعيد السياسة للعرب ويرأب الصدع الاجتماعي والإقليمي.

ذلك هو الخيار المتاح لبناء مشروع وطني جامع من أجل عمران جديد(43) قادر على تنمية شاملة مستدامة. بهذا الخيار يبلغ الإسلاميون أعلى مراحل حضورهم باكتسابهم وعيًا تاريخيًّا وإستراتيجيًّا مؤسِّسًا للمواطنة السيادية التي ينبلج بها صبح التعدد في الوطن العربي.

لكن الإشكال يبقى، في النهاية، متعلقًا برهان التسوية التاريخية وتوافر شروطه. إنه تحدٍّ مطروح على الأطراف السياسية ذات المرجعية الإسلامية لكنه في ذات الوقت مركز اهتمام كل مكونات المشهد السياسي الاجتماعي المحلي والعربي بمختلف أطرافه سواء من كان في السلطة أو كان خارجها. إشكال منطق التسوية يتطلب من الجميع مراجعات صميمية بعيدة عن لغة الثأر والاستئثار والإقصاء والاستقواء والاستئصال.

فهل سيتمكن الجيل العربي الصاعد من الإجابة عن هذا السؤال التاج؟

المراجع

(1) استعملتُ عبارة "الإسلام السياسي" بين ظفرين لأني لا أرى صلاحيتها لفهم الظاهرة بصورة موضوعية دقيقة بما تنطوي عليه من دلالات فكرية وتاريخية لحراك البلاد العربية في الفترة المعاصرة ولما لمفهوم "الإسلام السياسي" من صلة بالاستشراق وبنزعة المركزية الغربية.

ما أعتبره أصلح في تسمية الظاهرة هو "الإسلام الحركي" الذي قدمتُه بصفته تلك. أي صفة الظاهرة الاجتماعية الثقافية التي مرت بمراحل تطورت من خلالها لتصبح حركة سياسية منظمة يمكن تقدير تاريخ لانطلاقها ومدى فاعليتها الواقعية.

(2) مارتن كرامر (و. 1958): مستشرق وباحث أميركي-إسرائيلي مختص في الشأن السياسي الشرق أوسطي المعاصر.

(3) برنـارد لويـس (1916– 2018) مؤرخ ومستشـرق أميركي–إسـرائيلي مختـص في التاريخ الإسـلامي وشؤون الشرق الأوسـط: عالج في العديد من مؤلفاته موضوع السياسة والإسلام في السـياق الحديث والمعاصر خاصة في كتبه: أصول الإسـماعيلية، 1940، وعودة الإسلام، 1985، ومستقبل الشرق الأوسط، 1997، وأزمة الإسلام، 2003.

(4) استعمل برنارد لويس هذا المصطلح في محاضرة له في أغسطس/ آب 1957، بجامعة جونز هوبكنز بواشـنطن في تحليل ما حصل إثر العدوان الثلاثي على مصر، سـنة 1956، معتبرًا أن ما يجري في منطقة الشـرق الأوسـط لا يقتصر على موضوع قناة السـويس ولا يعني حربًا بين دول وشعوب بل هو في حقيقته صراع بين حضارتين إحداهما آفلة بعد أن كانت رائدة والأخرى مهيمنة سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا.

(5) عاد برنارد لويس بمزيد من التفصيل لنفس التحليل في بحث جذور الغضب الإسلامي، راجع: Lewis Bernard, The Roots of Muslim Rage, in Atlantic Monthly in sep.1990; 3 ,266.

(6) انظر برنارد لويس، أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة محمد عناني، جامعة أكسفورد لندن 2010.– وLewis Bernard, L'Islam en crise, Paris, Gallimard, 2003.

(7) من قبيل الخمينيون، الإخوانجية، المتاجرون بالدين.

(8) عبد القادر الزغل، عودة المقدس، الطلب الإيديولوجي الجديد للشباب المدرسي مثال البلاد التونسية، الدليل السنوي لإفريقيا الشمالية، سنة 1979.

(9) اسـتعمل مفهومي " الاحتجاجي " و"المناضل" الباحث الاجتماعي عبد الباقي الهرماسـي، الإسـلام الاحتجاجي في تونس، بحث مقدم لجامعة الأمم المتحدة، المسـتقبليات العربية البديلة، مبحث الصحوة الدينية بحث مرقون دون تاريخ، نُشر بعد ذلك في مركز دراسات الوحدة العربية لبنان، 31 مارس/ آذار 1989، عدد الصفحات 53.

(10) انظر محمد الحاج سالم، الإسلاموية وما بعدها، بين إشكالية المفاهيم والمطلب الاجتماعي، https: / /nohoudh-center.com /research-study / %D8%.

(11) من المفاهيم التي استُعملت في البدايات نذكر: الأصولية، التشدد الإسلامي، التطرف.

(12) تُنسـب إلى برنارد لويس مطالبته إدارة الرئيس بوش قبل واقعة 11 سـبتمبر/ أيلول 2001

وبعدها بغزو العراق، انظر رضوان السيد، وجهة نظر أخرى في "الغضب الإسلامي"، صحيفة الحياة، اللندنية، 30 يونيو/ حزيران 2007.

(13) L'islamisme radical, Paris , Hachette 1987.

(14) L'Islamisme au Maghreb : la voix du Sud, Éditions Karthala, 1988.

(15) Comprendre l'Islam politique : une trajectoire de recherche sur l'altérité islamiste, 1973-2016, Paris, La Découverte, 2016.

(16) L'Échec de l'Islam politique, Paris, Le Seuil, 1992.

(17) L'islam politique, toujours en échec, Esprit 2015/5 (Mai).

(18) L'islamisme radical, Hachette, Paris 1987.

(19) الإسلام السياسي: صوت الجنوب، الطبعة الأولى 1992، ترجمة لورين زكري، نشر دار العالم الثالث.

(20) المرجع السابق.

(21) Olivier Roy : " Comme solution politique, l'islamisme est fini " entretien, Rue 89, nouvelobs.com, 20 février 2011.

(22) المرجع السابق.

(23) التعاطي الجوهراني (Essentialiste) الذي يثبت الفروق ويجعل منها حواجز عازلة لا يمكن تخطيها بأي حال.

(24) من هؤلاء نذكر: *محمد أبو رمان: الكاتب والمحلل والوزير السابق الأردني: مؤلف "السلفيون والربيع العربي"؛ "الإصلاح السياسي في الفكر الإسلامي"؛ "الحل الإسلامي في الأردن"؛"الإسلاميون والدين والثورة في سورية".، ما بعد الإسلام السياسي: مرحلة جديدة أم أوهام إيديولوجية؟

*حسن أبو هنية: الباحث والخبير في شؤون الجماعات الجهادية، من مؤلفاته نذكر: "المرأة والسياسة من منظور الحركات الإسلامية في الأردن"؛ "الإخوان المسلمون في الأردن: أزمة الديني والسياسي في السياق الوطني". - آصف بيات: الباحث الاجتماعي والكاتب الإيراني الأميركي، من مؤلفاته نذكر: "ثورة بلا ثوار: كيف نفهم الربيع العربي؟"؛ "ما بعد الإسلاموية الأوجه المتغيرة

للإسلام السياسي"؛ "الحياة السياسية: كيف يغير بسطاء الناس الشرق الأوسط".

(25) سـمير أمين (-1931 2018): مفكر وكاتب ماركسـي مصري ركز كتاباته حول جملة من المفاهيـم المحوريـة مثل المركزية الأوروبية وهو من أهم مؤسسـي نظريات المنظومات العالمية والتبعية والمركزية الأوروبية.

(26) من نص صدر في كتاب "ما بعد الرأسـمالية المتهالكة"، نشـر دار الفارابي ط.2003؛ يمكن الرجوع إلى كامل النص على الرابط http: / /www.e-joussour.net /ar /node /6861

(27) أزمة المجتمع العربي، دار المستقبل العربي، القاهرة ط1، 1985.

(29) خليل العناني، الإسـلاميون في مصر تحولات الفكر والممارسـة، جسور للترجمة والنشر، القاهرة 2019.

(30) خليل العناني، تآكل السردية "الإخوانية" الشمولية وسقوط "الإسلاموية الأرثوذكسية"، قنطرة، 5 يناير 2015، (شـوهد في 2يناير 2023): https://ar.qantara.de /rb.gy /lv587: https: / content/ %D9 %85 %D8 %B3 %D8 %AA %D9 %82 %D8 %A8 %D9 %84-

(31) عبد الوهاب الأفندي، "الغنوشي والواقعية ونهاية الحلم الإسلامي بالسلطة"، 5 يناير/ كانون الثاني 2015، http: / /www.alquds.co.uk/?p=274968

(32) الإسلام والدولة الحديثة، نحو رؤية جديدة، دار الحكمة، لندن، د.ت.

(33) المرجع السابق، المقدمة ص 3.

(34) المرجع السابق، ص 4.

(35) راجع الآيات "يزيد في الخلق ما يشـاء إن الله على كل شـيء قدير" (سورة فاطر: 35/ 1)؛ "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (سـورة النحل: 16/ 8)؛ "يسـأله من في السماوات والأرض كلَّ يوم هو في شأن" (سورة الرحمن: 55/ 29).

(36) Pierre Robert Baduel, Modernité : Charge et ambiguïtés d'un concept ; ,https://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1994_num_72_1_1646

(37) Habermas Jürgen, Le discours philosophique de la modernité. Douze conférences, Bibliothèque de philosophie, Editions Gallimard, Paris 1988.

(38) انظر كتابه "مغامرة الإســلام، الضمير والتاريخ في حضارة عالمية"، ترجمة أســامة غاوجي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة 1، بيروت 2021.

(39) انظر كتابه "الإسلام شريكًا، دراسات عن الإسلام والمسلمين"، ترجمة عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، عدد 302، الكويت 2004.

(40) انظر كتابه، ثقافة الالتباس: نحو تاريخ آخر للإسلام، تر. رضا قطب، ط.1 نشر دار الجمل بيروت-بغداد 2017.

(41) هبة رءوف عزة (و. -1965): مفكرة وجامعية مصرية مختصة في العلوم السياسية وناشطة سياسية ومحاضر زائر بالجامعة الأميركية في القاهرة وكاتبة صحفية.

(42) انظر الخيال السياسي للإسلاميين: ما قبل الدولة وما بعدها، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ط.2 2015.

(43) الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة عمرو عثمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط. 3، بيروت 2015.

(44) انظر هبة رءوف عزة، نحو عمران جديد، سلسلة الفقه الإستراتيجي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ط.-1 2015.

الجندي الصنعي وأسس القانون الدولي الإنساني -خلاصة أفكار عسكرية قانونية

The Artificial Soldier and International Humanitarian Law: A Summary of Military and Legal Ideas

طارق المجذوب - Tarek Majzoub*

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء نظرة سريعة على الجندي الاصطناعي أو الصنعي (أي الجندي الذي يصنعه الإنسان ليحاكي السلوك البشري لجندي المشاة من القوات النظامية) ومترادفاته وأنواعه، ومنها (المقاتل الروبوت)، وإلى عرض التساؤلات القانونية التي يطرحها استخدام الجندي الصنعي، من نحو ثان، وإلى الالتفات إلى محل الجندي الصنعي في الإستراتيجيات العسكرية لبعض الدول العربية، من نحو ثالث. وسيعتمد المنهج التحليلي في مقاربة أبعاد مسألة استخدام الروبوتات (أو الربوطات) في الحرب.

كلمات مفتاحية: تكنولوجيا الروبوت، الجندي الصنعي، الروبوت المقاتل، حرب المستقبل، المسؤولية الدولية.

Abstract:

This study seeks first to take a quick look at the robotized or artificial soldier (i.e., man-made infantry soldier able to perform military functions in a humanlike manner) and its types, and second, to raise legal issues about the use of artificial soldier in the battlefield, and third, to overlook its place in the military strategies of some Arab States. The analytical approach will be adopted throughout the paper.

Keywords: Robotics Technology, Artificial Soldier, Soldier Robot, Future War, International Responsibility.

* أ.د. طارق المجذوب، أستاذ زائر في عدد من الجامعات، وقاض لدى مجلس شورى الدولة، ووزير سابق في لبنان.

Prof. Dr. Tarek Majzoub Visiting Professor at Several Universities, Judge at the Council of State, Former Minister, (Lebanon)

مقدمة

في نوفمبر/ تشـرين الثاني 2020، لم يستبعد الجنرال السير نيك كارتر، قائد القوات المسـلحة البريطانية، أن تحارب روبوتات، قد يصل عددها إلى 30 ألف وحدة، في صفوف الجيش البريطاني، الذي يتحتم عليه أن يحدث نفسه.

وقال الجنرال كارتر لبرنامج "سكاي نيوز أون صانداي" الذي تبثه قناة "سكاي": إن القوات المسلحة التي "يجري تصميمها لثلاثينات القرن الحالي"، قد تتضمن أعدادًا كبيرة من الآلات التي تعمل بشكل ذاتي أو تلك التي تدار عن بعد. وأضاف السير نيك": "أعتقد أنه سيكون لدينا جيش قوامه 120 ألف جندي، بينهم 30 ألف روبوت".

وذكـر فـي وقت لاحق خلال حوار أجراه معه "برنامج آندرو مار" على قناة "بي بي سي" الأولى، أن الروبوتات ستلعب دورًا ما في ميادين القتال خلال السنوات العشر المقبلة، وذلك كجزء من قوات مسلحة "مختلفة للغاية". وأضاف الجنرال كارتر: "من خلال توقعاتي لما سـيجري في عشر السـنوات المقبلة، فإنه يجب ألا يساورنا أي شك في أن الحرب ستكون مختلفة، وأنه سيكون لدينا روبوتات في ميدان المعركة، علمًا بأنها بالفعل موجودة هناك حاليًّا" (1).

ونسـتنتج مـن كل ما تقدم أن "المملكة المتحدة لديهـا رؤية جريئة تتضمن امتلاك 30 ألف روبوت قتالي أي ما يمثل 25 في المئة من تعداد جيشـها (...). ورغم أن الرؤية البريطانية تتميز بالطموح الكبير إلا أنها ربما تواجه عقبات تتعلق بالاعتمادات المالية اللازمة" (2). وبتعبير آخر: سـيكون لبريطانيا جيش قوامه 120 ألف جندي، من بينهم 30 ألف روبوت Robot (أو ربوط (3)، كما عربت الكلمة) قابل للتوجيه، سواء أكان ذلك من طريق التحكم عن بعد Remote controlled robot أو من طريق برمجة يحملها في داخله Autonomous robot.

وتشـكِّل الروبوتـات Robots نوعًا غريبًـا عجيبًا، ووحيدًا فريدًا، ومدهشًـا مذهلًا مـن المقاتليـن أو المحاربين أو الجنود. وترتبط تكنولوجيـا الربوطيات Robotics technology (4) ارتباطًا عضويًّا بمسـألة تطور وسائل الحرب، الحالية والمستقبلية (5). ويتعاظم دور هذه التكنولوجيا في إحداث التحول من الأسـاليب التقليدية في

الحرب إلى الأساليب غير التقليدية الحديثة. ويشكل ظهور الروبوتات بعد العام 2001 عاملًا رئيسًا في تطوير وسائل الحرب لأنها تمثل إعادة اختراع وسائل الحرب وإعادة تنظيمها وهندستها من خلال التكنولوجيا.

وسيؤدي الانتقال إلى الروبوتات إلى إحداث تغيرات جذرية وجوهرية في المفهوم الإداري والعسكري والقانوني للجندي (كالانتساب والتعيين -أو شروط التوظيف- في القوات المسلحة وإدارة الموارد البشرية وغير البشرية فيها) وفي قواعد الحرب (البرية والبحرية والجوية والفضائية).

إن لاستخدام الروبوت المقاتل (Artificial soldier) في الحروب أبعادًا وجوانب وانعكاسات أو آثارًا متعددة، من بين أبرزها: الآثار القانونية بالنسبة إلى استخدام الجندي الاصطناعي أو الصنعي (6) في ميدان القتال (7)، وبخاصة أهم المبادئ التي يقوم عليها القانون الدولي الإنساني (كمبدأ الفروسية ومبدأ الإنسانية ومبدأ الضرورة). ولكننا سنلقي، أولًا، نظرة سريعة على الجندي الاصطناعي أو الصنعي ومترادفاته وأنواعه. ونعرض، ثانيًا، للتساؤلات القانونية التي يطرحها استخدام الجندي الصنعي، القادم إلى ميدان القتال بخطوات متسارعة لا محالة. ونورد، ثالثًا، محل الجندي الصنعي في الإستراتيجيات العسكرية لبعض الدول العربية. وسيعتمد المنهج التحليلي في مقاربة أبعاد مسألة استخدام الروبوتات (أو الربوطات) في الحرب.

أولًا: الجندي الصنعي ومترادفاته وأنواعه

لا ضير إذا ذكرنا بدايةً أن المشاة أو جند المشاة أو الرَّجَّالة Infantry هي القوات المقاتلة راجلةً برغم أنها قد تحمل إلى ميدان القتال على صهوات الجياد أو متون السفن والطائرات وغيرها. وجند المشاة قديم قدم الحرب نفسها، وقد كان رجاله يسلَّحون بادئ الأمر بالسهام أو السيوف أو الرماح أو الحراب، ثم أصبحوا يسلحون بالبنادق الأوتوماتيكية وقاذفات الصواريخ وغيرها. ولقد كانت مهمة هذا الجند، دائمًا، الاستيلاء على الأرض، واحتلال بلدان العدو عند الاقتضاء. والواقع أن الحرب العالمية الأولى (1914-1918) كانت حربًا بين جنود المشاة، في المقام الأول، وفيها كان هؤلاء الجند مزودين بالبنادق والرشاشات والقنابل اليدوية. أما في الحرب العالمية الثانية (1939-1945) فقد اقتصرت مهمة جند المشاة على التقدم

في أعقاب الهجمات الأولية (التي يقوم بها سلاح المدرعات وسلاح الطيران) إلى توسيع الثغرات المحدثة في دفاعات العدو والتمركز في أراضيه المحتلة.

إن المصطلحات والتعابير المستعملة والمتعلقة بالجندي في عصر الأتمتة Automation (8) أو الربوطة Robotization (9) أو السبرنة Cybernation (10) كثيرة ومتنوعة. فما الفرق بين الجندي الصنعي ومترادفاته؟ وما العناصر التي تجمع بينها أو تشترك فيها؟ وما أوجه الشبه والاختلاف بين الجندي الصنعي والجندي الروبوت؟ وكيف نصنف الجندي الصنعي؟ (11)

إن عبارة "الجندي الصنعي" Artificial soldier تعني وجود ماكينة أو آلة يصنعها الإنسان لتحاكي السلوك البشري للجندي من المشاة يستعين بها الجيش لمهام عسكرية متعددة (كالتجسس، وتعقب الأهداف العسكرية في الخنادق والأنفاق، وزرع الألغام، وضرب مواقع العدو وقتل جنوده، وتوسيع الثغرات المحدثة في دفاعات العدو والتمركز في أراضيه المحتلة).

وإلى جانب الجندي الصنعي، نعثر على عبارات كثيرة أخرى، مثل:

- الجندي المأتمت Automated soldier: والأتمتة Automation هي "إدارة الأجهزة بالوسائل الميكانيكية أو الإلكترونية التي تحل محل حواس الملاحظة عند الإنسان"، كما ذكرنا سابقًا (12). فالجندي المأتمت هو الجندي المصمم بحيث يقوم، تلقائيًا، بسلسلة من العمليات المحددة مسبقًا.

- الجندي الروبوت Soldier robot: الروبوت Robot اسم جامع يطلق "على بعض الآلات، كالكمبيوترات، والطائرات التي تنطلق في الجو من غير طيارين" (13). وإنما أطلق "الروبوت"، أول ما أطلق، على "ماكينة أو آلة تحاكي أعمال الإنسان" (14)، ثم وسِّع مفهومه فأصبح يشمل اليوم مختلف الماكينات أو الآلات التلقائية، جزئيًا كان أو كليًا. ولتحديد مضمون "الجندي الروبوت" فضَّل فريق من الفقهاء اعتبار هذه العبارة تطبق اليوم على المسيرات، ومنها: الطائرة أو السفينة أو الغواصة من غير ربان التي يتحكَّم في سيرها عن بعد بإشارات لاسلكية أو من طريق برمجةٍ تحملها في داخلها (15)، والجندي الأوتوماتيكي أو الآلي.

- الجندي الروبوت البشراني Humanoid robot soldier: والبشراني

Humanoid هو "شـبيه بالبشـر من حيث الشـكل أو الخصائص" (16)؛ فالجندي الروبوت البشراني هو كائن شبيه بالبشر.

– الجندي الروبوتي Robotic soldier: هو الجندي الذي يسـتعين بـ"التقنية التي تعنى بتصميم الروبوتات وإنشائها وتشغيلها" (17) (أي الروبوتيات Robotics).

– الجنـدي السـيبراني Cybernetic soldier: والسـيبرانية أو السـيبرناتية Cybernetics هـي "الدراسـة النظريـة لعمليـات الضبط في الأجهـزة الإلكترونية والميكانيكية والبيولوجية، وبشـكل أخص: التحليل الرياضي لانتقال المعلومات في هـذه الأجهزة، آليـةً كانت أو حيوانية. ويعتبر هذا العلم الأسـاس الذي تقوم عليه صناعـة الكمبيوترات، ويسـتعان بـه أيضًا لفهم مختلف العلـل العضلية والعصبية" (18). فالجندي السيبراني هو الجندي الذي يدار، جزئيًّا أو كليًّا، من طريق استخدام الكمبيوتر أو الفضاء السيبراني (19).

– الجنـدي المروبـت Robotized soldier: هو تحويل الجندي إلى روبوت Robot، أي جعل الجندي "آليًّا أو أوتوماتيكيًّا" (20).

– الجندي المسبرن Cyborg soldier: والمسبرن Cyborg هو "شخص مشدود إلى أداة ميكانيكية أو أكثر يتوقف عليها انتظام بعض وظائف جسمه الحيوية" (21). فالجندي المسـبرن هو الجندي الإنسان (أي الجندي من الجنس البشري) المشدود إلى أداة ميكانيكية أو أكثر.

ليـس من اليسـير التمييز بين هـذه العبارات لأنه ليس لاختلاف التسـمية بينها أية نتيجـة عمليـة. وفي رأي معظـم الفقهاء أن مؤدَّى هذه الألفـاظ واحد وأن الرغبة في التفنن والتمايز هي التي تدفع بعض الساسـة إلى التنويع في التسـمية والتلاعب بالمصطلحات. وبالإمكان استعمال جميع هذه الأدوات الآلية لتحقيق عملية عسكرية محددة (أي تمكين الجيش من الدفاع عن مصالح دولته وحقوقها أو من فرض إرادتها على الغير من غير إهراق دم جنودها).

إن عبـارة "الجنـدي الصنعـي" ومترادفاتها المختلفة (لفظًـا لا مضمونًا، في الأعم الأغلب) تتضمن عناصر مشتركة بينها، يمكننا إجمالها بأربعة: وجود ماكينة أو آلة أو أداة، ومحاكاة السلوك البشري للجندي، والقيام بعمليات عسكرية مختلفة، والخضوع

لإرادة المشغل Operator/ المنتج Producer أو توجيهاته.

وهناك تصنيفات عديدة ومختلفة للجندي الصنعي، إلا أن هناك ثلاثة تصنيفات فقط تتمتع بفائدة عسكرية-قانونية:

- الجندي الصنعي نصف ذاتي التحكم (أو نصف تلقائي) Semi-autonomous robot الذي لا يتمتع بـ"حريته" في التصرف، بسبب خضوعه وارتباطه، كليًّا، بالمشغلين الجالسين خلف شاشات الحواسيب (أي التحكم بهذا الجندي أو السيطرة عليه).

- الجندي الصنعي ذو ذاتية التحكم المقيدة (أو تلقائية تحت الإشراف، أو إشراف على التلقائية) Supervised autonomous robot الذي لا يتمتع بكامل "حريته" في التصرف (أي اتخاذ القرارات المناسبة في ضوء المعلومات أو البيانات المجمعة لديه)، بسبب خضوعه وارتباطه، جزئيًّا، بالمشغلين الجالسين خلف شاشات الحواسيب.

- الجندي الصنعي ذاتي التحكم (أو تلقائي التوجيه) Autonomous robot الذي لا يخضع في معالجة المعلومات (أو البيانات) المجمعة لديه واتخاذ القرارات المناسبة في ضوئها لأوامر المشغِّلين الجالسين خلف شاشات الحواسيب ورقابتهم. وفي العام 2040، قد نصل إلى مرحلة ما بعد الجندي الصنعي ذاتي التحكم... جندي صنعي يفكر ويقرر بعد إطلاقه.

والمتفق عليه أن جميع هذه العبارات ومرادفاتها المختلفة تطرح التساؤلات ذاتها. فما التساؤلات التي يطرحها استخدام الجندي الصنعي؟

ثانيًا: تساؤلات قانونية يطرحها استخدام الجندي الصنعي

أضاف التطور العلمي المذهل الذي شهده العصر الحديث عوامل مهمة جديدة كان لها، وسيكون، أثر عميق في تطوير قواعد القانون الدولي وتغيير معالمها. إنها العوامل التكنولوجية (22)، ولاسيما تكنولوجيا الربوطيات.

وهذه العوامل التكنولوجية أهملت لفترة طويلة، على الرغم من الاعتراف بأهميتها وتأثيرها؛ فـ"ليس الفلاسفة بنظرياتهم، ولا الحقوقيون بصيغهم، بل المهندسون

بابتكاراتهم، هم الذين يصنعون القانون، وخصوصًا تقدم القانون" (23).

وإذا كان تأثير التكنولوجيا في حياة المجتمع البشري أمرًا مسلَّمًا به، فإن ما يشغل بالَ فقهاء القانون ورجال السياسة والإعلام اليوم (24) هو مدى تأثيرها في التغيرات والتوجهات التي طرأت على تطور القانون الدولي العام والعلاقات الدولية.

لقد كان للتكنولوجيا تأثير بالغ ودور كبير، أولًا: في تطور العلاقات الدولية (25)، وثانيًا: في تقييد بعض القواعد الدولية (26)، وثالثًا: في تطوير هذه القواعد (27).

وهكذا نرى أن العوامل والتطورات التكنولوجية المتلاحقة قد أحدثت تغييرًا مهمًّا في كثير من المفاهيم والأسس والمبادئ التي قام عليها القانون الدولي منذ قرون (28). فهل امتد هذا التغيير إلى تكنولوجيا الربوطيات؟

يتجلى تأثير الجندي الصنعي في أربعة أمور مهمة: تغيير في مضمون الجندي ومدلول الدولة الصغيرة، وتقييد مبدأ الفروسية Chivalry، وتغييب مبدأي الضرورة Necessity والإنسانية Humanity، وتشتت المسؤولية الدولية.

أ – تغيير في مضمون الجندي ومدلول الدولة الصغيرة

لقد أسفر التطور في مجال الجندي الصنعي عن تغيير شامل في مضمون القوات النظامية، أي الجيوش بمختلف أشكالها وتشكيلاتها (الجيش العامل، والجيش الاحتياطي، والحرس الوطني، والكتائب المكونة من أجانب كالفرقة الأجنبية Foreign legion /Légion étrangère في فرنسا...)، والقوات المتطوعة التي تتكون من أفراد يعملون بدافع وطنيتهم مع الجيوش النظامية. صحيح أن الفرق الجوهري بين القوات العسكرية التقليدية ومشغلي الجنود الصنعيين لم يتغير من حيث الأغراض والأهداف، إلا أن البنية والروابط مع الدولة قد تغيرت جذريًّا في عصر الأتمتة أو الربوطة أو السبرنة. ففي الماضي، كان نقص عديد القوات العسكرية يحدث خللًا ويهدد أمن الدولة بالتفكك. أما اليوم فلم يعد لعديد القوات العسكرية أية قيمة إستراتيجية تذكر (29)، لأن تكنولوجيا الربوطيات أوهت مفعول الترابط بين قدرة الجيش وعديده وعززت قدرة الدولة الواحدة، المالكة لها أو القابضة عليها، على ضمان أمنها والدفاع عن نفسها بمفردها.

وصار بإمكان دولة صغيرة مستضعفة أن تواجه منفردة دولة متفوقة عسكريًّا بعد قيامها بشـــراء أو إنتاج أسطول من الجنود الصنعيين. وستحرِّر، إذن، تكنولوجيا الربوطيات الدولَ الصغيرة، حسنة التنظيم والتدبير نسبيًّا، من الاعتماد على حلفائها التقليديين.

ويعتقـــد البعض أن رؤية أســـراب من الجنود الصنعييـــن الذين يمكنهم التواصل مع بعضهم البعض في ساحات الحرب سيكون أمرًا عاديًّا في المستقبل القريب. ولكن هل ستســـتند أســـراب الجنود الصنعيين إلى القانون الدولي الإنساني، من نحوٍ أول، واحترام الإنسان، من نحوٍ ثان؟

ب – تقييد مبدأ الفروسية

ظهر مبدأ الفروسية في العصور الوسطى، وهو ينطوي على خصال الشجاعة والشرف والنجدة والسخاء التي تتوافر في الفارس أو الجندي الممتطي فرسًا. ومن مقتضيات هـــذه الصفات الرفيعة الحرص على حماية الضعيف ومعاملة الأعداء معاملة كريمة، وعدم التعرض لغير المقاتلين من سكان دولة العدو.

ومن محاسن الفروسية أنها كانت من أسباب التخفيف من ويلات الحرب وتجنيب غير المقاتلين شـــرورها. وفي ظل الفروسية انتشرت القواعد الخاصة بحسن معاملة الجرحى والمرضى أثناء النزاعات المسلحة.

أصبح اليوم نظام الفروســـية أو روحها أو تقاليدها مســـتباحًا بفضل الجندي الصنعي عديم الإحساس حتى الآن (30). فهل سيمنع أو يمتنع الجندي الصنعي عن الإجهاز على جريح أو أســـير، أو مهاجمة ممتلكات المدنيين غير المشـــاركين في العمليات الحربية؟ وهل سيحترم العهود المقطوعة، ويبتعد عن أعمال المكر والغدر والخيانة، ويمتنع عن استعمال الأسلحة المحظورة؟ وبتعبير آخر: هل سيُمنع أو يمتنع الجندي الصنعي عن اللجوء إلى أعمال تتنافى مع الفروسية؟

نجيـــب بالنفي، فخوارزمية Algorithm (31) الفروســـية غير جاهزة. والخطورة في مثل هذه التصرفات لا تكمن في إفراغ الفروسية من مضمونها أو فاعليتها فقط، بل تكمن أيضًا وأساسًا في أنها تقهقر القانون الدولي الإنساني.

ج – تغييب مبدأي الضرورة والإنسانية

اكتسب القانون الدولي الإنساني أهميته القصوى وأصبحت له أبعاد حقيقية بسبب ارتباطه الوثيق بالإنسان، فبفضل هذا القانون وحده يمكن حماية مصير العديد من البشر وحماية حرياتهم عند اندلاع الحروب. وقد تبنى الاجتهاد العالمي، بغالبيةٍ ساحقة، تعبير "القانون الدولي الإنساني" (International Humanitarian Law (IHL الذي أصبح اليوم مصطلحًا رسميًّا وشائعًا ومستعملًا في المؤتمرات والندوات الدولية والإعلام. والاهتمام بهذا القانون ينطوي على رغبة في إحلاله محل قانون الحرب Jus in bello وتغليب الطابع الإنساني على النزاعات المسلحة، والتوفيق بين الاعتبارات الإنسانية ومقتضيات الضرورات الحربية.

ولا يتخلى القانون الدولي عن مهماته الإنسانية خلال الحروب، وهي تتجلى في القواعد والضوابط التي يضعها للتخفيف من ويلات الحروب والمنازعات المسلحة وآثارها، والحفاظ على مصالح الدول المحايدة، وحماية المدنيين والأبرياء.

ويستند القانون الدولي الإنساني (32) إلى مبدأين أساسيين (33): مبدأ الإنسانية Humanity، ومبدأ الضرورة Necessity. ويمكن أن نضيف إليهما مبدأ ثالثًا قد يبدو بديهيًّا، وهو مبدأ التناسب Proportionality.

يدعو مبدأ الإنسانية إلى تجنب أعمال القسوة الوحشية في القتال طالما أن استعمال هذه الأساليب لا يؤدي إلى تحقيق الهدف من الحرب، وهو إحراز النصر. فقتل الجرحى أو الأسرى، أو الاعتداء على النساء والأطفال، أو إساءة معاملة المدنيين، تعد أعمالًا غير إنسانية وتخرج عن إطار أهداف الحرب. فهل يراعي الجندي الصنعي غير البشري الاعتبارات الإنسانية؟

أجابت منظمة هيومن رايتس ووتش Human Rights Watch (34) وغيرها من منظمات أو جمعيات حقوقية بالنفي (35). فماذا عن مبدأ الضرورة؟

يقضي مبدأ الضرورة باستعمال كل أساليب العنف والقسوة والخداع في الحرب من أجل إرهاق العدو وإضعاف مقاومته وحمله على التسليم في أقرب وقت ممكن (أي استعمال وسائل العنف والقسوة بالقدر اللازم لهزيمة العدو وتحقيق النصر) (36). والمنادون به يضفون طابع الشرعية على العمليات العسكرية التي تضطر الدولة إلى

القيام بها للدفاع عن نفسها. ولكن مبدأ الضرورة يخضع لقيود إنسانية تتجلى في وجوب مراعاة القواعد الإنسانية في أساليب القتال، كالإقلاع عن الأساليب التي تزيد في آلام المصابين، أو تُنزل أضرارًا فادحة بغير المقاتلين، والإقلاع عن اتخاذ الضرورة مبررًا لانتهاك قواعد الحرب المستندة إلى الأعراف والمعاهدات الدولية. فحالة الضرورة لا تبيح، مثلًا، لأي طرف استخدام الأسلحة المحظورة دوليًّا، كالغازات السامة والأسلحة النووية والبيولوجية، أو الاعتداء على المدنيين، أو مهاجمة الأهداف المدنية، أو الإجهاز على الجرحى، أو حرمان المرضى من العناية الطبية.

وهناك فقهاء يرفضون مبدأ الضرورة من أساسه، مستندين في ذلك إلى فكرة أن الحرب باتت، في عهد الأمم المتحدة، عملًا غير مشروع (37)، وإذا كان مبدأ الضرورة تصرفًا ملازمًا للحرب، فقد أصبح، هو أيضًا، عملًا غير مشروع يستوجب التجاهل (38).

وفي رأي الكثيرين أن لفكرة الضرورة، رغم غموضها أهميةً ومجالًا في القانون الدولي الإنساني (39). غير أنه لا يجوز، في أي حال من الأحوال، اتخاذها ذريعة لخرق قوانين الحرب وأعرافها، أو تجاوز مقتضيات الحرب الرامية إلى كسر شوكة العدو بالطرق التي تخالف، حكمًا، تلك القوانين أو الأعراف.

ويكون مبدأ التناسب متوافرًا عندما يوازن العمل العسكري بين نتائجه والضرر المحدث، أي أن يكون حجم العمل العسكري بحجم الضرر.

ويشكِّك البعض، كما ذكرنا سابقًا، في مدى توافر شرطي الضرورة والتناسب في عمليات الجندي الصنعي العسكرية (40). فالتناسب مفقود لأن عدد ضحاياه أكبر بكثير من الجنود المستهدفين وأضراره جسيمة.

إن الركيزة الأولى للقانون الدولي الانساني هي ضرورة التمييز، في كل وقت، بين المدنيين والعسكريين، حيث يحظر القانون على المتحاربين قتل المدنيين عمدًا، أو التسبب بمعاناة لا طائل منها لغير أسباب الضرورة العسكرية، وإلا عُدَّ هذا العمل جريمةَ حرب وانتهاكًا جسيمًا يستوجب المعاقبة. ومثال ذلك اغتيال أو قتل المدنيين.

وعلى هذا الأساس، لا يحق للمتحاربين استهداف المدنيين لأنهم من فئات الأشخاص المحميين (41)، ويشكل استهدافهم عمدًا جريمة حرب يعاقب عليها.

ويعرِّف البروتوكول الأول الإضافي لاتفاقيات جنيف الأربع، الصادر في العام 1977، المدني بأنه كل من ليس بمقاتل، "أما إذا ثار الشك حول ما إذا كان شخص ما مدنيًّا أم غير مدني، فإن ذلك الشخص يعد مدنيًا" (42). فالقاعدة في هذه الحالة هي تفسير الشك لصالح الشخص المحمي إلى أن يثبت العكس.

والاعتبارات التي تبرر قتل المدنيين هي فقط مبدأ "الضرورة العسكرية" وأن يكون نشاطهم غير المعتاد قد "أسهم إسهامًا فعالًا في العمل العسكري".

ولا تؤدي المشاركة "غير المباشرة" التي تسهم في المجهود الحربي لأحد المتحاربين، من دون أن تسبب ضررًا مباشرًا، إلى فقدان هذه الحماية؛ فالمبدأ هو استمرار الحماية المقررة للفئات المحمية إلى أن يزول سبب منحها. وهذه الحماية تتوقف إذا قام الأشخاص المحميون بأعمالٍ تلحق ضررًا بالعدو، بشرط عدم استجابتهم للإنذارات الموجهة إليهم؛ فيفقد الشخص حماية القانون الدولي الإنساني إذا شارك "مباشرة في الأعمال العدائية".

فهل سيميِّز الجندي الصنعي بين المشاركة المباشرة وغير المباشرة في الأعمال العدائية؟ وبتعبير أوضح: هل سيميز الجندي الصنعي بين الفئات المشمولة وغير المشمولة بحماية القانون الدولي الإنساني؟

نجيب بالنفي، فخوارزمية التمييز صعبة التطبيق في ميدان القتال. فمن المسؤول عن ضحايا الجندي الصنعي من الفئات المشمولة بحماية القانون الدولي الإنساني؟ ومن المسؤول عن أضراره الجسيمة؟ وبسؤال موجز: من يتحمل المسؤولية في هذه الحالة؟ وما أساس هذه المسؤولية؟

د – تشتت المسؤولية الدولية

إن هناك شروطًا ثلاثة لقيام المسؤولية الدولية: وجود ضرر ناجم عن عمل غير مشروع، ارتكبته دولة معينة. وتنتفي المسؤولية إذا كان الضرر نتيجة قوة قاهرة، أو خطأ ارتكبته الدولة التي أصابها الضرر (43).

والنشاط الناجم عن استخدام الجندي الصنعي، والمسبِّب للضرر، قد يكون مشروعًا، وقد يتسبب هذا الجندي، عند استعماله، في إحداث ضرر للبشر (44).

وهناك اتفاقيات دولية مهمة استندت إلى نظرية المخاطر "ونصَّت بوضوح على قيام المسؤولية بمجرد وقوع الضرر، ودون الحاجة إلى إثبات وجود فعل غير مشروع. ونذكر، على سبيل المثال، اتفاقية العام 1969، المتعلقة بالتلوث الناتج عن استغلال الموارد المعدنية في قاع البحار، واتفاقية العام 1972، المتعلقة بالمسؤولية عن الأضرار التي تسببها أجسام تدور في الفضاء" (45).

وفي عصر الأتمتة أو الربوتة أو السبرنة وما أفرزته من أضرار جسيمة تجاوزت حدود الدولة التي تستخدم الجندي الصنعي، تضاعفت أهمية تلك المسؤولية، فراح رجال القانون يطالبون بتطوير قواعدها حتى لا تقف القواعد التقليدية عقبة في سبيل حصول من تصيبهم هذه الأضرار على التعويض العادل. فالمفهوم التقليدي للمسؤولية لم يعد قادرًا على التلاؤم مع الآثار والأضرار التي تسببها الثورة العلمية الحديثة، لأن الأضرار أصبحت خطيرة وشاملة، وإثبات الضرر أصبح صعبًا، واستخدام تكنولوجيا الروبوتات أصبح مشروعًا.

إن أضرار الجندي الصنعي قد تحدث، مثلًا، من دون أن يكون بالإمكان نسبة أي خطأ إلى الدولة التي أطلقته. فقد كانت الدولة، قبل تكنولوجيا الروبوتات، قادرة على تحديد مسار جنودها المشاة، بشكل نسبي مقبول. غير أنها أصبحت بعد انتشار تطبيقات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات عاجزة عن التحكم الكامل بمسار الجندي الصنعي. فكيف باستطاعة الدولة مالكة الجندي الصنعي منع خطفه عبر الفضاء السيبراني Cybernetic space (46) وتفجيره؟ وهل بإمكانها عمليًّا منع قراصنة الكومبيوتر أو المقتحمين Hackers (47)، الطبيعيين والاعتباريين، من التقاط ما ينقله الجندي الصنعي من معلومات ومشاهد؟ وهل بإمكانها عمليًّا منع التنصت أو استراق السمع، أو اعتراض أو اختراق ما يبثه الجندي الصنعي من معلومات ومشاهد؟ وهل تحتفظ الدولة التي أطلقت الجندي الصنعي بالولاية والرقابة عليه خارج حدود الولاية الوطنية للدولة؟ وبعبارة أوضح: هل تتحمل الدولة التي أطلقت أو سمحت بإطلاق الجندي الصنعي من أرضها بالمسؤولية الدولية عن جميع الأضرار التي تنزل بالغير؟ وهل تطبق صفة المحارب على من خطف الجندي الصنعي أو خربه أو فجره، سواء في ميدان القتال أم خارجه؟ وهل يمكن عده جنديًّا سيبرانيًا عاملًا Cybernetic soldier أو جنديًا سيبرانيًّا في الاحتياط Cybernetic reservist؟ وهل يمكن عده مرتزقًا أو خائنًا؟

ونستنتج من كل ما تقدم أن الاستهداف المتعمد للمواقع المدنية والفئات المشمولة بحماية القانون الدولي الإنساني يعد جريمة حرب في هذا القانون. أما ادعاء بعض الدول بأن ما تقوم به هو استخدام الجندي الصنعي لحجب دماء جنودها والدفاع عن حياضها والمحافظة على وجودها، فهو لا يبرر قتل العدد الكبير من الفئات المشمولة بحماية القانون الدولي الإنساني، كما سبق بيانه. فهل سيكون استخدام الجندي الصنعي سبيلًا إلى سفك دماء هذه الفئات بسبب خطأ أو خلل ما أو قصدٍ ما؟ أو هل سيتمكن العلماء من جعل الروبوت يتألم (48) ليتعلم الجندي الصنعي التخفيف من ويلات الحرب وتجنيب غير المقاتلين شرورها؟ وهل ستتمكن التكنولوجيا الأحيائية Biotechnology (49) من جعل الجندي الصنعي يحاكي الطريقة التي يعمل بها الجهاز العصبي في جسم الإنسان؟ وهل سيستجيب مقياس التحسس Sensor الذي يحمله الجندي الصنعي في داخله لمؤثرات البشر الطبيعية (الإحساس والانفعال، كالحب والغضب والأسى والخوف) ومن ثم يرسل النبضات الكهربائية Electric pulses الناشئة عن ذلك إليه (أي إلى الجندي الصنعي)؟ وبسؤال موجز: هل سيسلك الجندي الصنعي يومًا كما تسلك الفئات المشمولة بحماية القانون الدولي الإنساني فيتمرد على التوجيهات التي يجب عليه اتباعها عند تشغيله أو إطلاقه؟

ثالثًا: الجندي الصنعي في الإستراتيجيات العسكرية لبعض الدول العربية

إننا نلمس، إذن، بعد الاطلاع على جهود الأمم المتحدة في مجال تنظيم استخدام الجندي الصنعي (50)، توجهًا دوليًا، نظريًا، نحو إدانة استخدام الجندي الصنعي (51). فحجة "الأضرار الجانبية غير المقصودة" لم تعد سدًّا يحمي الدول من الإدانة عند اللجوء إلى مثل هذا الاستخدام. والتذرع بالخطأ التقني، الحاصل للجندي الصنعي عند مهاجمة العدو أو تنفيذ مهام (الاغتيال، مثلًا)، لم يعد وسيلةً للتهرب من المسؤولية الدولية. وعالم اليوم لم يعد بإمكانه السكوت أكثر عما يجري من عمليات تدمير مواقع العدو أو عمليات قتل (فردية كانت أو جماعية). ومسألة محاسبة من ارتكب مثل هذه الفظائع، وإنزال العقوبات المناسبة به، صارت في مقدمات اهتمام منظمات حقوق الانسان وهيئات المجتمع المدني (52).

قبل حرب أوكرانيا (24 فبراير/ شباط – حتى الآن) كانت مشروعية استعمال الجندي الصنعي تثير مناقشات عديدة بين الفقهاء، وكان بعضهم يمقته ويدعو إلى تحريمه لأنه

يُنزل بالسكان الآمنين الأبرياء أضرارًا لا قبل لهم بدفعها (53). غير أن كثرة استخدام الجندي الصنعي، وتقدم هذا الاستخدام بعد العام 2001، واعتماد الدول اعتمادًا كبيرًا عليه، كل ذلك جعل من المناقشات الفقهية حول مشروعية الجندي الصنعي مناقشات بيزنطية، وأهاب بالبعض التسليم بالأمر الواقع والانصراف إلى البحث عن قواعد لتنظيم استعماله.

ولم تتمكن الدول حتى الآن من الاتفاق على وضع قانون خاص لهذا السلاح الرهيب. والدول كانت دائمًا تنفر من قضية التنظيم لأنها تريد، كما يبدو، أن تبقى طليقة من كل قيد لتتصرف في حروبها المقبلة بكل حرية وتستعمل الجندي الصنعي الذي تختاره.

لقد حاولت المؤتمرات والمنظمات الدولية في العصر الحديث، كما ذكرنا سابقًا، أن تضع قانونًا لتنظيم نشاط الجندي الصنعي وعملياته، ولكن دون أن تكلل جهودها بالنجاح.

وهذا يعني أن المبادئ حول استخدام الجندي الصنعي لم تَرْقَ بعد إلى مرتبة القواعد القانونية الملزمة، وانتقالها إلى هذا الصعيد لا يتم إلا عند تحولها إلى عُرفٍ متواترٍ ومستقرٍ، أو عند تدوينها في اتفاقية دولية. وبما أن سرعة تطوير الروبوتات لا تحتملُ انتظارَ تبلور القواعد العرفية، فلابد للعرب من اللحاق بركب تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي الواعدة (54).

فهل للجندي الصنعي محل في الإستراتيجيات العسكرية لبعض الدول العربية؟

يمكن بهذا الخصوص وبعد الاطلاع على الدراسات والأبحاث عن الجندي الصنعي، تسجيل الأفكار أو الملاحظات السريعة التالية:

- إن العمل على تصنيع أو تجميع أو ترقية Upgrade (55) الجندي الصنعي أو شرائه لا يكلف كثيرًا من المال، ففي الوقت الذي يكلف تدريب جند المشاة من القوات النظامية مئات الملايين من الدولارات الأميركية، فإن دول الوطن العربي لا تضطر إلا إلى إنفاق القليل لإنتاجه جمليًا Mass production (56).

- إن اضطلاع الجندي الصنعي بمهام متعددة يتجاوز، بشكل ملحوظ، ما يمكن أن يقوم به جندي المشاة من القوات النظامية.

– إن الجندي الصنعي الذي يحل محل حواس الملاحظة عند جندي المشاة يوفر عليه عناء التقرير وبذل الجهد، وأحيانًا كثيرة بذل الحياة؛ فالجندي الصنعي هو حجب لدماء جندي المشاة من القوات النظامية.

– إن دول الجوار العربي (إسرائيل (57) وإيران وتركيا)، وبشكل متفاوت طبعًا، من أوائل الدول في مجال أبحاث تكنولوجيا الروبوتات، وصارت تبيع الجندي الصنعي إلى عدد من دول العالم، ومنها الولايات المتحدة الأميركية وبعض دول أوروبا.

– إن التطورات المتسارعة في تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي تجد صدى جيدًا في دول عربية بعينها، تقدم تجارب جيدة في مجال البحوث والتخصصات الأكاديمية الخاصة بهذا المجال، كما في دولة قطر والمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية والإمارات العربية المتحدة (58)، وإن بشكل متفاوت.

وتشعر الدول العربية أن الأمر تجاوز التقني إلى الأمني، وأنها لابد لها من أن تطور جنديها الصنعي (بحثيًّا كان أم تصنيعيًّا) لفرض "توازن رعب جديد"، أو على أقل تقدير، خلق "توازن ردع نسبي" (59) يستفيد إلى أقصى حد ممكن من تكنولوجيا الروبوتات، ويؤدي إلى كبح جماح بعض دول الجوار العربي عن اللجوء إلى التلويح باستخدامه. وعلينا أن نتذكر أن التقدم المذهل في مجال الأسلحة التدميرية أفرز وضعًا دوليًّا جديدًا يُعرف باسم "توازن الرعب" أو "السلام بواسطة الردع" (60). والنظام الإقليمي (خليجيًّا كان أم مشرقيًّا أم مغربيًّا) معرض للتغيير، وعوامل التغيير كثيرة، يأتي التطور التكنولوجي في مقدمتها، وبخاصة تكنولوجيا الروبوتات، فالاختراعات في المجال العسكري كانت دائمًا العامل الأهم في تغيير مواقع الدول في سلم القوى الدولية أو الإقليمية.

– إن الجندي الصنعي (بالمعنى الواسع) هو سلاح المستقبل الأكيد، ومن يملك ناصية هذه التكنولوجيا فلا شك أنه سيكون هو المسيطر على مسار الحرب (أو على أقل تقدير، المعركة).

وبعد أن أوردنا هذه المعلومات المبسطة عن أوضاع الجندي الصنعي، نتساءل: هل أحسن الوطن العربي ودوله الاستفادة من تكنولوجيا الروبوتات التي تشكل اليوم،

وستبقى تشكل لفترة طويلة، ميزة واعدة للدفاع عن حياض الوطن؟

الحقيقة أننا لم نُولِ حتى الآن هذه التكنولوجيا الأهمية التي تستحق. ولو طُلِب منَّا تقديم الدليل، مجددًا، على أهمية الجندي الصنعي ودوره في إدارة حروب المستقبل في العالم أجمع لاكتفينا بالإشارة إلى وضعه، أولًا، أداةً ضروريةً لا غنى عنها اليوم للقيام بمهام متعددة يعجز عنها جندي المشاة من القوات النظامية، وإلى وضعه، ثانيًا، سلاحًا أساسيًّا فعالًا لحسم أي حرب (أو على أقل تقدير، معركة)، إقليمية أو عالمية، أو للدفاع عن النفس ضد أي خطر خارجي أو داخلي، وإلى وضعه، ثالثًا، ككبش المحرقة أو الفداء عن جندي المشاة فيوفر عليه بذل الحياة.

خاتمة

إن الجندي الصنعي، بمترادفاته وأنواعه، قد ينسف أسس القانون الدولي الإنساني بسبب التساؤلات العديدة التي يطرحها استخدامه (كالتغيير في مضمون الجندي، وتقييد مبدأ الفروسية، وتغييب مبدأي الضرورة والإنسانية، وتشتيت المسؤولية الدولية) ونفور معظم الدول من قضية تنظيمه (61)، وإن مستوى تطور تكنولوجيا الروبوتات سيُستخدم في المستقبل المنظور معيارًا لتحديد حجم القوة العسكرية التي تملكها الدولة. ومن هذه الناحية، فإن التمييز بين الدول لن يتم على أساس عديد أفراد الجيش من القوات النظامية فقط، بل على أساس مدى التقدم أو التخلف في إنتاج أو تصنيع أو تطوير الجندي الصنعي. فتكنولوجيا الروبوتات ستفرز عاملًا جديدًا في تغيير مواقع الدول في سلم القوى الدولية أو الإقليمية من شأنه قلب الآية والسماح لدولة مزدهرة فيها صناعة الروبوتات باحتلال مركز دولي أو إقليمي مرموق والتأثير في النظام الدولي أو الإقليمي من دون أن تكون متفوقة عسكريًّا بمعايير الدول الكبرى أو مصافها (62). وإسرائيل وإيران وتركيا أمثلة تؤكد ذلك.

وصيانة الحرية والسيادة والاستقلال والمستقبل تحتم علينا في المرحلة الراهنة أن نسعى جاهدين إلى تحويل المجتمع العربي إلى مجتمع علمي، لأن التخلف، مدنيًّا كان أم عسكريًّا، لا يمكن التغلب عليه إلا بالثورة العلمية الصادقة (63).

المراجع

(1) راجع ما كتبه كونراد دانكن Conrad Duncan، "آلاف الروبوتات قد تُحارب قريبًا في صفوف الجيش البريطاني"، إندبندنت Independent عربية، 18 نوفمبر/ تشرين الثاني 2020 (تاريخ الدخول: 17 يونيو/ حزيران 2022)، bit.ly/3QF0jyX

وكذلك راجع: "الجيش البريطاني يعتزم تجنيد آلاف "الروبوتات" الذكية بحلول عام 2030"، الجندي، 1 ديسمبر/ كانون الأول 2020 (تاريخ الدخول: 17 يونيو/ حزيران 2022)، bit.ly/3OdN7iJ

وكذلك راجع ما كتبه محمد منصور، "الروبوتات القتالية.. مشاة الحروب المستقبلية"، الميادين، 9 ديسمبر/ كانون الأول 2020 (تاريخ الدخول: 17 يونيو/ حزيران 2022)، bit.ly/3QCrdYg

(2) راجع: "بريطانيا تخطط لامتلاك جيش ضخم من الروبوتات القتالية في 2030"، Sputnik عربي، 9 نوفمبر/ نشرين الثاني 2020 (تاريخ الدخول: 20 مايو/ أيار 2022)، bit.ly/3Ocj0IB

وكذلك راجع:

Army sets out Future Soldier robotics and autonomous systems plans, September 16, 2021, accessed May 20, 2022. bit.ly/3xJPBhN

(3) الروبوت Robot "ماكينة أو آلة تُحاكي أعمال الإنسان. والروبوت ليس شيئًا جديدًا، ونستطيع القول إنه يرقى إلى القرن الأول للميلاد عندما صنع هيرون Hero الإسكندري صنمًا يتحرك وينحني بواسطة الهواء الساخن. (...). وفي العصر الحديث صُنعت روبوتات متعددة قادرة على السير، وعلى القيام ببعض الأعمال المنزلية والمكتبية. واليوم يُطلق لفظ "الروبوت" على بعض الآلات، كالكمبيوترات، والطائرات التي تنطلق في الجو من غير طيارين" (منير البعلبكي، رمزي البعلبكي، المورد الأكبر، ط 1) (بيروت، دار العلم للملايين، 2005)، ص 1587.

(4) الروبوتات Robotics هي "التقنية التي تُعنى بتصميم الروبوتات وإنشائها وتشغيلها" (البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 1587).

(5) راجع، على سبيل المثال، الكتب الآتية:

- Mark Galeotti, The Weaponisation of Everything: A Field Guide to the New Way of War (Yale University Press Publications, 2022).

- Kenneth Payne, I, Warbot: The Dawn of Artificially Intelligent Conflict (London: Hurst Publishers, 2021).

- Matthew Breay Bolton, Political Minefields: The Struggle against Automated Killing (London: I.B. Tauris, 2020).

- Paul Scharre, Army of None: Autonomous Weapons and the Future of War (New York: W. W. Norton & Company, 2018).

- Kenneth Payne, Strategy Evolution and War: From Apes to Artificial Intelligence (Washington, DC: Georgetown University Press, 2018).

(6) راجع، على سبيل المثال، ما كتبه:

Vishvendu Jaipuriar, An 'artificial soldier' comes to life - 26-year-old Giridih techie builds spy robot prototype for Rs 22000, wins laurels at IIT fests, The Telegraph online, August 23, 2011, accessed June 19, 2022. bit.ly/39EFvqH

(7) راجع، على سبيل المثال، الكتب الآتية:

- Afonso Seixas-Nunes, The Legality and Accountability of Autonomous Weapon Systems: A Humanitarian Law Perspective (Cambridge: Cambridge University Press, 2022).

- Jai Galliott, Duncan MacIntosh and Jens David Ohlin (eds), Lethal Autonomous Weapons: Re-Examining the Law and Ethics of Robotic Warfare (New York: Oxford University Press, 2021).

- Daniele Amoroso, Autonomous Weapons Systems and International Law: A Study on Human-Machine Interactions in Ethically and Legally Sensitive Domains (Baden-Baden: Nomos Verlagsgesellschaft, 2020).

- Nehal C. Bhuta et al. (eds), Autonomous Weapons Systems: Law, Ethics, Policy (Cambridge: Cambridge University Press, 2016).

(8) "إدارة الأجهـــزة بالوســـائل الميكانيكيـــة أو الإلكترونية التي تحل محل حواس الملاحظة عند الإنســـان وتوفر عليه عناء التقرير وبذل الجهد" (البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع الســـابق، ص 154).

(9) "تحويل الإنسان إلى روبوت أو إنسان آلي" (المرجع ذاته، ص 1587).

(10) "الضبط الأوتوماتي لعملية ما، في حقل الصناعة مثلًا، من طريق استخدام الكومبيوترات" (المرجع ذاته، ص 514).

(11) راجع، على سبيل المثال، ما كتبته:

Heba Soffar, Army robots types, advantages, disadvantages & how do Artificial soldiers change the future of war?, August 29, 2019, accessed June 18, 2022. bit.ly/3xFQPL7

(12) "إدارة الأجهزة بالوسائل الميكانيكية أو الإلكترونية التي تحل محل حواس الملاحظة عند الإنسان وتوفر عليه عناء التقرير وبذل الجهد" (البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 154).

(13) المرجع ذاته، ص 1587.

(14) المرجع ذاته، ص 1587.

(15) راجع، على سبيل المثال، ما كتبه طارق المجذوب، "الطائرات بلا طيار كوسيلة حرب (ملاحظات أولية عسكرية – قانونية)"، مجلة الدفاع الوطني اللبناني (بيروت، العدد 82، أكتوبر/ تشرين الأول 2012)، ص 39–74، bit.ly/3HIxu0n

(16) البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 917.

(17) المرجع ذاته، ص 1587.

(18) المرجع ذاته، ص 514.

(19) راجع، على سبيل المثال، ما كتبه طارق المجذوب، "السايبر ساحة "خفية" لحربٍ "ناعمة" قادمة!"، مجلة الدفاع الوطني اللبناني (بيروت، العدد 89، يوليو/ تموز 2014)، ص 5–46، bit.ly/3xGi600

(20) البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 1587.

(21) المرجع ذاته، ص 514.

(22) حول موضوع أثر التكنولوجيا في تطوير القانون الدولي، راجع: محمد المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، ط 7 (بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، 2018)، ص 68–100. ولابد

أيضًا من مراجعة كتاب مصطفى سـلامة حسـين، التأثير المُتبادل بين التقدم العلمي والتكنولوجي والقانون الدولي العام، (القاهرة، دار النهضة العربية، 1990).

(23) راجع ما كتبه:

Albert de la Pradelle, " La guerre maritime après la nouvelle conférence de la paix ", in Revue des Deux Mondes, juillet-août 1908, p. 708.

(24) قال وزير خارجية الولايات المتحدة السابق، هنري كيسنجر، إننا "نعيش الآن في عصر جديد تمامًا، ومع انتشار التكنولوجيا في جميع أنحاء العالم، ستحتاج الدبلوماسية والحرب نهجًا مختلفًا، وسيكون ذلك تحديًا". راجع: "هنري كيسنجر: هكذا سيتغير العالم بعد حرب أوكرانيا"، 11 مايو/ أيار 2022 (تاريخ الدخول: 12 مايو/ أيار 2022)، bit.ly/3blYtCZ

(25) راجع ما كتبه: المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 73-81.

وكذلـك راجع: محمد سـالم، "تأثيرات الذكاء الاصطناعي علـى النظام الدولي والأمن القومي"، مجلـس الـوزراء - مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، 31 مارس/ آذار 2022 (تاريخ الدخول: 12 مايو/ أيار 2022)، bit.ly/3bgyFYG

(26) راجع ما كتبه: المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 82-95.

(27) المرجع ذاته، ص 96-100.

(28) لمزيد من المعلومات عن تأثير التقدم التكنولوجي في القواعد المُنظمة للحرب، راجع كتاب:

James Gow, Ernst Dijxhoorn, Rachel Kerr and Guglielmo Verdirame (eds), Routledge Handbook of War, Law and Technology (Abingdon, Oxon; New York, NY: Routledge, 2019).

(29) راجع، على سبيل المثال، "هذا ما سيحدث لو تواجه روبوت مع جندي في ساحة الحرب.. العلماء قلقون مما صنعت أيديهم"، عربي بوست، 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 2021، (تاريخ الدخول: 20 مايو/ أيار 2022)، bit.ly/3Ncga4O

(30) لمزيد من المعلومات عن الموضوع، راجع الشريط المُصور، euronews.com، 18 يونيو/ حزيران 2022 (تاريخ الدخول: 18 يونيو/ حزيران 2022)، bit.ly/3n3FnUL

(31) الخُوارزميــة هــي "طريقة مُقننة لإجراء عملية رياضية ما" (البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 72).

(32) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع: راجع كتاب: محمد المجذوب، طارق المجذوب، الوجيز في القانون الدولي الإنساني، ط 2 (بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، 2021).

(33) المرجع ذاته، ص 41-42.

(34) راجع تقريرها، بعنوان:

Losing Humanity: The Case Against Killer Robots, HRW, 2012.

(35) راجع، على سبيل المثال، الدراسات والأبحاث الآتية:

- Human Rights Watch, Stopping Killer Robots: Country Positions on Banning Fully Autonomous Weapons and Retaining Human Control, 2020, accessed May 22, 2022. bit.ly/3tRybyG

- Elvira Rosert and Frank Sauer (2021) How (not) to stop the killer robots: A comparative analysis of humanitarian disarmament campaign strategies, Contemporary Security Policy, 42:1, 4-29, accessed May 22, 2022. bit.ly/3OyJSSX

- Submission from the Campaign to Stop Killer Robots for the United Nations Special Rapporteur on Racism, Racial Discrimination, Xenophobia and Related Intolerance, August 21, 2020, accessed May 22, 2022. bit.ly/39J4F7w

- Killer Robots, accessed May 22, 2022. bit.ly/3tOeZly

(36) المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 769.

(37) راجع، على سبيل المثال:

- Kristen E. Boon, Aziz Huq, and Douglas C. Lovelace, JR. (eds), The Intersection of Law and War, Terrorism: commentary on security documents 126 (New York: Oxford University Press, 2012), 39.

- John Scales Avery, Collected Essays, Part 3 (Sparsnäs: Irene Publishing, 2016), 40.

(38) المجذوب، الوسيط في القانون الدولي الإنساني، المرجع السابق، ص 42.

(39) راجع، على سبيل المثال، الفصل الرابع (بعنوان: The Foundations of Necessity in IHL) من كتاب:

Jens David Ohlin and Larry May, Necessity in International Law (New York: Oxford University Press, 2016), 90-120.

وكذلك راجع دراسة:

Michael N. Schmitt, "Military Necessity and Humanity in International Humanitarian Law: Preserving the Delicate Balance", Virginia Journal of International Law 50 (2010), 795-839.

(40) راجع، على سبيل المثال، الدراسات والأبحاث الآتية:

- Human Rights Watch, Heed the Call: A Moral and Legal Imperative to Ban Killer Robots, 2018.

- Women's International League for Peace and Freedom, A User Guide to Killer Robots, 3rd Edition, 2020.

- Asif Khan, Muhammad Abid Hussain Shah Jillani, and Maseehullah, Killer Robots and their Compliance with the Principles of Law of War, Journal of Law and Society (2019), 1(75), 55.

(41) من الصعب الإحاطة بكل أنواع فئات الأشخاص المحميين، لكن أهمها: الجرحى والمرضى في ميدان القتال، والجرحى والمرضى والغرقى في البحار، وأسرى الحرب، والمدنيون، والفئات التي يُقرر لها القانون الدولي الإنساني حمايةً مُحددةً :النساء، والأطفال، والمظليون، والمناضلون من أجل التحرر من الاحتلال أو الاستعمار، واللاجئون وعديمو الجنسية، والأشخاص الذين يُرافقون القوات المُسلحة من دون أن يكونوا من أفرادها، وأفراد الأطقم الطبية، والأُسرة، والقوات العسكرية التابعة للمنظمات الدولية، ورجال الدين، والأجانب المقيمون في إقليم أحد الأطراف المتنازعة...). راجع: المجذوب، الوسيط في القانون الدولي الإنساني، المرجع السابق، ص 118-123.

(42) الفقرة الأولى من المادة 50.

(43) راجع ما كتبه: المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 97-98، و274-290.

(44) راجع ما كتبته برانكا ماريجان، "أسلحة الذكاء الاصطناعي تحتاج إلى ضوابط أمثل: هذه الأسلحة عرضة للخطأ.. وقد تدمر أهدافًا غير مقصودة"، مجلة للعلم Scientific American، 15 أبريل/ نيسان 2022، (تاريخ الدخول: 30 أبريل/ نيسان 2022)، bit.ly/3N9VJ8O

(45) المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 98.

وكذلك راجع، على سبيل المثال، ما كتبه طارق المجذوب، "الفضاء الخارجي مجال "متباعد" لحرب ماحقة "قادمة"!"، مجلة الدفاع الوطني اللبناني (بيروت، العدد 107، يناير/ كانون الثاني 2019)، ص 5-32، bit.ly/3NaY8jt

(46) أي السيطرة على الجندي الصنعي وهو في طريقه إلى تنفيذ مهمته العسكرية وإجباره على التوجه إلى مكان بعينه ومن ثم الإصرار على تحقيق بعض المطالب لقاء الإفراج عنه.

(47) هو "الخبير ببرمجة الكمبيوتر والكشف عن مشكلاته" أو "من يقتحم نظامًا للكمبيوتر، على نحو غير شرعي، بُغية الحصول على المعلومات أو سرقة الأموال.. إلخ" (البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 857). فالمقتحم، في الأعم الأغلب، هو شخص جالس خلف شاشة الكومبيوتر في مكان يبعُد آلاف الكيلومترات عن ميدان القتال.

(48) راجع الشريط المُصور، بعنوان: "علماء يطورون جلدًا اصطناعيًّا يجعل الروبوتات تشعر بالألم ويمنحها شعورًا شبيهًا بإحساس البشر"، euronews.com، 18 يونيو/ حزيران 2022، (تاريخ الدخول: 18 يونيو/ حزيران 2022)، bit.ly/3n3FnUL

(49) "شُعبة من التكنولوجيا تُعنى بتطبيق المُعطيات البيولوجية والهندسية على المشكلات المُتعلقة بالإنسان والآلة" (البعلبكي، المورد الأكبر، المرجع السابق، ص 220).

(50) راجع، مثلًا، قرار الجمعية العامة للأُمم المتحدة 76/ RES/ A/ 64 تاريخ 6 ديسمبر/ كانون الأول 2021 ("اتفاقية حظر أو تقييد استعمال أسلحة تقليدية معينة يمكن اعتبارها مفرطة الضرر أو عشوائية الأثر") (تاريخ الدخول: 23 مايو/ أيار 2022)، bit.ly/3zU3Xih

وكذلك راجع: "ماعت تشارك في اجتماع فريق الخبراء الحكوميين المعني بالتكنولوجيات الناشئة بمجال منظومات الأسلحة الفتاكة"، بوابة الأهرام، 11 مارس/ آذار 2022، (تاريخ الدخول: 23 مايو/ أيار 2022)، bit.ly/3Odfnls

(51) راجع، مثلًا، ما قالته المقررة الأممية تنداي أشيوم E. Tendayi Achiume (في سبتمبر/ أيلول 2017، عيَّنها مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة خامس مقرر خاص معني بالأشكال المعاصرة للعنصرية والتمييز العنصري وكره الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب (https://www.ohchr.org/ar/special-procedures/sr-racism). وتولت مهامها في 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017):

United Nations Human Rights Council, 44st session, Geneva, Palais des Nations, 15 July 2020, accessed May 22, 2022.

bit.ly/3zTVknZ

وكذلك راجع:

- Frank Sauer, Stepping back from the brink: Why multilateral regulation of autonomy in weapons systems is difficult, yet imperative and feasible, International Review of the Red Cross (2020), 102 (913), 235–259, accessed May 22, 2022.

bit.ly/3xBTCok

(52) راجع، على سبيل المثال، الرسائل والأخبار والمقالات الآتية:

- Samuel Gibbs, Elon Musk leads 116 experts calling for outright ban of killer robots: Open letter signed by Tesla chief and Alphabet's Mustafa Suleyman urges UN to block use of lethal autonomous weapons to prevent third age of war, The Guardian, August 20, 2017, accessed May 22, 2022.

bit.ly/3tQsvoy

- Adam Satariano, Nick Cumming-Bruce and Rick Gladstone, Killer Robots Aren't Science Fiction. A Push to Ban Them Is Growing (A U.N. conference made little headway this week on limiting development and use of killer robots, prompting stepped-up calls to outlaw such weapons with a new treaty), The New York Times, December 17, 2021, accessed May 22, 2022.

nyti.ms/3NceGYt

- Toby Walsh, How can you stop killer robots?, TEDxBerlin, October 8, 2015, accessed May 22, 2022. bit.ly/3OuEjER

– Junno Arocho, 'Killer robots' pose threat to innocent civilians, National Catholic Reporter, August 6, 2021, accessed May 22, 2022.

bit.ly/3yaWDNS

– Jeremy Kahn, Air Force A.I. test raises concerns over killer robots, Fortune, December 22, 2020, accessed May 22, 2022.

bit.ly/3OabCgX

(53) راجع تقرير حملة "وقف القاتل الروبوتات" Stop Killer Robots، بعنوان: "الروبوتات العسكرية والقاتلة"، (تاريخ الدخول: 20 مايو/ أيار 2022)،

bit.ly/3tRzE8a

(54) راجع، على سبيل المثال، "حرب الذكاء الاصطناعي.. سلاح الصين للانتصار دون قتال"، العين الإخبارية، 16 يونيو/ حزيران 2022، (تاريخ الدخول: 18 يونيو/ جزيران 2022)،

bit.ly/3OieN6k

(55) يرفع الروبوت إلى درجة أعلى أو مستوى أعلى، أي نسخة محسَّنة أو شكل محسن.

(56) أي إنتاج الجندي الصنعي على نطاق واسع (إنتاجه بالجملة).

(57) اعتبرنا إسرائيل، في هذه الدراسة، تجاوزًا، دولة من دول العالم التي انضمت إلى عضوية الأمم المتحدة في 11 مايو/ أيار 1949، وصدَّقت، منذ ذلك التاريخ، على بعض المواثيق والمعاهدات والاتفاقيات الدولية، وذلك على الرغم من إيماننا بأن ليس لإنشاء إسرائيل أي أساس أو سند قانوني. لمزيد من المعلومات حول كيفية قبول إسرائيل في عضوية الأمم المتحدة، راجع: محمد المجذوب، الوسيط في التنظيم الدولي (النظرية العامة والمنظمات العالمية والقارية والإقليمية والمُتخصصة)، ط 9 (بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، 2018)، ص 223–228.

(58) راجع الرابط الإلكتروني الآتي:

https://www.tawazun.ae/ar/

راجع كذلك الرابط الإلكتروني الآتي:

https://www.tawazun.ae/ar/tip-announced-launch-of-drone-competition/

(تاريخ الدخول: 31 يوليو/ تموز 2022).

(59) راجع حول فكرة التوازن الدولي: المجذوب، الوسيط في القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 111.

(60) راجع الفصلين السادس والسابع من كتاب دانييل كولار Daniel Colard، العلاقات الدولية، ترجمة خضر خضر، ط 2 (بيروت، دار الطليعة، 1985).

(61) راجع ما كتبته نينا فيركهاوزر، "الروبوتات القاتلة.. هل تنجح الجهود الدولية في حظرها؟"، على موقع دويتشه فيله DW، 31 يوليو/ تموز 2022، (تاريخ الدخول: 31 يوليو/ تموز 2022)، https: / /www.dw.com /ar/ الروبوتات-القاتلة-هل-تنجح-الجهود-الدولية-في-حظرها/ a-62613399

(62) راجع ما كتبه يوسف جمعة الحداد، "الذكاء الاصطناعي.. كيف غير من مفاهيم الردع وتوازن القوى وحروب المستقبل؟"، مجلة درع الوطن، 1 مارس/ آذار 2022،(تاريخ الدخول: 31 يوليو/ تموز 2022)، bit.ly/3n4uuBN

(63) راجع ما كتبه محمد المجذوب حول "عشر حقائق كشفتها معركة تشرين المجيدة" في كتابه: دراسات قومية ودولية، (بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 1981)، ص 131-148، ولا سيما ص 136-137 و145.

متابعات وقضايا

مستقبل العلاقات الروسية-الإفريقية بعد الحرب على أوكرانيا

The Future of Russian-African Relations after the War on Ukraine

سعيد ندا - Saied Nada*

ملخص

لم تتسبب الحرب الروسية على أوكرانيا في التخفيف من نشاط موسكو الملحوظ في القارة الإفريقية، بل تنامت العلاقات بين الطرفين، واستفادت روسيا من ميراث طويل من الاستثمار السياسي والاقتصادي والعسكري في معظم الدول الإفريقية لتعزز حضورها في القارة.

وتناقش هذه الورقة نشأة وتطور العلاقات الروسية-الإفريقية، والأسباب الداعية إلى تنامي هذه العلاقات، والوسائل والأدوات التي استخدمتها روسيا في سبيل ذلك، ومدى استجابة الدول الإفريقية لتلك للمساعي الروسية، وكيف أثرت الحرب الروسية على أوكرانيا على العلاقات الروسية-الإفريقية، وانتهت إلى أن الحرب الروسية على أوكرانيا دفعت وستدفع أكثر باتجاه تمتين وتطوير العلاقات الروسية-الإفريقية، وتوسيع وتنويع مجالاتها.

الكلمات المفتاحية: روسيا، إفريقيا، أوكرانيا، الحرب الروسية على أوكرانيا، العلاقات الروسية-الإفريقية

Abstract:

In a remarkable development, and contrary to what some analysts predicted after the outbreak of the Russian war on Ukraine, the Russian Foreign Ministry intensified its activities in the African space, and Russian-African relations grew.

For this purpose, this study discussed the emergence and development of Russian-African relations, the reasons for the growth of these relations, the means and tools that Russia used for this, the extent to which African countries responded to those Russian efforts, and how the Russian war on Ukraine

* د. سعيد ندا، دكتوراه العلوم السياسة، جامعة القاهرة.

Dr. Saied Nada, PhD in Political Science, Cairo University.

affected Russian-African relations, and ended I note that the Russian war on ukraine has pushed and will push further towards strengthening and developing Russian-African relations, and expanding and diversifying their fields.

Keywords: Russia, Africa, Ukraine, The Russian War against Ukraine, Russian-African Relations

مقدمة

في أعقاب استقلال الدول الإفريقية، انتهز الاتحاد السوفيتي مشاعر العداء المتأججة في نفوس الأفارقة، نخبًا وجماهيرَ، وتوغل في أرجاء القارة، لدرجة أن جل الدول الإفريقية انتهجت شكلًا ما من أشكال الاشتراكية بدرجات متفاوتة وبمسميات متعددة. وبعد انتهاء الحرب الباردة مطلع تسعينات القرن العشرين، بدأت الدول الإفريقية في التحول عن الاشتراكية غربًا لتعم الرأسمالية بوجهيها، الاقتصادي والسياسي، كافة الدول الإفريقية، لدرجة أنه بنهاية العقد الأول من الألفية الثالثة كادت العلاقات الروسية-الإفريقية أن تتلاشي. ومن حينها بدأت الخارجية الروسية في مساعي العودة إلى الفضاء الإفريقي رويدًا رويدًا، مستغلة الفراغات التي أحدثها التجاهل الغربي المتعمد لإفريقيا.

بعدما بدا للبعض احتمال تورط روسيا في الحرب على أوكرانيا أوائل العام 2022، استشرفت بعض التحليلات والتقارير انكماش التوغل الروسي في إفريقيا، وعزت ذلك من ناحية أولى إلى انشغال "الكرملين" التام بالحرب مع أوكرانيا المدعومة كليًّا من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي ودول غرب أوروبا من غير أعضاء الاتحاد الأوروبي، ومن ناحية ثانية إلى اضطرار "موسكو" لسحب عدد من خبرائها العسكريين، وقدر كبير من جنود القوات غير الرسمية التابعة لشركة "فاغنر" Wagner الروسية الأمنية، من مواقع وجودهم في إفريقيا لدعم الجيش الروسي في أوكرانيا.

بيد أن الواقع، وبخاصة في النصف الثاني من العام 2022، أسفر -على العكس من تلك التوقعات- عن تزايد ملحوظ في اهتمام الخارجية الروسية بإفريقيا؛ حيث وسَّعت وكثفت نشاطها على الساحة الإفريقية.

ومن هنا، تشتد الحاجة إلى تفسير هذا التطور غير المتوقع في العلاقات الروسية-الإفريقية بعد الحرب على أوكرانيا، وإلى استشراف مستقبل هذه العلاقات، وذلك من خلال الإجابة عن تساؤل مركزي يتعلق بتأثير الحرب الروسية على أوكرانيا على تنمية العلاقات الروسية-الإفريقية، وكذلك عن مستقبل هذه العلاقات بعد الحرب.

تطور العلاقات الروسية-الإفريقية

تنامت العلاقات السوفيتية-الإفريقية مع نشأة الدولة المستقلة في إفريقيا، حتى إن كثيرًا من الدول الإفريقية تبنَّت شكلًا من أشكال الاشتراكية، وقد أسهم الاستقطاب الأيديولوجي خلال الحرب الباردة بين الرأسمالية الغربية، وبين الاشتراكية الثورية السائدة شرقًا، فاختار كثير من الدول الإفريقية النهج الاشتراكي كل من منظوره، ووفقًا لرؤيته، متأثرًا بما كان معروفًا من الأهداف والغايات، والدعم السوفيتي الذي تلقته حركات التحرر الإفريقي قبل الاستقلال، والدول حديثة الاستقلال أيضًا، الى جانب المشاعر المعادية للاستعمار الأوروبي والتجارب القاسية التي خاضتها القارة معه.

لقد ظلت الذاكرة الشعبية والرسمية بعد الاستقلال في دول مثل الجزائر ودول جنوب القارة وغيرها تحتفظ بمواريث الدعم الذي تلقته حركات التحرر فيها من الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية، اقتصاديًّا وعسكريًّا وسياسيًّا، وهو ما عززه بالطبع المكانة السوفيتية في العالم في ذلك الوقت، وقد أثَّرت هذه العلاقة قبل مرحلة الاستقلال وبعده، في انتشار الأفكار والتنظيمات الاشتراكية في إفريقيا على النمط السوفيتي، وتبنِّيها نظمًا للحكم بعد الاستقلال، في معظم دول القارة باستثناء دول مثل المغرب وموريشيوس وسوازيلاند وجزر القمر ومدغشقر(1).

أما على الصعيد الاقتصادي، فقد طبق القادة الأفارقة في بداية تأسيس دولهم نماذج مختلفة من المقاربات الاقتصادية الاشتراكية، فعلي سبيل المثال طبَّق "جوليوس نيريري" Julius Nyerere أيديولوجية "الأوجاما" Ujamaa في تنزانيا منذ الاستقلال كنموذج اقتصادي واجتماعي، عبَّر عنه بالإنجليزية بمصطلح family-hood وبالسواحلية بكلمة "الأوجاما" وتعنى جماعة تجمعها الروابط الأسرية(2).

ولا تعني معاداة كل ما هو استعماري عدم وجود استثناءات ظلت محتفظة ببعض الولاء للمستعمر السابق مثل "ليوبولد سيدار سنغور" Léopold Sédar Senghor، الرئيس المؤسِّس للسنغال، فعلي الرغم من تبنيه للاشتراكية الإفريقية "العلمية"، وعلي الرغم من اعتزازه بإفريقيته وزنوجته، إلا أنه لم يُخْفِ فرنسيته روحًا وثقافة، فقد كان محبًّا للغة الفرنسية منافحًا عنها ناشرًا لها في بلده؛ حيث قال: "أنا مزدوج الشخصية.. تكوينيًّا، وبيولوجيًّا، وثقافيًّا"(3).

وتبريرًا للتخلي عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الغربية الاستعمارية، وتبني نماذج اشتراكية، ذهب كثير من القادة الأفارقة إلى أن القيم السائدة في المجتمعات التقليدية "القبلية" الإفريقية، أقرب ما تكون إلى القيم الاشتراكية، ولا تختلف أهداف المجتمع التقليدي كثيرًا عن أهداف المجتمع الاشتراكي، فالمجتمع التقليدي الإفريقي لا وجود فيه للطبقات الاجتماعية، ولا مجال فيه للمعارضة متى انعقدت المشاورات التي كان يجريها الزعماء القبليون، ومن هنا ارتأى هؤلاء القادة أن مرحلة بناء الدولة والهوية الوطنية تحتم إحياء هذا التراث الإفريقي التقليدي(4).

مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة

على الرغم من هذا التقارب الكبير بين السوفيت والأفارقة إلا أن القراءة المتأنية للسياسة الخارجية السوفيتية تنبئ بوضوح عن أن الاهتمام السوفيتي بإفريقيا أخذ في التراجع في المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة بالتزامن مع الـ "بيريسترويكا" Perestroika التي تبنَّاها "ميخائيل جورباتشوف" Mikhail Gorbachev، حتى تلاشى إلى حدٍّ كبير انخراط السوفيت في القارة عند انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي(5).

تلقت روسيا الإرث السوفيتي مثقلًا بالمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان ذلك كفيلًا بأن يشغلها أو يغل يدها عن تطلعاتها الخارجية تجاه القارة الإفريقية، حتي باتت إفريقيا على هامش دوائر السياسة الخارجية الروسية ما تبقى من القرن العشرين في عهد الرئيس "بوريس يلتسين" Boris Yeltsin، واستمر الأمر على نفس المنوال في العهد الأول للرئيس "فلاديمير بوتين" Vladimir Putin حتى أواخر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ففي هذه المرحلة أغلقت روسيا تسع سفارات وأربعة مكاتب قنصلية، وكذلك خفضت الدول الإفريقية تمثيلها في روسيا، واختفت معظم البعثات والمراكز الثقافية في القارة، وكاد معهد الدراسات الإفريقية في الأكاديمية السوفيتية للعلوم أن يتوقف عن النشاط، وانخفض عدد الطلاب الأفارقة المقيمين في روسيا إلى حدٍّ كبير، وكان على من بقي منهم في كثير من الأحيان أن يواجهوا مناخًا مشحونًا بالكراهية والعداء والعنصرية(6).

وفي عام 2006، شرعت روسيا في استعادة الانخراط في الفضاء الإفريقي؛ حيث زار

الرئيس الروسي "بوتين" في رئاسته الأولي الجزائر وجنوب إفريقيا والمغرب. بعدها وفي عام 2009، قام الرئيس "دميتري ميدفيديف" Dmitry Medvedev بجولة إفريقية زار فيهـا مصـر ونيجيريا وناميبيا وأنغولا، وعلى إثر هذه الزيارات وضعت روسـيا أقدامها مرة أخرى في إفريقيا عبر بوابة السـلاح واستخراج البترول والغاز والتعدين والاتصالات والفضاء(7).

وخلال العقد الثاني من الألفية الثالثة، اسـتطاعت روسـيا مرة أخرى استغلال حالة الفراغ النسبي التي خلَّفها التجاهل الغربي المتعمد لأزمات وحاجات القارة، وبسطت يـد التعـاون فتلقفتها النخب والشـعوب الإفريقية بتلهف واضح، بسـبب الأزمات المتتابعـة وحالة العوز التـي وصل إليها الأفارقة، نتيجة لسياسـات الإدارة بالأزمة Crisis Management، والإدارة بالحاجـة Needs Management التي اتبعها الغرب مع القارة، في ظل الأحادية القطبية التي سادت النظام الدولي للعقدين الماضيين.

مرحلة ما بعد الحرب على أوكرانيا

كشفت التطورات المتلاحقة في الفضاء الإفريقي مطلع العقد الثالث من الألفية الثالثة عن عمق التغلغل الروسي في القارة، فالوجود الروسي لم تعد تخطئه عينٌ مدَّ البصر في الفضاء الإفريقي شمالًا وشرقًا وجنوبًا وغربًا وفي الوسط، فلما اندلعت الحرب الروسية على أوكرانيا سادت توقعات بأن ينحسر هذا التمدد الروسي الجامح تحت ضغـط الحرب ومتطلباتها التي تملي على روسـيا، وفقًـا للمجرى العادي للأمور، سـحب خبرائها العسـكريين وجنود ذراعها المسلحة غير الرسمية "فاغنر"، وتقليص إنفاقها الإفريقي.

بيـد أن الـذي حدث كان على العكس من ذلـك، فعلى الرغم من وقوف الولايات المتحـدة والغرب وراء أوكرانيا مسـاندة ودعمًا وإمـدادًا، وعلى الرغم من تصاعد واشـتداد الحرب، وعلـى الرغم من العقوبات الغربية التـي أثقلت كاهل الاقتصاد الروسي، إلا أن الخارجية الروسية زادت من نشاطها في الفضاء الإفريقي، وفي ذات الوقت زاد الاهتمام الإفريقي بتمتين علاقاته مع روسـيا، وليس أدل على ذلك من مواقف الكثير من الدول الإفريقية من الحرب الروسـية على أوكرانيا، في المحافل الدولية وبخاصة في الأمم المتحدة. فعلى سبيل المثال ومن أصل 54 دولة إفريقية،

صوَّتت 9 دول، في 7 أبريل/ نيسان 2022، ضد قرار بتعليق عضوية روسيا في مجلس حقوق الإنسان، وامتنعت 23 دولة عن التصويت، ولم تصوِّت 11 دولة (تغيبوا عن حضور الجلسة) وصوَّتت 11 دولة فقط لصالح القرار(8).

وتحقق العلاقات الروسية-الإفريقية مصالح مهمة لروسيا أصبحت مصالح حيوية بعد الحرب على أوكرانيا، وفي الوقت نفسه تحقق لبعض الدول الإفريقية فضلًا عن المصالح الكبرى مصالح حيوية بل ومصيرية أحيانًا.

أهداف ومصالح روسيا من علاقتها بالدول الإفريقية

تنوعت أهداف ومصالح السياسة الخارجية الروسية باتجاه إفريقيا، بل وتفاوتت كثافتها تبعًا لتطور التغييرات التي يراد ويخطط لها أن تحدث في النظام الدولي، فثمة أهداف ومصالح سياسية وأهداف ومصالح اقتصادية وأهداف ومصالح قومية.

- الدعم السياسي في المحافل الدولية

تستهدف الأنظمة الحاكمة في الدول عمومًا، والدول الكبرى بصفة خاصة، تمتين علاقاتها السياسية حول العالم، وهو ما يؤمِّن لها تأييدًا ودعمًا سياسيًّا في المحافل والمنظمات الإقليمية الدولية، فمثل هذا الدعم السياسي يزيد من قدرة الدولة على إمضاء إرادتها وفرض آرائها على المجتمع الدولي، فلولاه ما استطاعت الولايات المتحدة استصدار قرار في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بتعليق عضوية روسيا في مجلس حقوق الإنسان "United Nations Human Rights Council "UNHRC؛ حيث استطاعت حشد التأييد للقرار بأغلبية 93 صوتًا، ورفض 21 صوتًا، وامتناع 58 دولة عن التصويت، على الرغم من أن روسيا حينما استشعرت عدم قدرتها حشد التأييد لصالحها أفادت بأنها انسحبت من المجلس وعلَّقت عضويتها بنفسها قبل التصويت، وأعلنت على لسان مندوبها أن هذا القرار غير مشروع، وفيه مساس بحقوق دولة عظمى، وبحقها في إدارة علاقاتها الدولية، وبأن مجموعة من الدول احتكرت هذا المجلس وتستخدمه لتحقيق أغراضها، على الرغم من تورطها في انتهاكات خطيرة ضد حقوق الإنسان(9).

أما على مستوى التنظيمات الإقليمية، فقد استطاع "مجلس الاتحاد الأوروبي" تعليق

عضوية كل من روسيا وبيلاروسيا في "مجلس دول بحر البلطيق" Council of the Baltic Sea States، في الوقت الذي أخفقت واشنطن في إقناع الرئيس الإندونيسي، "جوكو ويدودو" Joko Widodo، بإخراج روسيا من "مجموعة العشرين" Group of Twenty "G20"، ودعا الرئيس الروسي "بوتين" لحضور القمة المقرر عقدها في "بالي" بإندونيسيا، في نوفمبر/ تشرين الثاني 2022، موجهًا الدعوة في الوقت نفسه للرئيس الأوكراني "فولوديمير زيلينسكي" Volodymyr Zelenskyy لحضور هذه القمة(10).

ومن المنظمات الدولية التي قد يظهر فيها أهمية الدعم السياسي الإفريقي لروسيا، "منظمة الأغذية والزراعة" "FAO" حيث تبذل أوكرانيا وداعموها جهودًا حثيثة لطرد روسيا من هذه المنظمة؛ الأمر الذي يؤكد مدى ثقل الكتلة التصويتية الإفريقية في محافل المنظمات الإقليمية والدولية.

- العوائد الاقتصادية

تعد إفريقيا وِجهة اقتصادية مزدوجة لكل الدول وبخاصة الدول الكبرى؛ فهي مصدر مهم للغذاءَ والمعادن والطاقة، كما أنها سوق كبيرة للمنتجات العالمية، فهي ثاني أكبر قارات العالم من حيث المساحة بعد آسيا؛ حيث تبلغ مساحتها ما يقارب 30.2 مليون كيلومتر مربع، تغطي حوالي 6٪ من إجمالي مساحة الأرض، وتشغل حوالي 20.4٪ من إجمالي مساحة اليابسة، وتتوفر هذه المساحة الهائلة على أخصب أنواع التربة، وتشهد أكبر تنوع مناخي حول العالم، ويعمل بالزراعة أكثر من ثلثي سكانها البالغ تعدادهم حوالي 1.25 مليار نسمة بما يعادل سدس البشر تقريبًا بتقديرات عام 2016؛ ومن هنا أصبحت إفريقيا بإنتاجها الزراعي الوافر والمتنوع بمنزلة سلة غذاء العالم(11).

وتتوفر القارة على الكثير من الثروات الطبيعية الاستخراجية، وتعد بمنزلة منجم العالم، ففيها ثلث الاحتياطي العالمي من المعادن، وأكبر احتياطي من المعادن الثمينة مثل الذهب والماس والكوبالت والبلاتين، بخلاف المعادن الأخرى كالنحاس والبوكسيت والليثيوم، واليورانيوم، والكروم، وغيرها، ولديها 40٪ من الذهب العالمي ويتوافر بكثرة في جنوب إفريقيا، وزيمبابوي، وشرق السودان، والماس في بتسوانا والكونغو

الديمقراطيــة وجنوب إفريقيا وليســوتو، والنحاس في زامبيا، والســودان، والكونغو الديمقراطية، وتتوفر غينيا كوناكري على حوالي ثلث احتياطي العالم من البوكسيت، ويتوافر اليورانيوم في ناميبيا والنيجر وجنوب إفريقيا ومالاوي(12).

ويبلغ الاحتياطي الإفريقي من النفط حوالي 15٪ من احتياطي العالم، ويمتاز النفط الإفريقي بخصائص تفضيلية على المســتوى العالمي؛ فهو من النوع الخفيف، سهل الاســتخراج والتكرير، ويبلغ الاحتياطي الإفريقي من الغاز الطبيعي حوالي 13٪ من الاحتياطي العالمي ويتركز في نيجيريا والجزائر وليبيا ومصر وأنغولا، وتتوفر إفريقيا على ما يقارب 50٪ من الطاقة الكهرومائية في العالم، كما تمتلك أكبر مســاحات العالم تعرضًا للطاقة الشمسية في الصحاري الإفريقية(13).

وعلــى الرغم مــن الموارد الطبيعية الإفريقية الهائلــة، إلا أن ما يتم إنتاجه منها يتم تصديره في الغالب إلى الخارج في صورته الأولية، وبنسبة تتخطي 62٪ من إجمالي الصــادرات الإفريقية، هذا بخــلاف أن الصناعات الإفريقية تعد الأقل تطورًا وجودة حول العالم، وهو ما يعنى اعتماد ســكان إفريقيا الذين يمثلون حوالي سدس سكان العالم في تلبية احتياجاتهم غير المحدودة والمتنامية باستمرار من السلع والخدمات على استيرادها من الخارج(14).

وإذا وضعنــا فــي الاعتبار أن الصناعات الإفريقية فــي مجال صناعة المعدات الثقيلة اللازمــة لكافــة القطاعات ضئيلة للغاية، وأن الصناعــات ذات التكنولوجيا المتطورة سواء في القطاع الزراعي أو الصناعي أو الاستهلاكي أو الخدمي تكاد تكون منعدمة، لتصورنا كيف أصبحت إفريقيا أكبر سوق استيرادية في العالم في كل المجالات، بما في ذلك بعض السلع الغذائية كالقمح.

- تعزيز المكانة الدولية

لقد أصبح من المؤكد أن النظام الدولي لن يستمر على الأحادية القطبية التي سادت ما بين أوائل تســعينات القرن الماضي وأواســط العقد الأول من القرن الحالي، ولم يعــد يخفــى على أحد تلك الحرب الاقتصادية التي تدور رحاها بين القوى العالمية التقليدية، وقد دخلت القوى الإقليمية الجديدة ســاحتها أيضًا، وفي مثل هذه البيئة الصراعيــة لن تعلو يد الدول إلا بتعزيز مكانتها في النظام الدولي، ولقد تأكد العالم

من أن إفريقيا بما تملكه من موارد، وما تمثله من سوق مفتوحة، وما تحظى به من مواقع إستراتيجية على خارطة الجغرافيا السياسية العالمية، باتت بهذه الإمكانيات السبيل الأمثل لتعزيز المكانة الدولية، فأصبحت مطمعًا لكافة الدول تسعى إليها باستخدام كافة الوسائل والأدوات الناعمة والصلبة الممكنة.

تكثيف الحضور الروسي في الفضاء الإفريقي

في أواسط القرن الماضي ونتيجة للفراغ الناشئ عن جلاء الاستعمار التقليدي عن القارة، استخدمت موسكو نظرية "الإخلاء" Evacuation أو "ملء الفراغ" Filling the Void، مدخلًا رئيسيًّا لـ"التغلغل الأيديولوجي" Ideological Penetration في إفريقيا، وفي أوائل القرن الحالي ونتيجة للفراغ الناشئ عن عدم إشباع الغرب للحاجات الإفريقية المتنامية، عادت روسيا إلى استخدام نفس النظرية، مقاربة رئيسية لاستعادة وتنمية علاقاتها مع الدول الإفريقية مستخدمة عددًا من الأدوات والمقاربات غير الأيديولوجية التي تلقى قبولًا بل وإقبالًا من كثير من الدول الإفريقية.

1- الأدوات العسكرية

في ظل تصاعد الصراعات والأزمات الداخلية في إفريقيا، وانتشار الظواهر التي تقوض الاستقرار والأمن كالإرهاب والجريمة المنظمة، تنامى الطلب على السلاح والأمن بين دول القارة، وهو ما تنبهت له الخارجية الروسية واتخذته مدخلًا لاستعادة وتمتين علاقاتها بدول القارة. وترتكز الأدوات العسكرية الروسية على ركائز ثلاث في تلبية الطلب الإفريقي:

- التسليح

في عام 2015 وحده، وقَّعت روسيا اتفاقيات تعاون عسكري مع أكثر من 20 دولة إفريقية، وتستحوذ الأسلحة الروسية في الوقت الراهن على حوالي 50٪ من سوق السلاح في إفريقيا، بما يقارب 31٪ من صادرات السلاح الروسي. ويرجع لجوء الدول الإفريقية إلى الأسلحة الروسية إلى عدة عوامل أبرزها عامل التكلفة، نظرًا لعدم قدرة الكثير من هذه الدول على تحمل تكاليف الأسلحة الغربية باهظة الثمن(15).

- قطع الغيار

اعتمد كثير من الجيوش الإفريقية على الأسلحة الروسية الثقيلة والخفيفة منذ الحقبة السوفيتية، فضلًا عن الحقبة الروسية، فبخلاف الأسلحة الحديثة لا يزال جانب كبير من الأسلحة القديمة في الخدمة، وهو ما يعني زيادة الطلب على قطع الغيار الروسية.

- الخبراء العسكريون

إذا كان السلاح الروسي ينتشر في أرجاء القارة بهذه الكثافة، فلا شك أن هذا الكم الهائل من الأسلحة يحتاج إلى استقدام الكثير من الخبراء العسكريين الروس، سواء للتدريب على الأسلحة أو صيانتها، ومن جانب آخر فإن غالبية الجيوش الإفريقية قد أنهكتها أو مزقتها الحروب والصراعات المسلحة الداخلية، وهى في أمسِّ الحاجة إلى خدمات التطوير والتدريب والتخطيط، وباعتبار أن أكثر السلاح روسي فبالضرورة تشتد الحاجة إلى خبراء روس(16).

- القوات المسلحة غير الرسمية

تستخدم روسيا ذراعًا عسكرية غير رسمية، تتمثل في جيش كبير من المقاتلين العسكريين المرتزقة، من خلال شركة "مجموعة فاغنر" Wagner Group، وهي شركة أمنية خاصة وثيقة الصلة بوكالة الاستخبارات العسكرية الخارجية التابعة لهيئة الأركان العامة للقوات المسلحة الروسية GRU، وقد نشرت هذه القوات في مهام متعددة في بعض الدول الإفريقية(17).

2- الأدوات الاقتصادية

تأتي الأدوات الاقتصادية في المرتبة الثانية بعد الأدوات العسكرية، ضمن الأدوات التي تعتمد عليها روسيا في تمتين علاقاتها بإفريقيا، لأسباب عدة أهمها عدم قدرة الاقتصاد الروسي على اقتحام سوق التجارة الإفريقية الراسخة لزمن بعيد نسبيًّا مع الغرب ومع الصين، لاسيما مع دخول القوى الاقتصادية الصاعدة مثل الهند والبرازيل وتركيا على خط المنافسة، ومع ذلك فقد تطورت العلاقات التجارية بين روسيا وإفريقيا على النحو التالي:

جدول يبين تطور التبادل التجاري بين روسيا وإفريقيا خلال السنوات 2016-2021 من البضائع غير العسكرية والقيم بالمليار دولار

السنة البيان	سنة 2016	سنة 2017	سنة 2018	سنة 2019	سنة 2020	سنة 2021
واردات روسيا من البضائع الإفريقية	1.465034	1.720490	1.801464	1.740407	1.527491	1.339242
صادرات روسيا من البضائع إلى إفريقيا	8.383972	10.450664	12.192118	10.940657	8.962026	11.059405

المصدر: الجدول من إعداد الباحث استنادًا إلى إحصائيات مركز بيانات مؤتمر الأمم المتحـــدة للتجارة والتنمية "أونكتاد" United Nations Conference on Trade and Development "UNCTAD"، على موقعها الإلكتروني، (تاريخ الدخول: 25 فبراير/ شباط 2022)، على الرابط: https://unctadstat.unctad.org/wds/ReportFolders/reportFolders.aspx

- التبادل التجاري

تزايد التبادل التجاري من السلع غير العسكرية بين روسيا وإفريقيا في السنوات الست الأخيرة بدرجة كبيرة باســتثناء السنتين الأخيرتين متأثرًا بتفشي جائحة "كوفيد-19"، وذلك بحسب إحصائيات مركز بيانات مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية "أونكتاد" "UNCTAD"، ويبين الجدول السابق مدى تطور التبادل التجاري بين روسيا وإفريقيا خلال السنوات 2016-2021 من البضائع غير العسكرية.

وبلغــت الصادرات الروســية إلى إفريقيا عــام 2019 حوالي 25 مليار دولار وهو ما صرَّح به الرئيس "بوتين"، كما صرَّح أيضًا في القمة الروســية الإفريقية الأخيرة بأن روسيا تتطلع إلى مضاعفة حجم التبادل التجاري مع إفريقيا خلال السنوات الخمس القادمة(18).

ويعد القمح الروسي من أكبر وأهم السلع الغذائية تصديرًا إلى إفريقيا حيث تستورد إفريقيا حوالي ربع احتياجاتها من القمح من روسيا وحدها وبلغت واردات إفريقيا من القمح الروسي، عام 2020، حوالي 3.5 مليارات دولار غير أن هذه القيم قد تأثرت سلبيًّا بالحرب الروسية على أوكرانيا(19).

وتركز روسيا في علاقاتها مع الدول الإفريقية على تجارة الأسلحة والمعدات العسكرية؛ حيث تزايدت صادراتها العسكرية إلى إفريقيا بين عامي 2000-2019 من 7 مليارات إلى 15 مليار دولار(20).

- الاستثمار المباشر

اعتمدت روسيا في الآونة الأخيرة في مدِّ جسور التعاون مع إفريقيا على ضخ مليارات الدولارات في الاقتصادات الإفريقية في صور مشروعات استثمارية تقوم بها شركات عملاقة حكومية وخاصة، ويأتي في مقدمة الاهتمامات الروسية في إفريقيا، الاستثمار في مجالات استخراج البترول والغاز والتعدين والطاقة، والأبحاث الجيولوجية بالإضافة إلى مشاريع البنية التحتية، ومن أهم الشركات الروسية التي تستثمر في مجال البترول والغاز الطبيعي: "غاز بروم"، و"روزنفت"، و"لوك أويل"، و"تات نفت"، و"سترويترانس غاز"، وتقوم هيئات تابعة لمؤسسة الطاقة الذرية الروسية "روس آتوم" بمشروعات استخراج اليورانيوم، وتقوم شركة "روسال" الروسية بأغلب مشروعات التعدين في القارة(21).

3- الأدوات التكنولوجية

تمتلك روسيا تكنولوجيا متطورة في عدة مجالات، أهمها: الطاقة النووية، والتصنيع العسكري، وتكنولوجيا الفضاء، والأمن السيبراني، وتسعي روسيا جاهدة من خلال التكنولوجيا الحديثة لتلبية الطلب الإفريقي المتنامي في هذه المجالات، غير أن عوائق عديدة تواجه الطموح الروسي-الإفريقي أهمها قضية التمويل عالي التكلفة لمثل هذه المشروعات(22).

4- الأدوات الدبلوماسية

تمثل الأدوات الدبلوماسية الركيزة الأساسية في تمتين العلاقات بين الدول، والتي تنطلق منها وتستند إليها الأدوات الأخرى، ويعد التمثيل الدبلوماسي، والزيارات الثنائية رفيعة المستوى المتبادلة، ومؤتمرات القمة الجماعية من أهم الأدوات الدبلوماسية، وقد استخدمت روسيا هذه الأدوات بكثافة في سبيل تمتين علاقاتها بإفريقيا.

- التمثيل الدبلوماسي

تقيم روسيا علاقات دبلوماسية مع 44 دولة إفريقية من أصل 54 دولة مستقلة؛ حيث افتتحت روسيا 41 سفارة في العواصم الإفريقية، في الوقت الذي تستضيف فيه 42 سفارة إفريقية، بينما افتتحت روسيا 7 قنصليات في إفريقيا، واستضافت 9 قنصليات إفريقية، ولدولتين إفريقيتين سفارتان في أوروبا معتمدتان لدى روسيا(23)، وأوشكت روسيا على الحصول على عضوية الاتحاد الإفريقي، ففي أعمال الاتحاد البرلماني الإفريقي المنعقدة بزيمبابوي، في الفترة من 5-10 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022، تمت الموافقة بالإجماع على منح روسيا عضوية الاتحاد البرلماني الإفريقي بصفة مراقب، ولم يتبق إلا تقديم طلب رسمي من روسيا إلى رئيس مفوضية الاتحاد الإفريقي، ليقوم بدراسة الطلب بناء على مبادئ وأهداف القانون التأسيسي للاتحاد الإفريقي(24).

- الزيارات الثنائية

على قلة الزيارات الخارجية للرئيس الروسي "بوتين" حظيت إفريقيا بعدة زيارات، ثلاث منها في عهده الأول في الرئاسة الروسية، وكانت في عام 2006، إلى الجزائر ثم جنوب إفريقيا ثم المغرب، وواحدة في عهده الثاني، وكانت في عام 2017، إلى مصر، فيما زار الكثير من الرؤساء الأفارقة موسكو، كما زارها الرئيس "ماكي سال" بصفته الرئيس الحالي للاتحاد الإفريقي(25). أما على المستوى الوزاري فقد تعددت الزيارات المتبادلة بين موسكو والعواصم الإفريقية، وكان أهمها -بعد 6 أشهر على اندلاع الحرب الروسية على أوكرانيا- جولة وزير الخارجية الروسي "سيرغي

لافـروف"، نهايـة يوليو/ تموز 2022، والتي زار فيها أربـع دول إفريقية، هي: مصر والكونغو وأوغندا وإثيوبيا(26).

- مؤتمرات القمة الجماعية

منذ عام 2018، بدأت الخارجية الروسية في الاستعداد لتفعيل دبلوماسية المؤتمرات، فدعت إلى عقد مؤتمر قمة ومنتدى اقتصادي يجمعان بصفة دورية القيادة الروسـية بالقـادة الأفارقـة، من أجل التباحث حول قضايا الاهتمام والتعاون الاقتصادي، وقد عُقـدت اجتماعـات القمة الروسـية-الإفريقية الأولى بالتزامن مـع أعمال المنتدى الاقتصادي "الروسـي- الإفريقي" الأول، في أكتوبر/ تشـرين الأول، عام 2019، في مدينة "سوتشي" الروسية، وترأس القمة الرئيسان، الروسي فلاديمير "بوتين" المضيف، والرئيس المصري "عبد الفتاح السيسـي" بصفتـه رئيس الاتحاد الإفريقي في حينه، وحضر القمة عشرات من رؤساء الدول والحكومات والوزراء وكبار المسؤولين من 43 دولة إفريقية، وتنعقد النسخة الثانية للقمة والمؤتمر بالتزامن أيضًا في صيف 2023 بمدينة سان بطرسبرج الروسية(27).

5- الأدوات الثقافية والإعلامية

اكتسـبت الأدوات الثقافيـة والإعلامية أهمية كبيرة في العلاقـات الدولية، في ظل التطور الهائل في وسـائل الاتصال ونشـر المعلومات، وبخاصة مع انتشـار مواقع التواصـل الاجتماعي التي اجتاحت العالم ووصلت إلى جل البشـر، وبات تأثيرها سريعًا وشديدًا.

ففي المجال الثقافي، عادت روسـيا إلى سابق عهدها من استضافة الطلاب الأفارقة للتعليم في جامعاتها بشروط ميسرة وبمنح كاملة أو جزئية، وفي ذات الوقت توسعت في نشر المراكز الثقافية في العواصم الإفريقية.

وفي مجال الإعلام التقليدي، توسـعت روسيا في إطلاق محطات تليفزيونية فضائية ومواقع إخبارية بلغات أجنبية بعضها بلغات إفريقية محلية، فضلًا عن تدشـين عدة مراكز بحثية روسية متخصصة في الشؤون الإفريقية أطلقت هي الأخرى مواقعها على شبكة المعلومات الدولية.

أما عن الإعلام الجديد ومواقع التواصل الاجتماعي، فإن روسيا تستخدمها، وبخاصة "فيسبوك" Facebook، و"تويتر" Twitter، في توجيه الرأي العام الإفريقي في الدول محل الاهتمام(28)ز

استجابة الدول الإفريقية للتقارب الروسي

استجابت عدة دول إفريقية بدرجات متفاوتة للتقارب الروسي، واللافت أن الاستجابة لم تقتصر على دول إقليم معين إنما جاءت من كل الأقاليم الإفريقية، وكأن الفراغات التي تركها التجاهل الغربي المتعمَّد للمطالب الإفريقية عمَّت أرجاء القارة. وقد أسهمت عدة أسباب في تقبل الدول الإفريقية لعودة وتمتين علاقاتها مع روسيا، بل وسعي بعضها إلى ذلك، ومن أهم هذه الأسباب:

- التعاون غير المشروط سياسيًّا

دأب الغرب على إلزام الدول الإفريقية بتحقيق حزم من المشروطيات، التي تكفل فرض القيم الغربية على المجتمعات الإفريقية على الأصعدة: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، فعلى الصعيد السياسي يشترط الغرب تبني المقاربة الديمقراطية، وتحقيق عناصرها ومعاييرها وفقًا للنموذج الغربي؛ كالتنافسية السياسية، والتعددية الحزبية، والانتخابات، وتداول السلطة، وكفالة واحترام حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وغير ذلك من القيم الديمقراطية، وعلى الصعيد الاقتصادي يشترط الغرب تبني المقاربة الرأسمالية بأدواتها وآلياتها المختلفة، وعلي الصعيد الثقافي يشترط الغرب نشر ثقافاته: كحرية المرأة والحرية الجنسية، والتحلل من جل القيم الدينية وبعض القيم المجتمعية، عن طريق ربط ذلك بكافة أشكال التعاون وبخاصة القروض والاستثمارات والمساعدات والمنح(29).

أخفقت هذه الشروط ولم تؤت ثمارها، سواء في مجال الإصلاح السياسي، أو في مجال التنمية سواء الاقتصادية أو المجتمعية، لعدة أسباب أبرزها قدرة الأنظمة الإفريقية الحاكمة على التحايل على هذه الشروط وتخطيها، فضلًا عن الانتقائية والازدواجية الغربية في المعايير، وغضِّ الطرف عن عدم تطبيقها إذا كان تطبيقها يصطدم بالمصالح الغربية، ومع ذلك تفضل الأنظمة الحاكمة الإفريقية عدم وجود

هذه الشروط؛ لأن اشتراطها وتخطيها ولو شكليًّا، يكلفهم الكثير من الأموال، ويضع بعض القيود على سياساتهم(30).

ومن هنا، استغلت روسيا تفضيلات أولئك الحكام واتخذت التماهي مع رغباتهم مدخلًا ووسيلة لمد جسور التعاون معهم، واستعادة النفوذ الروسي في إفريقيا، وقد لاقى هذا المسلك الروسي استحسانًا وقبولًا في الأوساط السياسية الإفريقية، ووجدت الأنظمة وبخاصة الاستبدادية ضالتها في الحصول على الدعم الخارجي غير المشروط من حليف قوي له مكانته في النظام الدولي، ولديه بدائل لا بأس بها عند التخلص من السيطرة الغربية.

- تقديم عقود وعروض اقتصادية أكثر سخاء وأقل إجحافًا مما يقدمه الغرب

في ظل الاستعمار الغربي لإفريقيا احتكرت الشركات الغربية العملاقة الموارد الطبيعية الإفريقية، وكانت حينئذ تفرض شروطًا تعاقدية مجحفة تجعلها المستفيد الأكبر من عوائد استغلال هذه الموارد، ومع ولوج القوي الاقتصادية الشرقية الناشئة الأسواق الاستثمارية إبان مرحلة الحرب الباردة، بدأت مرحلة جديدة من التنافس الاستثماري الذي مكَّن الأفارقة من التخفف نسبيًّا من الشروط التعاقدية الغربية الجائرة، إلا أن انهيار الاتحاد السوفيتي أدى إلى خفوت هذه المنافسة وبخاصة في مرحلة الأحادية القطبية التي أعقبت انتهاء الحرب الباردة مطلع تسعينات القرن العشرين.

ومع تواتر اكتشاف الموارد الطبيعية الهائلة في إفريقيا أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الجاري، ودخول النظام الدولي مخاضًا جديدًا يبشر بانتهاء مرحلة الأحادية القطبية، وتسارع الخطى الروسية على مسار العودة إلى الفضاء الإفريقي، اشتعلت المنافسة على الموارد الإفريقية؛ ما دفع الشركات الروسية إلى تقديم عروض استثمارية أكثر سخاء، وشروط تعاقدية أقل إجحافًا مما يقدمه الغرب، لاقتناص الفرص الاستثمارية الجديدة؛ وهو الأمر الذي يصب في نهاية المطاف في صالح الدول الإفريقية؛ إذ يعظِّم من عوائد مواردها الطبيعية.

- الدفع غير المحدود بالخبراء والقوات شبه العسكرية

يُحجم الغرب عن الدفع بالعنصر البشري لتلبية الطلب الإفريقي في المجال العسكري، سواء على مستوى الخبراء، أو على مستوى القوات العاملة، وهو ما يتضح جليًّا من

ضآلة المشاركة الأوروبية في الحرب على الإرهاب في إقليم الساحل وغرب إفريقيا، وانسحاب وسحب القوات الفرنسية من مالي، وتقليص أعدادها وتحجيم مهامها في دول أخرى، وانسحاب القوات الأميركية من الصومال في عهد الرئيس الأميركي "دونالد ترامب" Donald Trump، وعودتها بمقاربة محددة ومحدودة في عهد خلفه "جو بايدن" Joe Biden.

وفي المقابل، لا نجد أي تحفظات روسية على تلبية الطلب الإفريقي في المجال العسكري على مستوى الخبراء العسكريين النظاميين، أو القوات العسكرية العاملة غير النظامية من قوات "مجموعة فاغنر" السابق الإشارة إليها، وهو ما حدا بدول إفريقية عدة إلى طلب الدعم العسكري الروسي وبخاصة في مجال مكافحة التنظيمات الإرهابية وحفظ الأمن وحماية الأنظمة الحاكمة والمنشآت.

- فجوات الطلب في السوق الإفريقية

تسعى المقاربات الغربية في التعامل مع الدول الإفريقية، إلى خلق فجوات ممنهجة في الطلب الإفريقي على السلع والخدمات، من أجل التحكم في السوق الإفريقية، نتيجة الاحتكار الغربي لجل السلع والخدمات الإستراتيجية والحيوية، وهو ما يمكن اعتباره ضربًا من ضروب الإدارة بالحاجة.

وقد خلَّفت هذه المقاربة فراغات انتهزتها القوى الصاعدة وفي مقدمتها روسيا، واتخذتها مدخلًا لولوج السوق الإفريقية، وقد ساعدها في ذلك من ناحية أولى ما حققته مؤخرًا من تطور تكنولوجي ونمو اقتصادي، ومن ناحية ثانية ما شهده الفضاء الإفريقي من تنامي الرغبة في التخلص من السيطرة والاستحواذ الغربي، والتخفيف مما يفرضه من قيود وشروط ضاقت بها النخب والشعوب، وناءت بها ميزانيات الدول، وبخاصة في ظل تفاقم الأزمات العالمية الاقتصادية والصحية التي أثَّرت على أداء الحكومات، وأعجزت الكثير منها في دول الجنوب وفي مقدمتها الدول الإفريقية.

6- مظاهر الاستجابة

ولقد أدت هذه العوامل إلى تنامي الاستجابة الإفريقية للتقارب الروسي على نطاق واسع، ومن أهم مظاهر هذه الاستجابة التنوع والتوسع في مجالات التعاون والتي

قد لا يتسع المقام لحصرها، لذا نكتفي برصد بعض الحالات في الأقاليم الإفريقية الخمسة.

- إقليم شمال إفريقيا

في الشـــمال الإفريقي، تعـــد الجزائر الحليف الدائم لروســـيا الاتحادية؛ فالعلاقات التعاونية الوطيدة بيتهما امتدت دون انقطاع منذ الحقبة الســـوفيتية وحتى الآن، ولقد تطـــورت هذه العلاقات بصورة لافته منذ زيارة الرئيس "بوتين" للجزائر، عام 2006، حيث تمخضت عن عدة اتفاقيات كان أهمها شـــطب الديون الجزائرية بمقدار 4.7 مليارات دولار مقابل شـــراء الجزائر منتجات روســـية بقيمة هذه الديون، ومن حينها يعمل الجانبان نحو الوصول بعلاقاتهما إلى مستوى الشراكة الإستراتيجية.

وتتنوع مجالات التعاون الروســـي-الجزائري، ويأتي في مقدمتها التعاون العسكري، يليه التعاون في مجالي الطاقة والاتصالات:

ففي المجال العسكري، يعتمد الجيش الجزائري بدرجة كبيرة على السلاح الروسي، ومـــن ثم فالحاجة إلى التعاون العســـكري مع روســـيا تعد ضـــرورة ملحَّة وبصورة مســـتدامة؛ ففي عام 2006 وعلى إثر اتفاقية شطب الديون الجزائرية اشترت الجزائر سلاحًا روسيًّا بقيمة 7.5 مليارات دولار، وتضمنت الصفقة: 36 مقاتلة حربية من طراز "ميج 29 س.م.ت"، و28 مقاتلة من طراز "ســـوخوي 30"، و14 طائرة تدريب قتالي مـــن طـــراز "ياك 130"، و8 بطاريات دفاع جوي طراز "إس 300"، ومضادات دبابات طراز "ميتيس" و"كورنيت"، و 300 دبابة من طراز "تي 90"، وتحديث 36 مقاتلة طراز "ميج 29"، وتحديث 250 دبابة طراز تي 72، فضلًا عن صيانة القطع الحربية البحرية، فضلًا عن التدريب على هذه الأسلحة جميعًا(31).

وتُجري الجزائر مفاوضات مع روســـيا حول إبرام اتفاقية إطارية بشـــأن الإمدادات العسكرية للسنوات العشر القادمة، وأنها سوف توقع عقدًا ضخمًا مع روسيا لتوريد أسلحة بقيمة تتراوح ما بين 12 و17 مليار دولار، وتفيد هذه المعلومات بأن الجزائر تســـعى بموجب هذه الصفقة إلى الحصول على غواصات متطورة، وطائرات "سو-57" و"ســـو-34" و"ســـو-30"، إضافة إلى أنظمة الدفاع الجوي الجديدة، مثل "إس-400"، و"فايكنـــج"، و"أنتيي-4000"، وبهذه الصفقة تصبح الجزائر ثالث أكبر الدول

شراء للسلاح الروسي، ويأتي ذلك بالتزامن مع الحديث عن زيادة الميزانية العسكرية الجزائرية لعام 2023 لتبلغ 22.6 مليار دولار، وهو ما سيجعلها الميزانية العسكرية الأكبر في إفريقيا(32).

ولا يقتصر التعاون العسكري بين الجزائر وروسيا على شراء السلاح، بل تطمح الجزائر إلى نقل تكنولوجيا التصنيع العسكري الروسية، وهو ما صرَّح به "فيكتور كوماردين"، نائب المدير العام لشركة "روس أوبورون إكسبورت" الروسية التي تدير صادرات الأسلحة الروسية عام 2011، على هامش انعقاد معرض "ماكس" MAKS للطيران في مدينة "زوكوفسكي" Zhukovsky الروسية(33).

وفي مجال الطاقة، هناك شراكة بين شركة "سوناطراك" الجزائرية (51٪) وشركة "غاز بروم" الروسية (49٪) في مجال تطوير موارد الغاز المكتشفة على مستوى حقول "غرد السايح" و"غرد السايح شمال" عبر 24 بئرًا جديدة، كما تم تدشين وحدة المعالجة لإنتاج الغاز الطبيعي، ومن المنتظر دخول هذا المشروع حيز الإنتاج خلال عام 2025(34).

وعلى جانب آخر، يرتبط البلدان بعدد من مذكرات التفاهم واتفاقيات التعاون في مجال الطاقة النووية المدنية، يجري الحديث في الآونة الأخيرة عن اعتزامهما بناء محطة نووية للاستخدامات السلمية في الجزائر(35).

أما في مجال النقل تقوم شركة "السكك الحديدية الروسية" Russian Railways ببناء شبكة جديدة من خطوط القطارات في الجزائر، وفي مجال الفضاء تعاون البلدان في إطلاق القمر الصناعي الجزائري "ألسات 1" AlSAT-1 من قاعدة "بلِستسك" Plesetsk الروسية(36).

- إقليم شرق إفريقيا

لطالما كان للاتحاد السوفيتي السابق نفوذ كبير في منطقة القرن الإفريقي وشرق إفريقيا، غير أن هذا النفوذ سرعان ما تراجع في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي، فسارعت الولايات المتحدة إلى ملء الفراغ وبناء تحالفاتها في هذه المنطقة الأكثر أهمية في إفريقيا فأخضعتها لسيطرتها، غير أن روسيا ما انفكت تراود قادة دول المنطقة، حتى حققت بعض التقارب معهم؛ ما أقلق الغرب وعدَّه كثير من كتَّابه

اختراقًا روسـيًّا لمنطقة كانت قد تحولت إلى منطقة نفوذ غربي، وتعد حالتا إثيوبيا والسودان أبرز حالات المنطقة.

ففي الحالة السودانية، ومذ زار الرئيس السابق، عمر البشير، موسكو، يجري التعاون بين البلدين على قدم وساق في عدة مجالات، في مقدمتها التعدين والتعاون العسكري، ففي مجال التعدين حصلت شـركة "إم إنفست" M-INVEST الروسية على وصول تفضيلي إلى احتياطيات الذهب في السـودان، وتم نشـر أفراد من "فاغنر" في مواقع التنقيب عن الذهب، وفي المجال العسكري تم توقيع عدة اتفاقيات لشراء الأسلحة الروسية، والتدريب العسكري، وتبادل الخبرات، ودخول السفن الحربية إلى الموانئ، وتم توقيع اتفاق في عهد البشـير يسـمح للبحرية الروسية بإقامة قاعدة عسكرية في مدينة بورتسـودان الإستراتيجية المطلة على البحر الأحمر، تحتفظ بها موسكو لمدة 25 عامًا تتجدد تلقائيًّا لمدة 10 سنوات ما لم يعترض أي من الجانبين، غير أن هذه الاتفاقية لم تدخل حيز التنفيذ، ولا تزال بعد سقوط البشير محل أخذ ورد في مناورة مكشوفة يقوم بها جنرالات السودان بين روسيا والولايات المتحدة(37).

وفي الحالة الإثيوبية، بذلت روسيا خلال العقد الماضي جهودًا كبيرة لتعزيز وجودها فـي إثيوبيـا؛ حيث ألغت ديونًا على إثيوبيا تقدر بملايـين الدولارات، ودعمتها في اجتماعات الأمم المتحدة في قضايا مثل سد النهضة والصراع في "تيغراي" Tigray، وفـي أول فرصـة لاحت نتيجة توتر العلاقة بين نظـام "آبي أحمد" Abiy Ahmed الإثيوبي وواشـنطن، أبرمت روسـيا مع "آبي"، على هامش القمة الروسية-الإفريقية "سوتشي 2019"، عدة اتفاقات لتعزيز التعاون العسكري، وزيادة المبيعات العسكرية الروسية إلى "أديس أبابا"، التي تسلمت بموجبها منظومة الدفاع الصاروخي "بانتسير-إس1" Pantsir-S1، وذلك في إطار عملية شـاملة تسـتهدف تحديث قدرة الجيش بالسلاح والمهارات والتكنولوجيا والمعارف، كما تم الاتفاق بين الطرفين على بناء محطة للطاقة النووية في إثيوبيا(38).

- إقليم وسط إفريقيا

تطمح روسيا إلى التوغل في إقليم وسط إفريقيا وإحياء علاقاتها التاريخية بعدد من دول الإقليم، فبعد أن وطدت علاقاتها مع إفريقيا الوسـطي وأنغولا، توجهت نحو

الكونغو برازفيل التي كانت ثاني محطات وزير الخارجية الروسي الإفريقية في يوليو/ تموز الماضي.

ففي إفريقيا الوسطى، كان الفتور الفرنسي في تلبية طلب الرئيس "فوستان آرشانج توادیرا" برفع حظر استيراد السلاح عن بلاده وتزويدها بالأسلحة والمعدات العسكرية اللازمة لفرض الاستقرار وحماية المدنيين، سببًا في تمكين روسيا من ولوج هذا البلد، فقد اقترحت فرنسا إرسال 1400 بندقية من طراز (AK-47) استولت عليها البحرية الفرنسية أثناء عمليات مكافحة القرصنة قبالة سواحل الصومال، إلا أن روسيا استخدمت حق النقض في مجلس الأمن الدولي تجاه الفكرة الفرنسية بحجة أنه لا يمكن استخدام الأسلحة المصادرة أثناء عملية حظر الأسلحة وتوجيهها لأغراض أخرى، وعرضت موسكو بدلًا من ذلك التبرع بأسلحة خفيفة لجمهورية إفريقيا الوسطى، وهو الاقتراح الذي حظي بموافقة جميع أعضاء المجلس، وسرعان ما تحول التبرع الروسي المحدود بالأسلحة الخفيفة إلى وجود أمني فعال، تطور إلى سيطرة روسية كاملة على جميع المهام الأمنية المهمة في إفريقيا الوسطى بما في ذلك حراسة الرئيس "توادیرا" والقصر الرئاسي في العاصمة "بانجي" Bangî(39).

ومما يعكس حجم التغلغل الروسي في إفريقيا الوسطي تعيين "فاليري زاخاروف" Valery Zakharov ضابط المخابرات الروسي السابق، في منصب مستشار الأمن القومي للرئيس، وتوقيع اتفاقيات تعاون عسكري، وافتتاح مكتب لتمثيل وزارة الدفاع الروسية في العاصمة "بانجي"، وسيطرة روسيا على مناطق واسعة تحتوي على مناجم للماس والذهب واليورانيوم، ويجري التباحث حاليًا حول السماح لروسيا ببناء قاعدة عسكرية في إفريقيا الوسطي(40).

أما عن أنغولا، فقد أبرمت حكومتها مع روسيا عدة اتفاقيات لتوريد أسلحة ومعدات حربية بمبلغ مليار دولار، بما في ذلك توريد قطع غيار لأسلحة سوفيتية الصنع وتزويد الجيش الأنغولي بالأسلحة الخفيفة والذخائر والدبابات والمدافع ومروحيات "مى 17"، كما اتفق الجانبان على بناء معمل لصنع الذخائر في أنغولا بمساعدة الخبراء الروس، فضلًا عن توريد مقاتلات "سوخوي-30 كا" سابقة الخدمة في سلاح الجو الهندي، وبهذا تحولت أنغولا إلى أحد أهم شركاء روسيا في إفريقيا(41).

وبالنسبة للكونغو برازفيل، حيث يعمل بها عدة شركات مدنية روسية، وتستضيف

خبراء عسكريين يتولون التدريب على استخدام وصيانة وإصلاح السلاح والعتاد الروسي في الجيش الكونغولي بما في ذلك المدرعات والمدفعية والمروحيات، فقد كانت ثاني محطات زيارة وزير الخارجية "لافروف" الإفريقية الأخيرة، وهي أول زيارة يقوم بها وزير خارجية روسي أو سوفيتي لـ "برازفيل"، وفيها التقى نظيره الكونغولي "جان كلود جاكوسو" Jean-Claude Gakosso، ورئيس البلاد "دينيس ساسو نجيسو" Denis Sassou Nguesso، وتباحثوا حول توسيع آفاق التعاون في المجالات العسكرية، بما في ذلك توريد أسلحة روسية جديدة للجيش الكونغولي، فضلًا عن المجالات الاقتصادية والتقنية والصحية(42).

- في الإقليم الجنوب إفريقي

تحتفظ روسيا بإرث تعاوني كبير، يستند إلى الدعم السوفيتي لحركات التحرر الوطنية والنضال ضد العنصرية في عدة دول، مثل جنوب إفريقيا، وموزمبيق، وزيمبابوي، وناميبيا، وتسعى روسيا لاستعادة مكانتها ونفوذها في هذا الإقليم عبر تمتين علاقاتها بهذه الدول.

كانت العلاقات التعاونية بين روسيا وجنوب إفريقيا تتركز على الأحزاب والحركات التحررية لكنها امتدت إلى المستوى الرسمي بعد رحيل نظام الفصل العنصري، وقد عبَّر "نيلسون مانديلا" Nelson Mandela عن امتنانه للروس خلال المؤتمر الوطني الأول لحزب "المؤتمر الوطني الإفريقي"، في يوليو/ تموز 1991، بعد رفع الحظر عنه، حينما صرَّح قائلًا: "بدون دعمكم، لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه الآن"، ومن بين رؤساء ما بعد الفصل العنصري كان قد تلقى "ثابو مبيكي" Thabo Mbeki و"جاكوب زوما" Jacob Zuma تدريبات عسكرية في مرحلة الفصل العنصري في الاتحاد السوفيتي، بينما صرَّح الرئيس الحالي "سيريل رامافوزا" Cyril Ramaphosa بشأن نتائج القمة الإفريقية-الروسية الأولى "سوتشي 2019" قائلًا إنها فاقت توقعاته، وشهد المنتدى الروسي-الإفريقي موجة ثانية من الدعم الروسي، ولكن هذه المرة موجهة نحو النمو الاقتصادي لإفريقيا(43)، ولم تعلن جنوب إفريقيا أية إدانة للحرب الروسية على أوكرانيا.

في مجال التجارة البينية، صدَّرت روسيا، عام 2020، ما قيمته 506 ملايين دولار إلى جنوب إفريقيا، وكانت المنتجات الرئيسية الأسلاك النحاسية (169 مليون

دولار) والقمـــح (117 مليـــون دولار) والبترول الخـــام (42.3 مليون دولار)، وقد زادت صادرات روسيا إلى جنوب إفريقيا من 35.2 مليون دولار في عام 1995 إلى 506 ملايين دولار في عام 2020، بمعدل زيادة ســـنوي قدره 11.3٪، بينما صدَّرت جنوب إفريقيا، عام 2020، ما قيمته 587 مليون دولار إلى روسيا، وكانت المنتجات الرئيسية خام المنغنيز (135 مليون دولار) والحمضيات (127 مليون دولار) والتفاح والكمثرى (70.8 مليون دولار). وقد زادت صادرات جنوب إفريقيا إلى روسيا من 64.9 مليون دولار في عام 1995 إلى 587 مليون دولار في عام 2020، بمعدل زيادة سنوي قدره 9.21٪(44).

وفي مجال الاســـتثمار المباشـــر، تمتلك جنوب إفريقيا استثمارات تقدر بحوالي 77 مليـــار راند (حوالي 4.5 مليارات دولار) في روســـيا، في حين تقدر الاســـتثمارات الروسية في جنوب إفريقيا بحوالي 23 مليار راند (حوالي 1.35 مليار دولار)(45).

أما في مجال الطاقة، فقد عرضت "موسكو" على "بريتوريا" Pretoria، في عام 2015، بناء وتشـــغيل ما يصل إلى ثماني محطـــات للطاقة النووية بتكلفة تصل إلى تريليون راند (حوالي 66 مليار دولار أميركي في حينه)، وقد مارســـت روســـيا وإدارة رئيس جنـــوب إفريقيا "جاكوب زوما" ضغوطًا علـــى حكومة جنوب إفريقيا للالتفاف على قوانيـــن المشـــتريات وتمرير الصفقة، ووصلت هذه الضغـــوط إلى درجة إقالة وزير المالية الجنوب إفريقي آنذاك "نهلانهلا موســـى نيني" Nhlanhla Musa Nene، إلا أن القضاء ألغى هذه الصفقة في أبريل/ نيسان 2017(46).

– في إقليم الساحل وغرب إفريقيا

تســـعى روسيا لأن تضع أقدامها على شواطئ الأطلسي، ولا سبيل لديها إلى تحقيق هـــذا الهدف إلا عبر دول الســـاحل وغرب إفريقيـــا، وقد تضافرت عدة عوامل على تيســـير هذه المهمة على روســـيا، في مقدمتها انكماش فرنســـا في هذه المنطقة التي تعـــد منطقة نفوذ تقليدية لها، وفـــي ذات الوقت إحجام الولايات المتحدة عن تلبية الطلـــب الإفريقي المتزايد لمكافحة الإرهـــاب والجريمة المنظمة. وبالجملة، إخفاق الغرب عمومًا في تلبية هذه المطالب الأمنية، واســـتعداد الروس غير المحدود لملء هذا الفراغ الكبير، وبالفعل وجدت هذه المساعي استجابة لدي بعض أنظمة المنطقة.

يرجع التعاون العسكري بين مالي وروسيا إلى الحقبة السوفيتية بعد الاستقلال عن فرنسا، عام 1960، في عهد الرئيس الأول "موديبو كيتا" Modibo Keïta وكان اشتراكي التوجه، أما في العصر الحالي فقد مرَّ عقد من الزمان أخفقت فيه فرنسا وحلفاؤها الغربيون منذ بداية التدخل العسكري، في عام 2013، في القضاء على متلازمة الإرهاب وعدم الاستقرار التي اجتاحت المجتمع في مالي؛ ما أثر سلبًا على الأداء الحكومي، فانتهى المطاف السياسي غير المستقر إلى انقلابين عسكريين متتاليين قادهما العقيد "آسمي جويتا"، عامي 2020 و2021، ليقود البلاد بحكومات انتقالية ناصبت فرنسا العداء علنًا(47).

وقد فتحت هذه التحولات السياسية في ظل الإخفاقات الفرنس-غربية المجال واسعًا للولوج الروسي الكثيف إلى مالي من المدخل العسكري والأمني، وقدمت روسيا دعمًا عسكريًّا لمالي يشمل تعزيز القدرات الاستطلاعية والهجومية بطائرات "L39" المقاتلة و"سوخوي 25"، للعمل جنبًا إلى جنب طائرات "سوبر توكانو" وطائرات أخرى مستخدمة بالفعل من قبل، بالإضافة إلى مروحيات هجومية من طراز "MI24P" وطائرات "MI 35" و"MI24" تسلمها الجيش المالي مؤخرًا دون الكشف عن أي معلومات تتعلق بشروط الحصول على هذه المعدات، كما استقبلت مالي وبأعداد كبيرة من يصفهم المجلس العسكري بأنهم "مدربون" روس لدعم للجيش، فيم تتحدث كل التقارير الغربية عن وجود كثيف لمجموعة "فاغنر" العسكرية غير النظامية، وعن مشاركتها الجيش المالي عملياته العسكرية، بخلاف مهامها في مجال التدريب والتطوير، وحماية النظام وبعض المنشآت، وتؤكد هذه التقارير أن النشاط الروسي يستهدف التمهيد لدخول الشركات الروسية مجال التعدين والطاقة(48).

أما في غينيا كوناكري وبوركينا فاسو، فعلى الرغم من تشابه السياقات والتحولات السياسية في البلدين مع نظيرتها في مالي، إلا أن السلطات الانتقالية الحالية فيهما لم تصرح بتوجهها نحو موسكو علنًا، ولم تخفض مستوى علاقاتها مع باريس كما فعلت مالي، فلقد كانت علاقات البلدين مع الاتحاد السوفيتي جيدة في مرحلة ما بعد الاستقلال، ومن ثم كان تسليح الجيش في البلدين يعتمد بدرجة كبيرة على السلاح والعتاد السوفيتي، غير أن النشاط الفرنسي والانكماش الروسي في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، أدى إلى فتور العلاقات مع روسيا وحلول فرنسا محلها،

واستمر الأمر كذلك حتى تفاقمت حالة عدم الاستقرار السياسي والأمني في البلدين، فانقلب عسكريون على السلطة المدنية، وبدأت في البلدين مرحلة انتقالية تلوح فيها توجهات شرقية باتجاه موسكو.

تشير التقديرات إلى أن احتياطيات غينيا كوناكري من "البوكسيت" Bauxite تصل إلى 25 مليار طن متري، وهو ما يقرب من نصف إجمالي احتياطي البوكسيت في العالم، كما تمتلك غينيا احتياطيات ضخمة من خام الحديد عالي الجودة يبلغ مجموعها 4 مليارات طن على الأقل تشمل رواسب معدنية مهمة أخرى، كما تمتلك رواسب كبيرة من اليورانيوم والماس والذهب، والنفط وكميات لا بأس بها من رواسب الأسمنت والنيكل والمنجنيز، وتقدر احتياطيات غينيا من الماس بحوالي 40 مليون قيراط، أما احتياطيات الذهب وإن لم تكن مقدرة إلا أن غينيا أنتجت في عام 2011 حوالي 16 طنًّا من الذهب، ويشجع على التعدين والتصنيع المتصل بهذه الموارد وفرة الأنهار التي تساعد على إنتاج الطاقة الكهرومائية(49).

ونظرًا لوفرة هذه الموارد، أولى "الكرملين" اهتمامًا بالغًا لمد جسور التعاون مع "كوناكري" Conakry وهو ما لاقى استجابة كبيرة تمثلت في منح "روسال" RUSAL، شركة الألومنيوم الروسية، امتياز إنتاج البوكسيت في ثلاثة من أكبر المناجم بما في ذلك مجمع تعدين "ديان ديان" Dian Dian في إقليم "بوكي" Boké شمال غرب البلاد وهو أكبر تجمع رواسب بوكسيت في العالم، وتستخدم "روسال" ما يقرب من 4000 من العمالة الغينية، وقد دعت هذه الاستثمارات الروسية الضخمة السلطات الانتقالية الجديدة إلى طمأنة موسكو على ضمان استمرار العقود القائمة، بل والانفتاح بشكل أوسع على مزيد من التعاون(50).

وفي بوركينا فاسو، تؤكد التقارير امتلاك هذا البلد قدرًا هائلًا من المعادن، مثل: الأنتيمون والبوكسيت والأسمنت والنحاس والذهب والرصاص والحجر الجيري والمنغنيز والرخام والنيكل والفوسفات والفضة والزنك، ويتصدر الذهب قطاع التعدين، حيث تحتل بوركينا فاسو المرتبة السادسة بين الدول المنتجة للذهب، والرابعة في المعادن غير الوقودية، على مستوى إفريقيا والشرق الأوسط(51).

وقد أبدت روسيا عبر بعض أذرعها غير الرسمية تأييدها الانقلاب العسكري البوركينابي الأخير، في محاولة لطرح نفسها بديلًا للإخفاق الفرنس-غربي، وهو ما

لاقي استجابة خجولة من السلطات الانتقالية الجديدة؛ حيث صرَّح النقيب "إبراهيم تـــراوري" Ibrahim Traoré بأنـــه يريد العمل مع شـــركاء دوليين جدد للقضاء على الأنشـــطة الإرهابية التي نشـــطت في البلاد منذ عام 2015، لكنه لم يُســـمِّ روســـيا، وأشـــار إلى أنـــه منفتح أيضًا على العمل مع الولايـــات المتحدة أو أي دولة أخرى تبدى استعدادها للمساعدة في تحسين الأمن في البلاد.

ولم تستجب فرنسا لطلب بوركينا فاسو تسليح قوات من المتطوعين في إطار التعبئة العامة التي أطلقتها الحكومة لمكافحة الإرهاب(52)، وقد يكون ذلك أيضًا من بين أســـباب دفعت السلطات البوركينابية الجديدة لإحداث توازن في علاقاتها الخارجية بين الشرق.

كيف حفزت الحرب الروسية على أوكرانيا تنمية العلاقات الروسية-الإفريقية؟

علـــى الرغـــم من أن التقارب المتبادل بين الروس والأفارقة كان قد بدأ مبكرًا مطلع الألفيـــة الثالثة وأخذ في النمو تدريجيًّـــا، إلا أنه وبوضع التغييرات التي تجري على النظام الدولي في الاعتبار، يمكننا القول بأن الحرب الروســـية على أوكرانيا حفزت الطرفيـــن، الروســـي والإفريقي، باتجاه تمتين علاقاتهما؛ فقـــد عَظَّمت من دور جُلِّ أســـباب التقارب التقليدية الســـابق بيانها تفصيلًا، وأضافت أســـبابًا جديدة أسهمت بدرجة كبيرة في توسيع قاعدة هذا التقارب وتسريع وتيرته، ومن أهم هذه الأسباب الجديدة:

- العقوبات الغربية على روسيا

على إثر اندلاع الحرب الروســـية على أوكرانيا سارعت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبـــي وحلفاؤهما، مثل إنجلترا وكندا وأســـتراليا، إلى فرض عقوبات اقتصادية متنوعة وقاســـية على المؤسســـات والشركات الروسية، بما في ذلك البنك المركزي الروســـي ومصارف أخرى، وشركة النفط الروســـية الحكومية "روسنفت" وشركات أخرى، وقد لحقت العقوبات الأفراد الطبيعيين ســـواء كانوا من رجال الدولة، وفي مقدمتهم الرئيس "بوتين" ووزير الخارجية "لافروف"، أو من الأفراد الخواص المقربين من "بوتين" والدوائر السياسية والاقتصادية الحكومية، وقد رفضت بعض الدول فرض

عقوبات على روسيا مثل صربيا والمكسيك والبرازيل، فيما اكتفت بعض الدول بعقوبات محدودة ضد روسيا مثل اليابان والصين وسنغافورة. وإزاء هذه العقوبات لم تقف روسيا مكتوفة الأيدي فوقّعت من جانبها عقوبات كبيرة على عدد من بلدان الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والنرويج وكندا وأستراليا، بما في ذلك فرض حظر كامل على الواردات الغذائية(53).

وقد كان لهذه العقوبات تأثيرات وانعكاسات سلبية بالغة على كافة قطاعات الاقتصاد الروسي، ما حدا بروسيا إلى البحث عن بديل يمكنه تعويض الخسائر الروسية بل وجني المزيد من العوائد، فكان البديل الإفريقي بمنزلة الفضاء الأمثل لهذا الغرض بما يمثله من مصدر لا ينضب من المنتجات الزراعية والخامات الأولية، وسوق متعطشة تستوعب كافة المنتجات الروسية وبخاصة السلاح والقمح والأسمدة الزراعية وغير ذلك مما تتميز به روسيا وفرة وجودة وسعرًا عن البديل الغربي، وهو ما أسهم بدرجة كبيرة في دفع الطرفين، الروسي والإفريقي، نحو توسيع وتسريع تقاربهما.

- هواجس الحرب الباردة وتوسيع هامش المناورة

كانت الحرب الروسية على أوكرانيا سببًا مباشرًا في استعادة هواجس الحرب الباردة السياسية والاقتصادية بين معسكر تتحالف فيه كل من روسيا والصين، ومعسكر غربي تتقدمه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي(54)، وهو ما منح روسيا دافعًا قويًّا نحو الانفتاح أكثر على دول العالم، ومنح المزيد من التسهيلات التعاونية مع الجميع في كل المجالات، وبخاصة مع الدول الإفريقية. وقد دفع استعار التنافس الشرقي-الغربي الدول الإفريقية إلى توسيع وتسريع تقاربها وتعاونها مع روسيا، إما على سبيل الخيار أو البديل الأفضل، أو على سبيل المناورة لتقوية موقفها التفاوضي مع الغرب.

- الأزمة الاقتصادية العالمية

لا شك في أن الحرب الروسية على أوكرانيا لم تكن السبب الوحيد، أو حتى الرئيسي للأزمة الاقتصادية التي يشهدها العالم وكادت أن تعصف بالاقتصادات الهشة، فثمة أسباب كثيرة في مقدمتها جائحة "كوفيد-19"، غير أنه لا مراء في أن هذه الحرب أسهمت بدرجة كبيرة في إحداث أو تفاقم هذه الأزمة، فيكفي أنها أدت إلى زيادة تكلفة النقل الدولي والمحلي، وزيادة أسعار النفط، وزيادة الطلب على الغاز الطبيعي

ومن ثم زيادة أسعاره، ونقص إنتاج بعض السلع الحيوية كالحبوب، وشح المعروض منها وبخاصة القمح، ومن ثم زيادة الطلب عليها وزيادة أسعارها(55).

وقد دعت هذه الأزمة المتفاقمة، وغير معلومة المدى، جميع الدول حول العالم، إلى البحث عن بدائل طويلة المدي يمكن الاعتماد عليها في سد الفجوات التي بدأت في الظهور، وبخاصة في سوق الغذاء والطاقة؛ الأمر الذي حفز التقارب والتعاون الروسي-الإفريقي بدرجة كبيرة بعد الحرب على أوكرانيا، باعتبار أن روسيا تعد ثالث أكبر منتج للقمح عالميًّا بعد الصين والهند(56)، وباعتبار أن إفريقيا تعد سلة غذاء العالم والمصدِّر الأكبر للمواد الخام الأولية في العالم.

خاتمة

إجابة عن تساؤلات هذه الدراسة، بما في ذلك استشراف مستقبل العلاقات الروسية-الإفريقية، نختم بمحورين:

أولًا: نتائج الدراسة

من خلال الرصد والتحليل السابقين لديناميات النشاط الروسي في الفضاء الإفريقي، وما قابلة من استجابة متزايدة من الطرف الإفريقي، في ظل التجاهل الغربي المتعمد للمطالب والحاجات الإفريقية، وفي ظل التداعيات التي تسببت فيها الحرب الروسية على أوكرانيا، يمكننا القول بأن أهم استنتاجات هذه الدراسة تتمثل في:

- أن إفريقيا بما تملكه من موارد هائلة وحاجات لا محدودة في كل المجالات، باتت في بؤرة اهتمام القوى الدولية والإقليمية، التقليدية والصاعدة، وأن التنافس الكامن على التقارب معها استحال إلى صراع نشط، نتيجة لمزاحمة القوى الدولية العائدة بقوة متمثلة في روسيا، والقوى الدولية الصاعدة متمثلة في الصين، والقوى الإقليمية الصاعدة متمثلة في تركيا والبرازيل والهند وإسرائيل وإيران وغيرها، مع الغرب في مناطق نفوذه التقليدية في كافة أرجاء القارة.
- أن هذا الصراع النشط منح الدول الإفريقية هامشًا كبيرًا للمناورة، بعد أن كانت القارة مقسمة إلى مناطق نفوذ محجوزة للقوى الغربية والمستعمر السابق، وهو ما يتيح لها تحقيق أقصى استفادة من مواردها.

- أن الغرب ونتيجة للأحادية القطبية التي سادت العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، وغياب المنافس القوي، وتقاسم مناطق النفوذ في إفريقيا، تحكم طويلًا في الفضاء الإفريقي عن طريق تصدير الأزمات للقارة وعدم تلبية طلبات دولها؛ ما أحدث فراغات استغلها الروس في العودة إلى المضمار الإفريقي.
- أن روسيا اتكأت على إرثها السوفيتي السابق في مد جسور التعاون مع الدول الإفريقية، ووجدت في ذلك تحقيقًا لطموحاتها القديمة، ومخرجًا لها من مأزق العقوبات الغربية المفروضة عليها بسبب حربها على أوكرانيا.
- أن التفاعلات الروسية في علاقاتها الخارجية ابتعدت عن النهج الأيديولوجي، وأصبحت تنطلق من قاعدة براغماتية بحتة، وغير محدودة، وغير مشروطة.
- أن السياقات التي تفشت في القارة الإفريقية (الإرهاب وعدم الاستقرار السياسي)، ساعدت روسيا كثيرًا في الاعتماد على المدخل العسكري والأمني الذي يمنحها ميزة نسبية، وفرها لها انخفاض أسعار السلاح الروسي نسبيًّا عن السلاح الغربي، وسهولة استخدام العنصر العسكري البشري عبر الشركات الأمنية العسكرية غير النظامية.
- أن إفريقيا استجابت للتطلعات والمساعي الروسية ورحبت بها، بل ووجدت فيها ضالتها المتمثلة في الخلاص من السيطرة الغربية، وتلبيةً -ولو جزئيًّا- لطلباتها، وبخاصة في المجال العسكري والأمني والطاقة النووية الفضاء والتكنولوجيا، وهي المجالات المحاطة غربيًّا بشروط صارمة.
- أن الحرب الروسية على أوكرانيا بتأثيراتها وانعكاساتها السلبية المختلفة على كافة الأطراف، حفزت الطرفين، الروسي والإفريقي، باتجاه تمتين علاقاتهما معًا، والانفتاح على التعاون في كافة المجالات الممكنة، في محاولة جادة من جانب روسيا نحو تعزيز دورها ومكانتها في النظام الدولي، وفي ذات الوقت كسر الحصار والعزلة الدولية التي يسعى الغرب لفرضها عليها، ومحاولة جادة من جانب الدول الإفريقية نحو التخلص من الاحتكار والتحكم والاستلاب الاستعماري الغربي، وهو ما يعني أن العلاقات الروسية-الإفريقية لن تظل على حالها ولا وتيرتها التي كانت عليها قبل اندلاع الحرب الروسية على أوكرانيا.

ثانيًا: مستقبل العلاقات الروسية-الإفريقية

في ضوء النتائج السابقة، وفي ظل الصراع الدولي المحموم والتغييرات المرتقبة في النظام الدولي، ووفقًا للنهج الذي سارت عليه روسيا في علاقاتها الإفريقية بعد حربها على أوكرانيا، يمكن استشراف مستقبل العلاقات الروسية-الإفريقية على النحو التالي:

- من المرجح أن تبادر روسيا إلى تسريع وتكثيف نشاطها في الفضاء الإفريقي رأسيًّا وأفقيًّا، مستخدمة كل الطرق والوسائل والأدوات، تحقيقًا لتطلعاتها نحو استعادة مركزها في النظام الدولي، ومكانتها في القارة الإفريقية.
- من المرجح أيضًا أن تتبنى روسيا إستراتيجية أكثر شمولًا بدلًا من التركيز على المدخل العسكري والأمني؛ ذلك بأن الطلب الإفريقي على الأمن وعلي الرغم من أهميته، لا يعدو أن يكون مرحلة انتقالية قصيرة أو متوسطة المدي يمكن تجاوزها، بعدها سوف ينتقل الطلب إلى المجالات الأكثر إلحاحًا وهي التكنولوجيا والتنمية والرفاه، وبخاصة في ظل وجود قيادات إفريقية جديدة شابة أكثر تأثرًا بمطالب الجماهير، وأكثر استجابة لها.
- من المؤكد أن الأفارقة لن يهدروا هذه الفرصة السانحة، وأنهم في سبيل تعظيم مواردهم وتحقيق أقصى استفادة منها، سيزيدون من تعاطيهم واستجابتهم للمساعي الروسية، كبديل للغرب في كثير من الأحيان، وعلى سبيل المناورة كورقة ضغط على الغرب في بعض الأحيان.

المراجع

(1) د. حورية توفيق مجاهد، "نظام الحزب الواحد في إفريقيا: نحو نظرية عامة"، في مجلة مصر المعاصرة (القاهرة: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، مج 67، ع 365، 1976) ص ص 155-196.

(2) Julius K. Nyerere, "African Socalism: Ujamaa in Practice" in The Black Scholar (Boulder, Colorado: Paradigm Publishers Vol. 2, No. 6, February 1971) P. 7.

(3) د. ناصر أحمد سنة، "ليوبولد سيدار سنجور.. شاعرًا وسياسيًّا: جدلية المثقف والسلطة" في المجلة العربية، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 14 يوليو/ تموز 2015)،(تاريخ الدخول:

8 ديســمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابــط: https://www.arabicmagazine.net/arabic/ArticleDetails.aspx?id=4446

(4) Grace Olufolake O. Alofun, "African Socialism: A Critique" in IOSR Journal Of Humanities And Social Science (New York: International Organization of Scientific Research "IOSR", Volume 19, Issue 8, Ver. VI, Aug. 2014), Pp. 69-71.

(5) Maxim Matusevich, "Russia in Africa: A Search for Continuity in a Post-Cold War Era", in Insight Turkey (Ankara: SETA Foundation for Political, Economic and Social Research, Vol. 21, No. 1, Wınter 2019), Pp. 26-34.

(6) Ibid, Pp. 34-37.

(7) Idem.

(8) Tim Cocks, "Explainer: Why African Nations' Support for UN Action on Russia/Ukraine is so Mixed", on Reuters Website, Published at 13 April 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 1:15 pm, at link:

https://www.reuters.com/world/why-african-nations-support-un-action-russiaukraine-is-so-mixed-2022-04-13/

(9) د. رجاء ســليم، "الأزمة الروســية الأوكرانية: ملامح ومحددات"، (القاهرة: مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، مجلس الوزراء، سلســلة بقلم خبير، رقم 31، 12 مايو/ أيار 2022)، ص ص 4-11.

(10) المرجع نفسه.

(11) د. ســماح خالد زهران، "إفريقيا: إمكانيات وتحديات"، في مصريقيا (القاهرة: كلية البنات لــلآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شــمس، المجلد 1، العــدد 1، يناير/ كانون الثاني 2021)، ص ص 1-5.

(12) المرجع نفسه.

(13) أحمــد طاهــر، "الغاز الإفريقي ومســتقبل الطاقة فــي أوروبا"، في المجلــة، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشــر: 22 أغســطس/ آب 2022)،(تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط:https://arb.majalla.com/node/249061

(14) د. غـادة أنيس البياع، "التصنيع مسـار إفريقيـا البديل نحو التنمية"، في مجلة كلية الاقتصاد والعلوم السياسـية (القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسـية، جامعة القاهرة، المجلد 21، العدد 4، أكتوبر/ تشرين الأول 2020، ص ص 7-38.

(15) د. هدى النعيمي، "مآلات متعددة: تأثير الحرب الأوكرانية في العلاقات الروسية-الإفريقية"، مركز ترينذز للبحوث والاستشارات، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 5 مايو/ أيار 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسـمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://trendsresearch.org/ar/insight/06-05-2022/

(16) Sergey Sukhankin, "Russian PMCs in Sub-Saharan Africa: mission (Im) possible?", on Riddle Website, Published at 12 June 2020, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 1:45 pm, at link:

https://ridl.io/russian-pmcs-in-sub-saharan-africa-mission-im-possible/

(17) Christopher Faulkner, "Undermining Democracy and Exploiting Clients: The Wagner Group's Nefarious Activities in Africa," in CTC Sentinel (New York, Combating Terrorism Center, U.S. Military Academy, Volume 15, Issue 6, June 2022), Pp. 29-35.

(18) عبيد أميجن، "هل تدخل روسيا من باب التجارة في التنافس على إفريقيا؟" (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، تقرير، 11 نوفمبر/ تشرين الثاني 2019)، ص ص 1-8.

(19) اقتصاد الشرق، "خطة بمليار دولار لتخليص إفريقيا من الاعتماد على القمح الروسي"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشـر: 16 مارس/ آذار 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسـمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://www.asharqbusiness.com/article/35019

(20) شادي إبراهيم، "خريطة السلاح في إفريقيا: بين سياسات الاستعمار الجديد وتنافس القوى الكبرى"، (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسـات، ورقة تحليلية، 12 سـبتمبر/ أيلول 2021) ص ص 1-7.

(21) أمره غركان آباي، "عبر الاسـتثمار.. روسـيا تبحث عن موطئ قدم ثابتة في إفريقيا"، وكالة الأناضـول، علـى الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشـر: 28 أكتوبر/ تشـرين الأول 2019)،(تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/2a3b77hm

(22) Gold Street Business, "Russia's promise of building nuclear plants in

Africa", on Gold Street Business Website, Published at 7 Sep. 2021, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 2:00 pm, at link: https://goldstreetbusiness.com/2021/business/russias-promise-of-building-nuclear-plants-in-africa/

(23) البيانات من إعداد الباحث استنادًا إلى التمثيل الدبلوماسي الوارد على الموقع الإلكتروني "صفحات دبلوماسية" Embassy Pages، (تاريخ النشر: 27 أبريل/ نيسان 2023 دائم التحديث)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://www.embassypages.com/russia

(24) جريدة الجزائر الجديدة، "روسيا تنضم إلى الاتحاد البرلماني الإفريقي كعضو مراقب"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 9 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://www.eldjazaireldjadida.dz/ روسيا-تنضم-إلى-الاتحاد-البرلماني-الإف/

(25) بوابة الأهرام، "السيسي: مصر كلها ترحب بزيارة بوتين.. والرئيس الروسي: أمامنا الكثير من المشروعات المشتركة"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 11 ديسمبر/ كانون الأول 2017)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://gate.ahram.org.eg/News/1734592.aspx

- بوابة الوسط، "الرئيس السنغالي يؤكد لبوتين أن إفريقيا "ضحية" للنزاع في أوكرانيا"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 3 يونيو/ حزيران 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: http://alwasat.ly/news/economy/361027

(26) الشافعي أبتدون،" جولة "لافروف" إلى إفريقيا: أبعادها الدولية وحساباتها الجيوسياسية"، أوراق تحليلية، منشورة على موقع مركز الجزيرة للدراسات، (تاريخ النشر: 16 أغسطس/ آب 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://studies.aljazeera.net/ar/article/5435

(27) البوابة نيوز، "موسكو: القمة الروسية الإفريقية الثانية ستعطي دفعة جديدة للتعاون الاقتصادي"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 8 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://www.albawabhnews.com/4688895

(28) Jason Burke, "Facebook struggles as Russia steps up presence in unstable west Africa", The Guardian Website, Published at 17 April 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 2:35 pm, at link:

https://www.theguardian.com/world/2022/apr/17/facebook-struggles-as-russia-steps-up-presence-in-unstable-west-africa

- Mary Blankenship, Aloysius Uche Ordu, "Russia's narratives about its invasion of Ukraine are lingering in Africa", Brookings Institution Website, Published at 27 June 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 2:40 pm, at link:

https://www.brookings.edu/blog/africa-in-focus/2022/06/27/russias-narratives-about-its-invasion-of-ukraine-are-lingering-in-africa/

(29) د. عصام عبد الشافي، "بين المشروطية السياسية والحكم الراشد" (إسطنبول: المعهد المصري للدراسات السياسية والإستراتيجية، سلسلة دراسات سياسية، 3 ديسمبر/ كانون الأول 2016)، ص ص 3-8.

(30) محمد سعدي، "الاتحاد الأوروبي والمشروطية الديمقراطية: اختبار ما بعد الربيع العربي"، سياسات عربية (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 36، يناير/ كانون الثاني 2019)، ص ص 77-88.

(31) شريفة كلاع، "العلاقات الروسية الجزائرية: بين البعد الطاقوي والتعاون العسكري"، في مدارات سياسية (تبسة، الجزائر: مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، المجلد 1، العدد 1، يونيو/ حزيران 2017)، ص ص 121-122.

(32) جريدة الشرق الأوسط، "الجزائر لتوقيع "عقد ضخم" مع روسيا لتوريد أسلحة متطورة"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 2 نوفمبر/ تشرين الثاني 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/2ebnar9s

(33) شريفة كلاع، مرجع سبق ذكره، ص 122.

(34) روسيا اليوم، ""سوناطراك" الجزائرية تعلن إنجاز عمليات تنقيب لـ 24 بئرًا بالشراكة مع "غازبروم" الروسية"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 3 فبراير/ شباط 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/mpksuprs

(35) وائل بن أحمد، "محطة للطاقة النووية بالجزائر.. هذا ما ستفعله روسيا لإبقاء الجزائر إلى جانبها"، منصة "أوراس" الرقمية، (تاريخ النشر: 3 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/mtwt4b3a

(36) جريدة الرياض، "سكك الحديد الروسية تفوز بعقد لإنشاء شبكة جديدة لخطوط القطارات في الجزائر"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشـر: 20 فبراير/ شباط 2008)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://www.alriyadh.com/319330

- شريفة كلاع، مرجع سبق ذكره، ص 121.

(37) عبد القادر محمد علي، "القاعدة الروسـية في السـودان.. صراع القوى الكبرى وديناميات السياسة المحلي" (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ورقة تحليلية، 16 يوليو/ تموز 2021)، ص ص 2-7.

(38) محمد صالح عمر، "اتفاقية التعاون العسـكري الروسـي الإثيوبي.. ما المصالح التي تحققها لكلا الطرفين؟"، تقدير موقف، على موقع شـبكة الجزيرة الاعلامية، (تاريخ النشـر: 18 يوليو/ تمـوز 2021)، (تاريخ الدخول: 28 ديسـمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط:.https://tinyurl com/mm3yfkf4

(39) مركز الجزيرة للدراسات، "كيف ابتلعت روسيا إفريقيا الوسطى؟"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشـر: 25 مارس/ آذار 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسـمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/2s49f3ya

(40) المصدر نفسه.

(41) اليوم السابع، "توجه روسي للانفتاح على دول جنوب الصحراء.. وأنغولا هي نقطة البداية"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشـر: 11 ديسـمبر/ كانون الأول 2013)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/44vrkrpn

((42) اليوم السـابع، "لافروف: اهتمام متبادل لدى روسـيا والكونغو لتطوير التعاون في المجال العسكري"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 25 يوليو/ تموز 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/ كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/3a8utr87

(43) شمسـان عوض التميمي، "روسـيا وإفريقيا.. حرب باردة جديدة؟" (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ورقة تحليلية، 12 سبتمبر/ أيلول 2021)، ص 5.

(44) The Observatory of Economic Complexity Website, Russia/South Africa, Published at Jan. 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 3:25 pm, at link:

https://oec.world/en/profile/bilateral-country/rus/partner/zaf

(45) Rebecca Davis, "Untangling the narrative web surrounding South Africa's stance on the Russia-Ukraine conflict", on Daily Maverick Website, Published at Jan 8 Mars 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 3:30 pm, at link:

https://www.dailymaverick.co.za/article/2022-03-08-untangling-the-narrative-web-surrounding-south-africas-stance-on-the-russia-ukraine-conflict/

(46) Andrew S. Weiss, Eugene Rumer, "Nuclear Enrichment: Russia's Ill-Fated Influence Campaign in South Africa", on Website, Published at 16 Dec. 2019, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 3:35 pm, at link:

https://carnegieendowment.org/2019/12/16/nuclear-enrichment-russia-s-ill-fated-influence-campaign-in-south-africa-pub-80597

(47) Center for Security Analysis and Prevention "CSAP", "How Russia is becoming a dominant player in Mali", CSAP Website, Published at 4 June 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 3:40 pm, at link: https://cbap.cz/archiv/5194

(48) محمد عبده حسنين، "روسيا تملأ الفراغ الفرنسي في مالي بتعزيز حضورها العسكري: الرئيسان الروسي والمالي يعربان عن ارتياحهما لمستوى العلاقات بين بلديهما"، جريدة الشرق الأوسط، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 11 أغسطس/آب 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/كانون الأول 2022)، على الرابط:https://tinyurl.com/53m6u9xr

(49) Thierno Amadou Diallo, Beyond the Resource Curse: Mineral Resources and Development in Guinea-Conakry, Unpublished Master Thesis (Cambridge, Massachusetts, USA: Department of Urban Studies and Planning, Massachusetts Institute Of Technology), Pp. 46-57.

(50) Marième Soumaré, "Guinea-Russia: Moscow's ties with Doumbouya", on The Africa Report Website, Published at 22 February 2022, Last Visit at 28 Dec. 2022, at 3:50 pm, at link:

https://www.theafricareport.com/178750/guinea-russia-moscows-ties-with-doumbouya/

(51) Cliff D. Taylor, et. al., "Geology and Nonfuel Mineral Deposits of Africa and the Middle East" (Reston, Virginia: John W. Powell National Center, U.S. Geological Survey, U.S. Department of the Interior, Open-File Report 2005–1294-E, 2005), P. 140.

(52) مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، "فاجنر مجددًا: أهداف زيارة رئيس الوزراء البوركينابي السرية إلى روسيا"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 15 ديسمبر/ كانون الثاني 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/25r7uzx4.

(53) اقتصاد الشرق مع بلومبرج، "إنفوغراف.. ما هي العقوبات الغربية على روسيا؟"، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 2 مارس/آذار 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/yksxtxwz

(54) شريفة كلاع، "الحرب الباردة الجديدة من خلال الصراع الاقتصادي الأميركي-الصيني: هل ستخلق الصين عالمًا متعدد الأقطاب؟"، في مجلة الدراسات القانونية والسياسية (الأغواط، الجزائر: جامعة عمار ثليجي، المجلد 8، العدد 1، يناير/كانون الثاني 2022) ص ص 102-131.

(55) الأمم المتحدة، منظمة الأغذية والزراعة، "موجز منظمة الأغذية والزراعة عن إمدادات الحبوب والطلب عليها"، الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 23 أبريل/ نيسان 2023)، (تاريخ الدخول: 23 أبريل/ نيسان 2023)، على الرابط: https://www.fao.org/worldfoodsituation/csdb/ar/

(56) مصطفي ابراهيم، "أكبر 10 دول منتجة للقمح في العالم"، جريدة الرؤية، على الموقع الإلكتروني، (تاريخ النشر: 24 ديسمبر/كانون الأول 2022)، (تاريخ الدخول: 28 ديسمبر/كانون الأول 2022)، على الرابط: https://tinyurl.com/yc5xnz2y

قراءة في كتاب

مهندسو الفوضى

خوارزميات الإنترنت في خدمة الشعبوية الصاعدة

Chaos engineers

Internet algorithms at the service of rising populism

نزار الفراوي - Nizar Lafraoui*

الكتاب: مهندسو الفوضى

العنوان الأصلي: Les ingénieurs du chaos

المؤلف: جيوليانو دا إمبولي Giuliano da Empoli

منشـــورات جان كلود لاتي JC Lattès. باريس. 2019

ملخص:

يرصـد كتـاب "مهندسـو الفوضـى" (Les ingénieurs du chaos)، للباحـث والكاتـب الإيطالـي- السويسـري جيوليانـو دا إمبولـي، Giuliano da Empoli صعـود التيـارات الشـعبوية وزعاماتهـا مـن خـلال تسـليط الضـوء على المطبـخ الخلفـي الـذي يتـم فيـه رسـم معالـم الشـخصية القياديـة وتخطيـط تحركاتهـا مـن جهـة، وتوجيـه الـرأي العـام وتهيئتـه للتفاعـل مـع خطـاب تهييجـي مـن جيـل جديـد، مـن جهـة أخـرى.

الكتـاب بهـذا المعنـى غـوص في دهاليـز صناعـة هـذا الزحـف الشـعبوي الجديـد الـذي لا يتـردد البعـض في اعتبـاره اسـتئنافا، ولـو بصيـغ أخـرى، لمراحـل سياسـية سـابقة أثمـرت التيـارات اليمينيـة الفاشـية والنازيـة التـي دفعـت بأوروبـا والعالـم إلـى حرائـق حـرب عالميـة مدمـرة.

يقودنـا المؤلـف، بأسـلوب يجمـع بيـن التقريريـة البحثيـة والنفحـة السـردية الوصفية، الـى التعرف على

فاعليـن سياسـيين جـدد. ليسـوا منظريـن إيديولوجييـن محترفيـن، بـل هـم مهندسـون بالفعـل، مـن خريجـي الشـعب العلميـة والتقنيـة ذات الصلـة بعالـم الفيزيـاء والرياضيـات، مـن البارعيـن في توظيـف الأنترنيـت للدعايـة السياسـية واسـتغلال منصـات التواصـل الاجتماعـي لتوجيـه الـرأي العـام وجـس اتجاهاتـه

* نزار الفراوي، صحافي، باحث في العلاقات الدولية

Nizar Lafraoui, Journalist, researcher in international relations.

وتخصيب مشاعره السلبية تجاه النخب التقليدية. إنهم جامعيون متخصصون يضعون خبرتهم العلمية في قاعدة مشروع يعبد طريق السياسي إلى صعود مدارج الهرم بناء على خطاب شعبوي فائق النجاعة، ووفق رؤية تحول اللعبة السياسية إلى (فرجة) جاذبة للجمهور.

كلمات مفتاحية: أنظمة سياسية- شعبوية- إنترنيت- هندسة معلوماتية - يمين متشدد - رأي عام - أزمة الديمقراطية

Abstract

The book "The Architects of Chaos" (Les ingénieurs du chaos), by the Italian-Swiss researcher and writer Giuliano da Empoli, deals with the rise of populist currents and their leaders by highlighting the underside of the planning process of the leadership managment, and influencing public opinion.

The book suggests an attempt to understand the secrets of the suc-cess of the new populist wave, which some consider as a resumption, of previous political phases of fascist and Nazi right-wing currents that pushed Europe and the world into devastating world war.

The author leads us, in a manner that combines research reporting with descriptive narrative flair, to identify new political actors. They are not professional ideological theorists, but rather engineers, graduates of scientific and technical disciplines related to the world of physics and mathematics, who are skilled in using the Internet for political propaganda and exploiting social media platforms to guide public opinion, probe its trends, and inflame negative feelings towards tradi-tional elites. They are specialized university students who bring their scientific expertise to push the leader to the ascent of power pyramid, using a populist discourse, and according to a vision that transforms the political game into an attractive show for the public.

Key Words: political systems- populism- internet- Informatics engineering- extreme right- public opinion- democracy crisis.

مدخل

يخيم خوف عارم على قطاعات عريضة من النخب السياسية والثقافية التي تحمل رؤية معينة عن الديمقراطية بمختلف أبعادها وقيمها المتوارثة عن الحرية ودور الدولة والتعددية الثقافية والعلاقة مع الآخر وطبيعة السياسات الاقتصادية ومكانة الإعلام والرأي العام وغيرها؛ ذلك أن التيارات الشعبوية التي تلتهم مساحات متنامية من مربعات السلطة في العديد من الدول بأوروبا وأميركا تنذر بمآلات مجهولة للنظام السياسي في هذه الأصقاع، مع انعكاسات أكيدة على المجتمع الدولي، والعلاقات الدولية ككل.

في كتاب "مهندسو الفوضى" (Les ingénieurs du chaos)، الصادر في طبعته الأولى سنة 2019 ، عن منشورات جان كلود لاتي JC Lattès بباريس، يتوغل الباحث والكاتب الإيطالي-السويسري، جيوليانو دا إمبولي Giuliano da Empoli، في دهاليز صناعة هذا الزحف الشعبوي الجديد الذي لا يتردد البعض في اعتباره استئنافًا، ولو بصيغ أخرى، لمراحل سياسية سابقة أثمرت التيارات اليمينية الفاشية والنازية التي دفعت بأوروبا والعالم إلى حرائق حرب عالمية مدمرة.

ترامب، بولسونارو، جونسون، أوربان، سالفيني...أسماء ونماذج لمنظور جديد لممارسة السياسة وأدوات جديدة لحسم المعارك الانتخابية وآليات مغايرة لنسج العلاقة مع الرأي العام، ومنظور جديد لأولويات الحكم وقيمه السياسية والاقتصادية والثقافية. لكن خلف هذه الزعامات، "مهندسون" يراهنون على التكنولوجيات الوسائطية الجديدة لربح حروب الرأي العام والترويج للشعارات الراديكالية الواعدة بالتغيير والحل السحري للأزمات الاقتصادية والاجتماعية لمرحلة ما بعد الرفاه في الديمقراطيات.

سياقات ذاتية وموضوعية

لا ينطوي عنوان الكتاب على وصف مجازي لهذه العقول التي تخطط ليوميات الزعامات الشعبوية الجديدة وتحركاتها وخطاباتها وصولًا إلى أدق تعبيراتها

الجسدية. إنهم ليسوا منظِّرين أيديولوجيين محترفين، بل مهندسين بالفعل، من خريجي الشعب العلمية والتقنية ذات الصلة بعالم الفيزياء والرياضيات، من البارعين في توظيف الإنترنت للدعاية السياسية واستغلال منصات التواصل الاجتماعي لتوجيه الرأي العام وجس اتجاهاته وتخصيب مشاعره السلبية تجاه النخب التقليدية. إنهم جامعيون متخصصون يضعون خبرتهم العلمية في قاعدة مشروع يعبِّد طريق السياسي إلى صعود مدارج الهرم بناء على خطاب شعبوي فائق النجاعة، ووفق رؤية تحول اللعبة السياسية إلى فرجة جاذبة للجمهور.

ومن هنا يمكن أن نفهم اختيار الكاتب لمقدمته، حين يعود إلى الوراء مراهنًا على تشبيه فلسفي يبدو فيه الكرنفال محاكاة للعبة السياسة. فمن شرفة الشقة التي أقام بها الأديب الألماني، غوته، في العاصمة الإيطالية، روما، سنة 1787، يبدو مشهد رجال ونساء يتبادلون الأدوار، مواقف وتصرفات ضد المعتاد والمألوف، فوضى إرادية حيث كل شيء مباح، مزيج من الاحتفالية والصخب الذي يصل إلى العنف. يتأرجح الكرنفال بين التمثيل والحقيقة: حقيقة الطبائع البشرية حين تتاح للعامة الإطاحة بالنظم والقواعد السارية بشكل رمزي.(1)

هذا البعد الخطر، الانقلابي، هو ما حمل على إلغاء هذه الاحتفاليات في روما، خصوصًا عقب الثورة الفرنسية، كي لا يتحول التمثيل إلى فعل حقيقي، ثم عاد الكرنفال بقوة إلى المشهد السياسي الذي بات يفرز قيادات مغمورة خارج الصف، شبه مقنعة. إنه الكرنفال الذي أنتج في إيطاليا انتصارات حركة 5 نجوم والعصبة وتعيين رجل مثل جيوسيبي كونتي رئيسًا للحكومة، في يونيو/ حزيران 2018 (إلى غاية 2021). ولعلها اللحظة التي استفزت الكاتب وهو يتأمل بلاده في قبضة الشعبوية بذاكرتها الأليمة.

يتحدث الكتاب عن مشهد كرنفالي ينتج شخصيات تقول الشيء ونقيضه في غضون ساعات، تدلي بمعلومات ومعلومات زائفة طول الوقت. الكذب لا يطيح بها بل قد يقويها ويدمر خصومها. يستحضر ظاهرة ماتيو سالفيني، وزير الداخلية الإيطالي، المتشدد الذي ينشر تغريدات يومية تلهب الخوف والكراهية ضد السود والمهاجرين، خصوصًا منهم المسلمين.

إيطاليا مهد الشعبوية لكنها ليست استثناء، بل نموذجًا في طور التناسل عبر جغرافيات

العالم الغربي بوجه خاص. هناك موجة عارمة تتحول معها نقائص السياسيين إلى نقاط قوة. الجهل وعدم الخبرة يتجاوران خلف الاندفاعية والدعائية التي تستثمر مشاعر الغضب والإحباط تجاه النخب التقليدية التي توصم بالفساد والفشل.(2)

تقوم الشعبوية على مركزية فكرة "الشعب"، تعمل على تصويره كتلة موحدة ومنسجمة، تلتهم الاختلافات الهامشية، تحتكر الحديث باسمه، وتعلي جدارًا بينه وبين النخب التقليدية، تخدم مصلحتها فكرة المجموعة الواحدة المستهدفة من الداخل والخارج. الشعبوية تستهدف عزل الشعب عن النخب التقليدية، وإعلاء جدار بينهما. توظف جهاز إدانة متواصلة للنخب الحاكمة، وترفع شعار الدفاع عن هوية وطنية مهددة، ومناهضة القوى الأجنبية الدخيلة التي تهدد هذه الهوية.(3)

تقارب الشعبوية العالم المعقد بأفكار تبسيطية: تبني تقاطبًا بين الخير والشر، الواقع والزيف، من يكذب ومن يقول الحقيقة. تستغل تباعدًا حقيقيًّا بين الجماهير والنخب؛ تحمِّل هذه النخب مسؤولية هشاشة النظام أمام الهجرة والتعددية الثقافية والرأسمالية المالية ووحش العولمة.(4)

لقد وصف آلان تورين الشعبوية بأنها المرض الطفولي للديمقراطية والحال أنه اليوم مرض شيخوختها. والأدهى أن النخب التقليدية تحاول كبح منحنى تراجعها بمزاحمة الشعبوية في تبني بعض أفكارها، على غرار ما يقوم به اليسار في تبني منظور كبح حركة المهاجرين. يراهنون على التشابه لكسر مسار اتساع قاعدة الشعبويين في الأوساط الاجتماعية المختلفة.

على خلاف الأيديولوجيات السياسية التي عرفها التاريخ منذ قرون، ليست هناك نظرية مستقلة للشعبوية. إنها بالأساس خطاب، أسلوب يتعالى على الاصطفافات السياسية التقليدية. لذلك قد يلتقي فيها اليساري واليميني.

تُعرف الشعبوية أكثر كخطاب يستهدف ضرب الخصوم في غياب تعريف موحد ومتكامل. إنها بالتالي رد فعل أكثر منها نظامًا مكتفيًا بذاته؛ خطاب قد يشترك فيه اليمين واليسار. تنتعش الشعبوية في أوقات الأزمة والانتقالات الكبرى والمخاضات التاريخية الفارقة. كذلك مثلًا شأن حركة ألمانيا البديلة التي توسعت عقب أزمة اللاجئين والسياسة المتعاطفة للمستشارة السابقة، أنغيلا ميركل، باستقبال مئات آلاف من الفارين من حرب سوريا، خصوصًا عام 2015.

في الحقيقة، ليست الظاهرة بجديدة، فمنذ الثمانينات برز زعماء يتباهون بجهلهم، وبأنهم رجال عاديون من صفوف الجماهير، على غرار رونالد ريغان. وهذا التعريف نفسه يصبح جزءًا من الخطاب الديماغوجي الذي يسعى إلى كسر المسافة مع المستهدَف بالخطاب، الناخب المحتمل. فالقائد الشعبوي لا يمثل الشعب، بل يجسده. إن مفارقة الشعبوية أنها فعل وحركة تتبلور من داخل الديمقراطية، تحتاج مؤسسات الديمقراطية ومساطرها وقواعدها، لالتهام الديمقراطية وتحويلها لشيء مختلف دون تحطيم واجهتها.

تقوم الشعبوية على إنكار وجود أسباب موضوعية للتراجع الاقتصادي والأزمات الاجتماعية والسياسية التي تعيشها الديمقراطيات. بالنسبة لها، ظواهر التغير المناخي وغلاء الطاقة وندرة المواد الأساسية كلها مجرد مؤامرات محبوكة. صناعة العدو مكون أساسي في الخطاب: ضد المهاجرين، ضد المؤسسات الدولية، ضد الإسلام، ضد مركبات البحث العلمي، ضد الإعلام التقليدي المتآمر.

تعيش الشعبوية في وهم ماض تتم أسطرته، عبر تخصيب التاريخ الزاهر من جهة، والتاريخ السلبي الذي يضع الآخرين موضع الاتهام والعداء، من جهة أخرى. ترفع شعار حرب صليبية لاستعادة سنوات المجد والنقاء الوطني، العرقي أحيانًا، وترميم السيادة المخترقة وتحصين الحدود، وترسيم التميز الوطني عن الآخرين.(5)

في عالم ترامب وبوريس جونسون وبولسونارو وأوربان، تتخذ المواقف الحدية والمعلومات المضلِّلة وتيرة يومية بحيث يحتجب الحدث خلف لاحقه فلا يظل وقت للتمحيص والتقييم والربط بين الأشياء. لا مفر من الانخراط التام في الموجة. المشهد السياسي فرجة لكن خلفها يكمن مهندسون من الخبراء والباحثين في البيانات الضخمة Big Data، يرشدون محترفي السياسة إلى سبل كسب معارك الرأي العام وتفكيك معسكرات الخصوم وفتح قنوات استهداف الناخبين عبر كل الوسائط التكنولوجية المتاحة. الكتاب يحكي قصة هؤلاء الذين لا يظهرون أمام الكاميرا، بل ينهمكون في إعداد وجبات المطبخ السري للزعماء الجدد الذين يختطفون السياسة رهينة في قبضة الشعبوية الجديدة.

إن هوية الكاتب وتجربته تضيء أهمية الكتاب وميزاته، وربما نقائصه أيضًا؛ فجيوليانو دا إمبولي باحث في العلوم السياسية، يدير مركزًا للتفكير في ميلانو "فولتا"، ويزاول

التدريس في معهد العلوم السياسية بباريس. غير أنه لا يقارب المشهد السياسي بمسافة مطلقة مزعومة للباحث، بل يحمل ذاكرة وخبرة الممارسة، بل القرب من مراكز صناعة القرار في إيطاليا، من تجربته نائبًا لعمدة فلورنسا في الشؤون الثقافية إلى مستشار سياسي للوزير الأول الإيطالي، ماتيو رينزي (من فبراير/ شباط 2014 إلى ديسمبر/ كانون الأول 2016)، الذي كان يرأس الحزب الديمقراطي، وأدار البلاد بتحالف ضم أحزابًا من اليسار والوسط.

إن الانتماء المعلن لهذه الشجرة السياسية، وإن كان الكاتب قد أوقف التزامه بالعمل الحزبي المباشر وتفرغ للبحث والتدريس، لا يعيب مقاربةً من نوع ما يقترحه الكتاب، الذي يبقى رؤية سجالية تعبر عن مرجعيات صاحبها، والزوايا الَتي يختارها لتفكيك أعطاب الزمن السياسي الراهن في الديمقراطيات الغربية.

إن الترحيب الواسع بالكتاب الذي تُرجم إلى 12 لغة يوضح الحاجة التي يستشعرها المتابعون للأوضاع السياسية، في سعيهم إلى تبديد حيرة القراءة والفهم أمام تحولات سياسية بنيوية تلقي بغيوم من الشك والاضطراب على المستقبل.

بانوراما لمهندسي الحملات الشعبوية

في إيطاليا، هي قصة خبير في التسويق الإلكتروني فهم منذ بداية الألفية أن الإنترنت سيُحدث ثورة في السياسة. جيان روبيرتو كاساليجو Gianroberto Casaleggio سينجح في "استقطاب" فنان كوميدي هو بيب كريو Beppe Grillo ليصبح واجهته لحركة 5 نجوم.

لا يركز الكاتب على إيطاليا كنموذج لانتعاش الشعبوية فقط لأنها بلده الأصلي، بل أيضًا لأن إيطاليا تُعتبر، حتى في نظر ستيف بانون أحد كبار مهندسي الشعبوية الأميركية، تجربة نموذجية لصعود الحركة الشعبوية ينبغي استلهامه وتعميمه؛ حيث فهم الشعبويون من اليمين واليسار الحاجة إلى التكتل ضد النخبة السياسية التقليدية. والجديد اللافت في إيطاليا أن رجال التقنية أخذوا المبادرة وباتوا يختارون السياسيين المؤهلين لتطبيق برنامجهم الشعبوي، الحالة التي يجسدها كاساليجيو مع كريو.

بدأ اللقاء بين بيب كريو وجيان روبيرتو كاساليجيو بحديث عن دور الإنترنت في تغيير

العالم. كان لقاء بين وحش الخشبة المعتاد على مواجهة الجمهور عبر الإضحاك من جهة والعقل البارد ذي الرؤية البعيدة المسلح بخبرة في التسويق الرقمي.

ينقل الكاتب عن كاساليجيو الذي توفي مبكرًا في ذروة المسار قوله الكاشف لمركز الثقل في المشـــروع السياســـي الشعبوي: "لا تهمني السياسة.. يهمني الرأي العام"5. كان الرجلان ينطلقان من يقين بأن الإنترنت سيقلب وجه السياسة ببروز حركة تقودها تفضيلات الناخبين/ المســـتهلكين. الهدف إذن هو تصميم "منتج" يســـتجيب لطلب الجمهـــور. كان السياســـي إذن في حاجة إلى فنان يصنع (الفرجـــة) لتوليد الحرارة والحماس في العملية التواصلية.

تتم صياغة الخطاب السياســـي في مكاتب الشـــركة التي يديرها كاساليجيو عبر فرز الانشغالات المعبَّر عنها يوميًّا من قبل الجمهور على مختلف الشبكات الاجتماعية. يجري تصوير البلاد على أنها أســـيرة عصابة من السياســـيين الفاسدين وأن الحلول بســـيطة وفورية وجذرية. عملية المشـــاركة والارتقاء في الســـلم الحزبي مختلفة عن المســـارات التقليدية البطيئة في الأحزاب اليســـارية واليمينية معًا. ثمة مرونة تســـمح بالسرعة أمام الوجوه الفعالة والحركية.(6)

فـــي 2007، تم تحويل التعبئة الرقمية إلى حركة جماهيرية تملأ الســـاحات. التنظيم يبدو مفتوحًا لكنه في الواقع شـــديد التمركـــز ينبني على الانخراط الكامل دون نقد أو تمحيـــص. التواصل عمودي مع المركـــز. يتم اختيار وجوه جديدة من الناجحين علـــى صفحات التواصل الاجتماعي لتولـــي مراكز قيادية، بلا مراعاة لكفاءات معينة وخبرات سياســـية. يتـــم الاعتماد على مجموعة من المواقـــع والقنوات الإلكترونية لتشكيل الفقاعات الإعلامية المصاحبة. إنها صناعة تكنو-سياسية حقيقية قائمة على معالجة وتوزيع المعلومات والمعلومات الزائفة. لقد نجحت الحركة في تحقيق أول انتصار في انتخابات 2013 بنجاح 163 برلمانيًّا. رفع كريو حينها شعار "الزحف على روما". وقد تعرضت الحركة لتحد كبير مع وفاة كاساليجيو سنة 2016، لكن الخطوات التي تحققت على الأرض كانت عملاقة، بعدما بدأت من الصفر.

فـــي بريطانيا، هي أيضًا قصة دومينيك كامينغـــز Dominic Cummings مدير حملة البريكست Vote to leave من أجل مغادرة بريطانيا للاتحاد الأوروبي (2015-2016) ومستشار رئيس الوزراء، بوريس جونسون (2019-2020).

ينقل الكاتب عنه قوله: "إن أردتم تحقيق تقدم في السياسة، فإن نصيحتي أن توظفوا فيزيائيين، لا خبراء في التواصل". إنها قولة مقتضبة تلخص العهد التكنولوجي الجديد للفعل السياسي. في تعامله مع شركة كندية مرتبطة بمؤسسة (كامبريدج أناليتيكا) التي قدمت خدماتها لدونالد ترامب، كان مطلبه "ساعدوني على أن أصل بدقة إلى هدفي..أخبروني أي باب أطرقه، لمن أوجه رسائل إلكترونية وخطابات على الشبكات الاجتماعية، وبأية مضامين". من تجربته يوجه وصية "أبوية" لساسة المستقبل: "إن كنت شابًّا، ذكيًّا، مهتمًّا بالسياسة، فكِّر جيدًا قبل أن تدرس العلوم السياسية في الجامعة. الأجدر أن تدرس الرياضيات أو الفيزياء...".(7)

منطلق رهانات كامينغز أنه لأول مرة في التاريخ باتت السلوكات البشرية تنتج سيلًا جارفًا من المعطيات القابلة للقياس والملاحظة والتحليل. بفضل الإنترنت والشبكات الاجتماعية، "كل آرائنا ومشاعرنا باتت قابلة للقياس". تطبيقًا لذلك في حملة البريكست، يقول: إنه "على مدى عشرة أسابيع من الحملة الرسمية، أنتجنا حوالي مليار رسالة رقمية مشخصنة، خصوصًا عبر فيسبوك، مع وتيرة متسارعة خلال الأيام الأخيرة قبل التصويت". على هذه الجبهة، كان دور العلماء حاسمًا.

في الولايات المتحدة: هي قصة ستيف بانون Steve Bannon، قائد جوقة الشعبوية الأميركية الذي حمل ترامب إلى النصر، وحلم بتكوين أممية شعبوية تناهض ما يسميه نخب دافوس وأنصار العمل المتعدد الأطراف. قدم بانون إسهامًا نشطًا في الارتقاء بترامب إلى البيت الأبيض إثر انتخابات نوفمبر/تشرين الثاني 2016. بعدها باتت خدماته تُطلب خارج الحدود حيث يعلِّم القادة أساليب وطرق حسم المعارك الانتخابية باستخدام كل شيء مباح في السياسة: الحقائق والأكاذيب. هكذا حلَّت تعليماته في إيطاليا ليسير عليها ماتيو سالفيني ولويجي دي مايو، وألهمت صناع حملة البريكست وغيرها.

بإطلاق مؤسسة كامبريدج أناليتيكا، أصبح ستيف بانون المخطط الإستراتيجي لحملة ترامب. كبر حلمه ليتطلع إلى بناء قاعدة عالمية للحركة الشعبوية. لقد فهم ذلك بعد حضوره تجمعًا حزبيًّا لمارين لوبين، زعيمة الجبهة الوطنية في فرنسا.

في الولايات المتحدة، وبينما كانت البلاد تحتفل بانتخاب أول رئيس أسود، يوم 4 نوفمبر/تشرين الثاني 2008، كانت المعطيات على غوغل تكشف عن مخزون

إستراتيجي تحتي مغاير التوجه. كانت أرقام البحث على غوغل بعبارة "أول زنجي" بحمولتها اليمينية العنصرية أكبر من عبارات "أول أسود". بالتزامن مع ذلك، حققت الشبكة الاجتماعية العنصرية Stormfront ذروة في الانخراط والتوسع على مستوى استقطاب المتعاطفين والناشطين اليمينيين. هذا الانبعاث في الغضب العرقي كان ينتظر مستثمرًا من نوع خاص: ترامب، الذي خاطب جمهوره قائلًا: "دعوني أكن حامل لواء غضبكم". فبالنسبة لمهندسي الفوضى، وروادهم من قبيل بانون، "تتمخض الشعبوية عن اتحاذ الغضب بالخوارزميات".(8) لقد بدأ بالتشكيك في شهادة ميلاد أوباما وروَّج لنظرية المؤامرة التي تقف وراء انتخابه.

في هذا السياق، كان بانون يتعاون مع بريتبارت Breitbart في مناهضة المجمع الإعلامي الديمقراطي كخصم عنيد للتيار اليميني المتشدد. بعد وفاة مفاجئة لبريتبارت، واصل بانون المعركة بمفرده. برز في عالم الأعمال واللعب الإلكترونية وتعاون مع ميلو بانوبولوس، وهو مثلي نيويوركي مناهض للمهاجرين والمسلمين.

ومن مفارقات اللعبة الشعبوية أن انتقادات الاعلام التقليدي لترامب لم تنل منه بل زادت من شعبيته وجعلته بالفعل رجل الهامش ضد سطوة "المؤسسة" Establishment. وقد تنبه ترامب ومهندسوه إلى نجاعة صناعة الاستفزاز لأن الهدف هو إثارة الانتباه قبل المضمون. فكان العمل على الارتجال والاستفزاز خارج الأساليب المنمقة، بما يعطي شعورًا بالقوة في زمن الخوف، حسب رجال البديل اليميني مثل بانون وبانومولوس.

في المجر، هي قصة آرثر فنكلشتاين، arthur finkelstein، مستشار رئيس الحكومة، فيكتور أوربان، والذي يرى كخلاصة لجولاته عبر العالم أن "الآخرين هم السبب. المهاجرون يأخذون عملنا، يغيرون نمط حياتنا (السويد، أميركا، فرنسا، فنلندا...)". يكثر الطلب إذن على حكومات وزعامات قوية قادرة على مواجهة التهديد. الرهان هو تغذية مخزون الغضب بأخبار ومعلومات ساخنة تُذكي المشاعر التي تنشد التغيير الجذري.

في المجر، اعتبر فيكتور أوربان أن الهجرة أمر سيء بالنسبة لأوروبا، لا يحمل إلا الفوضى والخطر على الشعوب. قال: "طالما ظللت وزيرًا أول، لن نسمح بأن تتحول المجر إلى وجهة للمهاجرين. لا نريد أي أقلية بتراث ثقافي مختلف بيننا".(9) لقد

صرح بذلك في وقت مبكر لم تكن الهجرة قد دخلت حينها إلى قائمة انشغالات المجريين، حسب الاستطلاعات، لكنه كان يستبق اتجاهات عقارب الساعة ويهيئ الأجواء لخطاب شعبوي فعال.

كان فنكلشتاين مناضلًا شابًّا في الجناح المتشدد للجمهوريين، ولعب دورًا في حملة الانتخابات التمهيدية التي ارتقت بريغان حاكم كاليفورنيا لأول مرة على الساحة الوطنية، ليصبح بعد 4 سنوات أحد مستشاريه السياسيين بالبيت الأبيض. عُرف مبكرًا باستخدام مناهج الاستهداف الديمغرافي من خلال استطلاعات وتحليلات تكون قاعدة لبلورة خطابات دقيقة الاستهداف للشرائح المختلفة.

كوَّن الرجل أجيالًا من الناشطين في الحملات التي توجت بوش وترامب. في التسعينات، بدأ تصدير مهاراته إلى الخارج. سيجعل من نتنياهو حصانًا رابحًا. يبدأ العمل من المظهر الجسدي. لقد صبغ شعره بالرمادي كي يبدو أكثر وقارًا. انكب على تدمير الخصم من خلال شعار "بيريز يريد تقسيم القدس". يصوره واحدًا من الليبراليين الضعاف، المتواطئين مع العرب. نجح نتنياهو وواصل على نهج فنكلشتاين ليقدم نفسه بشعارات "نحن ضد الآخرين"، "الشعب يواجه أعداءه"، "من ليس معنا فليس يهوديًّا".

تنامى الطلب على خدمات فنكلشتاين في دول التشيك والنمسا وأوكرانيا وأذربيجان. كان القاسم المشترك تصميم حملات عنيفة تخصب السلبي وتوظف الأخبار الزائفة لدحر الخصوم. سنة 2009، حط الرحال في المجر حيث وجد زبونه الرئيس: فيكتور أوربان الذي يتبنى فكرة كارل شميت: "السياسة تتمثل في تشخيص العدو". والعدو الذي وجده أوربان وفنكلشتاين هو أوروبا الموحدة بمؤسساتها الفوقية التي تنصاع لها سيادة الدول الأعضاء، فتفرض على البلاد قواعد متعالية ضد مصلحتها. يعني ذلك إذكاء النزعة القومية المتشددة من خلال حملة ضد النخبة الحاكمة آنذاك "التابعة لتكنوقراطيي بروكسل" (الاتحاد الأوروبي) على حدِّ قوله. الشعار هو "المجر ليست مستعمَرة" (بفتح الميم).

في ربيع 2010، يفوز أوربان بوضوح بعد أن حصد 57.2 في المئة من الأصوات. بدأت سياسات أوربان على الأرض تتجسد في مركزية متشددة وإعلام تحت المراقبة وحركة تأميمات. فاز مجددًا في 2014 بحصوله على 90 في المئة من مقاعد

البرلمان. بعد سلسلة من الفضائح والإخفاقات، انخفضت أسهم أوربان، فاهتدى الثنائي الشيطاني أوربان/ فنكلشتاين إلى صناعة عدو جديد: الإسلام مجسدًا في المهاجرين رغم عددهم المحدود.

يوضح فنكلشتاين فكرته في تصميم الخطاب السياسي التعبوي قائلًا: "السياسي الجيد هو من يقول لكم أشياء حقيقية قبل أن يبادركم بأمور مغلوطة، فهكذا سيصدقون كل ما يروي من حقائق وأكاذيب".(10) بدأ تجسيد ذلك بحملة ممنهجة لشيطنة المهاجرين بوصفهم تهديدًا للانسجام الاجتماعي وسارقين لفرص عمل المواطنين، وجاءت النتيجة ارتفاعًا صاروخيًّا في أسهم أوربان بعد تشديد محاصرة المهاجرين في تنقلاتهم رغم أنهم لا ينشدون البقاء بالمجر بل العبور إلى دول أوروبا الغربية، وخصوصًا ألمانيا. صدرت تعليمات للتليفزيون بعدم استخدام لفظ "لاجئ" وعدم تصوير الأطفال للحيلولة دون التعاطف معهم.

رهانات العملية التواصلية الشعبوية

هؤلاء هم مهندسو الفوضى الذين يكشف الكتاب مطبخهم السري، مرجعياتهم وأساليب عملهم التي ترسم خريطة جديدة للمشهد السياسي في العالم الغربي. إنهم المهندسون السياسيون الذين يصممون بروباغاندا لعصر الشبكات الاجتماعية، ويغيرون بالتالي طبيعة اللعبة الديمقراطية، غير معنيين بالنقاش، بل بالانخراط الجماعي الأهوج في مشروع يحمل شعارات راديكالية، تحلق عبر خوارزميات الوسائط التواصلية لتقوم بدورها التعبوي الكاسح، متلاعبة بأوتار الجمهور، رغباته ومخاوفه. لا يتجهون إلى الوسط بل إلى الجماعات الهامشية، يخصِّبون الغضب والإحباط، في أفق تحويله إلى طاقة للهدم وإعادة البناء. لا يكترثون للحواجز الأيديولوجية بل يقفزون عليها ليرسموا مشهدًا يتجاوز الانشطار التقليدي بين اليسار واليمين، في اتجاه انشطار رئيسي بين الشعب والنخب التقليدية بيساريها ويمينييها. يفجرون الانقسام التقليدي من أجل استقطاب أوسع للغاضبين من كل الاتجاهات.

يعتمد هؤلاء المهندسون على المشاعر السلبية، من خلال الأخبار الزائفة ونظريات المؤامرة. يوظفون الخطاب الساخر لأنه يفتت السلطة الاعتبارية. إنه خطاب مختلف عن العقلانية الخطابية المتزنة والمهيكلة. ذلك جزء من مشهد كرنفالي حيث لغة

الجسد والصور تتصدر النصوص والأفكار وجاذبية السرد تتقدم على دقة الوقائع المقدمة للجمهور. الأكاذيب سلاح فعال لأنه يلتقط المخاوف والرغبات ويدغدغها.

لا تكفي إدانة الموجة الشعبوية للانتصار عليها. يتغذى الكرنفال السياسي الحالي على معطيين لا يمكن القفز عليهما: الغضب العارم في الأوساط الشعبية على خلفية الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، والآلة التواصلية النفاثة التي صُمِّمت في الأصل لتحقيق غايات ترويجية تجارية، قبل أن تصبح في يد السياسيين أداة فتاكة لأولئك الذين يريدون زراعة الفوضى.

إن جانبًا كبيرًا من التاريخ السياسي يتعلق بآليات تدبير الغضب وتأطيره. والمشكلة اليوم بعد استنفاد الدور الذي لعبته أحزاب اليسار هو غياب بدائل سياسية ناجعة للقيام بهذه الوظيفة. فالناخبون يعاقبون الزعامات والأحزاب التقليدية بالالتفاف خلف تنظيمات متطرفة، خوفًا من رهانات مجتمع متعدد الأطراف. هناك بالطبع واقع مادي يستند عليه القادة الشعبويون، لكنه غير كاف لتبرير هذه الظواهر، فليس الفقراء مثلًا هم غالبية مساندي ترامب.

ليست النخب وحدها التي تغيرت، بل الشعوب أيضًا. فكرة الانتظار والزمن تغيرت. التكنولوجيا الحديثة وفرت الاستجابة اللحظية عبر مختلف تطبيقات الهواتف والشاشات. في السياسة أيضًا يطلب الناس إجابات فورية. لا يمكن فهم هذه التحولات دون استحضار الأبعاد النفسية للتكنولوجيا التواصلية التي تخصب لدى المستهلك نوازع الشك والنقص. الشعبوي يقنع الغاضب بأنه يفهم غضبه ويتفهمه.

يستحضر دا إمبولي دراسة لمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا كشفت أن معلومة زائفة لها 70 في المئة من الحظ لاحتمال تقاسمها عبر الإنترنت، لأنها أكثر إثارة من الواقع نفسه. يقول الباحثون: إن الحقيقة تأخذ 6 مرات زمن المعلومة الزائفة للوصول إلى 1500 شخص. كأن في الأمر تكريسًا لمقولة مارك توين: "يمكن لكذبة أن تقوم بدورة حول العالم في الوقت الذي تكون فيه الحقيقة بصدد انتعال حذائها"(11).

كل الدراسات تبين أن فضاءات الشبكات الاجتماعية تسهم في تخصيب الصدام والغضب، ليصبح أحيانًا عامل إذكاء للعنف، المادي أو الرمزي، أو هما معًا. لا أدلَّ على ذلك من دور التواصل الاجتماعي في التحريض على أقلية الروهينغيا في

ميانمار. كشـفت الدراسات أيضًا عن تلازم بين التواصل الشبكي وتصاعد الكراهية ضد اللاجئين في ألمانيا. لقد عملت حملة الحزب اليميني المتطرف (ألمانيا البديلة) AFD على أن تكون الروابط الأولى التي تظهر على الإنترنت عند نقر اسـم ميركل هي تلك المتعلقة بمقالات ومواقف تدين هذه الأخيرة بالخيانة على خلفية مواقفها المرحبة باللاجئين والمهاجرين. في البرازيل، عملت حملة بولسونارو على الالتفاف على القيود التي يفرضها فيسبوك على الخطاب السياسي باقتناء آلاف الأرقام الهاتفية لإمطار مستخدمي واتساب بالأخبار الزائفة.

يمكـن مماثلة ظهور البيانات الخاصة باختراع المجهر. في الماضي، وعلى أسـاس اسـتطلاعات عامة، كان رجال السياسة يستهدفون شرائح واسعة ديمغرافية أو مهنية، بشـكل تقريبي: الشباب، النسـاء، موظفو القطاع العام...اليوم، مع عمل الفيزيائيين يمكـن تقريبًا التوجه إلى كل ناخب وفق مصطلحات ومضامين دقيقة، بتواصل أكثر نجاعة وعقلانية.

التشخيص.. في انتظار الحلول

يستثمر جيوليانو دا إمبولي انتماءه المزدوج إلى الإبداع الأدبي من جهة والبحث في العلوم السياسـية من جهة ثانية، حيث يمزج موهبته السـردية في رسم الشخصيات الفاعلة التي اختارها نماذج معبِّرة عن حقائق المشـهد السياسـي في الديمقراطيات الغربية والنزول بالتجريد البحثي التقريري إلى رؤية أكثر قربًا وحيوية من واقع يصنعه في النهاية أفراد بسمات شكلية ومعنوية، مع مهارة التحليل السياسي والربط المنطقي بين السياقات والتطورات على صعيد الساحات السياسية موضوع الكتاب.

إنه يحمل الأدب إلى مدار الكتابة السياسية كما فعل عكسيًّا حين جعل لعبة السياسة موضوعًا لروايته "سـاحر الكرملين" التي فاز عنها بجائزة الأكاديمية الفرنسـية لعام 2022، وترشـحت لجائزة الغونكور، والتي تغوص في عوالم صناعة القرار السـري خلف أسوار القصر الرئاسي في موسكو.

يتميز الكتاب بأسلوبه السردي المبسط والمشوق. لا يعني ذلك ضحالة في العرض والتحليـل، بل يتكئ علـى إلمام جيد بالمرجعيات النظرية للعلوم السياسـية، لكنه يراهن أساسًـا على فعل استقصائي تركيبي لوصف وترتيب الموضوع وتتبع نماذجه

عبر جغرافيات متعددة من أجل الخروج بتعميمات تحليلية لظاهرة صعود الشعبوية في سياق الأزمة المعلنة للديمقراطيات الغربية.

من خلال جولة بانورامية واسعة التمثيل للشعبوية الجديدة في صناعتها لتغيرات الخريطة السياسية، يقود الكتاب إلى الخروج باستنتاجات تدق ناقوس الخطر بخصوص مستقبل الديمقراطيات، ومعها مستقبل العالم، ومآلات العلاقات الدولية والتوازنات الجيوسياسية وصولًا إلى إشكالية الأمن السلم واستقرار المجتمعات. من إيطاليا، إلى الولايات المتحدة مرورًا بالمجر وبريطانيا وصولًا إلى البرازيل، يحمل الكتاب على الاقتناع بوجود موجة في ذروة الاكتساح، تفيد المؤشرات بأن أمامها مجالات عذراء أبعد للتمدد، على غرار بلدان الشمال الأوروبي وبلدان أخرى في غرب أوروبا من قبيل فرنسا وألمانيا وهولندا...

التهديد أخطر من الداخل. لا تتأتَّى مشاعر الريبة والارتباك في الديمقراطيات الغربية حصرًا من القوى الدولية الصاعدة التي تقترح أنظمة حكامة مختلفة، تُصنَّف في العقل الغربي على أنها سلطوية. يكمن الخطر أيضًا وأساسًا في انبثاق ديناميات سياسية مفترسة تضع أساسيات العملية الديمقراطية وقيم الاجتماع السياسي وقواعد اللعبة الانتخابية وآليات التواصل بين النخب والجماهير موضع تساؤل ونفي وتجاوز.

ثمة شعور حقيقي في أوساط العامة والنخب الفكرية بأن الشيخوخة الديمغرافية ليست إلا وجهًا من شيخوخة نظامية ومؤسساتية تكتب عناوين الوهن الذي تواجهه الديمقراطيات الغربية تجاه تحديات اجتماعية واقتصادية وثقافية من جيل جديد. لكن الخطر هو أن هذه الشيخوخة تغدو وقودًا سريع الاشتعال بالنسبة لنخب جديدة من خارج الصندوق، تعيد إلى الأذهان تجارب ما قبل الحرب العالمية الثانية بتياراتها اليمينية الشعبوية التي أودت بأوروبا إلى طريق الاحتراق.

يفقد الناس صبر التغيير، يملون الانتظار في عالم سريع التقلب، يغرقون في الإحباط ويركبون طريق الغضب والاستياء تجاه نخب فاشلة فقدت القدرة على ابتكار الحلول للمآزق الاجتماعية والاقتصادية لعالم الحداثة وما بعدها. تظهر زعامات وتنظيمات جديدة متحفزة لالتقاط اللحظة الذهنية والنفسية الجماعية لصناعة كتل انتخابية ناقمة جاهزة للإطاحة بالحاضر من أجل مستقبل موعود ترسمه شعارات تبسيطية وتعميمية للاستهلاك الواسع. يسهل بلورة خطاب نفاذ يقنع الفرد بأن الآخر هو السبب في

الأزمة. يغدو المهاجر في هذا الخطاب سبب فقدان العمل وفقدان الشعور بالأمن، والآليات الدولية متعددة الأطراف شبحًا يلتهم سيادة الدولة ويرضخها لبيروقراطية خارجية، والنخب التقليدية التي تتداول الحكم عبارة عن جزء من مؤامرات ضد الحرية والرخاء الوطني. ينبغي حينئذ بناء نظام سياسي جديد يعيد زمام المبادرة إلى الشعب. إنها الشعبوية الزاحفة التي توشك أن تتمدد بمفعول دومينو عبر جغرافيات العالم الغربي، في أوروبا وأميركا بوجه خاص، مع أن الدينامية ملحوظة على نطاق دولي أشمل، في مواجهة إخفاقات وعود العولمة وإخفاقات مسارات التنمية في الجنوب.

لئن كان هذا هو السياق السياسي والنفسي لهذا المخاض، فإن الموجة الشعبوية الصاعدة تشترك في الرهان على حصان رابح شديد الاختراق، يتمثل في وسائط التواصل الجديدة والتكنولوجيا الشبكية التي حولت اختيارات الناخبين إلى خارطة مكشوفة من المؤشرات والخطابات تتلقفها الجيوش الإلكترونية لزعامات الشعبوية لتصبح معطيات انتخابية حاسمة تفسر إلى حدٍّ بعيد مسلسل الانتصارات التي حملت وجوهًا من الشعبوية اليمينية الجديدة إلى سدة الزعامة في العديد من دول أوروبا وأميركا.

إن كتاب "مهندسو الفوضى" مسودة للفهم، وصفة لتوسيع مجال النظر نحو تشابه الديناميات المتمردة على السياسة بالمعنى المعتاد في الديمقراطيات الغربية. إنه كتاب بمجهود تركيبي محمود يضع تطورات سياسية في مجموعة بلدان ضمن أفق تحليلي متناغم. لا يزعم جيوليانو دا إمبولي تفكيك الأسباب البنيوية لهذا الانزياح الانتخابي نحو الخيارات القصية التي تجسدها التيارات الشعبوية، المتغذية على هوامش اليمين واليسار وشرائح العازفين عن المشاركة، الحائرين في الاختيار، الساخطين على الجميع.

لا يقدم تفسيرًا للأزمة البنيوية، بل يقودنا إلى قراءة تجلياتها وأدوات اشتغالها، من خلال تسليط الضوء على محركي الدمى في خلفية المنصة، ومخططي مسيرات الشعبوية نحو قلب السلطة في المطبخ السري.

المراجع

(1) Giuliano Da Empoli Les ingénieurs du chaos. Ed J-C Lattès. Mars 2019. 203 pages. P 12

(2) Idem P 18

(3) Christian Godin : qu'est-ce que le populisme ? Cités 2012/1 (n° 49), pages 11 à 25. P 16

(4) Idem p 20

(5) Jacques Neirynck : Pourquoi le populisme ? Le Temps. 6 juillet 2022. https://blogs.letemps.ch/jacques-neirynck/2022/07/06/pourquoi-le-populisme/

(6) Idem p 45

(7) Idem p 153

(8) Idem p 93

(9) Idem p 128

(10) Idem p 139

(11) Idem 82

معايير النشر في مجلة لباب

1. أن يكون البحث أصيلًا معدًّا خصيصًا للمجلة، وألا يكون قد نُشر جزئيًّا أو كليًّا أو نشر ما يشبهه في أيَّة وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، أو قُدِّم في أحد المؤتمرات العلمية من غير المؤتمرات التي يعقدها مركز الجزيرة للدراسات، أو إلى أية جهة أخرى.

2. أن يُرفق البحث بالسيرة العلمية للباحث.

3. يجب أن يشتمل البحث على العناصر التالية:

- عنوان البحث باللغتين العربية والإنجليزية.

- ملخص تنفيذي باللغتين العربية والإنجليزية في نحو 60 كلمة، والكلمات المفتاحية (keywords) بعد الملخص.

- اسم الباحث وصفته العلمية باللغتين العربية والإنجليزية.

4. أن يتقيَّد البحث بمواصفات التوثيق وفقًا لنظام الإحالات المرجعية الذي يعتمده المركز.

5. يراوح الحد الأقصى لعدد كلمات البحث، بما في ذلك المراجع في الإحالات المرجعية والهوامش الإيضاحية، وقائمة المراجع وكلمات الجداول في حال وجودها، والملحقات في حال وجودها، بين 5000- 7000 كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تنشر، بحسب تقديراتها وبصورة استثنائية، بعض البحوث والدراسات التي تتجاوز هذا العدد من الكلمات.

6. في حال استخدام الباحث مقتطفات أو فصول من رسائل جامعية أُقرَّت من قبل، فعليه أن يشير إلى ذلك، ويقدم بيانات وافية عن عنوان الأطروحة وتاريخ مناقشتها والمؤسسة التي جرت فيها المناقشة.

7. أن يقع البحث في مجال أهداف المجلة واهتماماتها البحثية، وأن يكون كذلك متصلًا باهتمام الباحث وتخصصه العلمي.

8. ترحب المجلة بالمراجعات النقدية للكتب المنشورة بحدود لا تتجاوز (2000–2500) كلمة، وفي هذه الحالة يتوجب على الكاتب أن يذكر في أعلى الصفحة المعلومات التالية: عنوان الكتاب، اسم المؤلف، مكان النشر وتاريخه وعدد الصفحات. وتشمل مراجعة الكتب، عرضًا وصفيًّا لمحتوى الكتاب، وكذلك رؤية نقدية معززة بالبراهين العلمية الموثقة، وأن يرسل صورة لغلاف الكتاب مع المراجعة.

9. في حال وجود مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول، ينبغي إرسالها بالطريقة التي استغلت بها في الأصل بحسب برنامجَي إكسل (Excel) أو وورد(Word)، كما يجب إرفاقها بنوعية جيدة كصور أصلية في ملف مستقل أيضًا.

10. تكون جميع الشروحات والتعليقات على الجداول أو الرسوم أو تصاميم الإنفوغراف مكتوبة باللغة العربية، مع إحالات واضحة للمصدر الأصلي للجدول أو المخطط.

11. تخضع البحوث للتحكيم من قبل خبراء متخصصين ويُتخذ قرار نشر البحوث في ضوء آراء المحكَّمين وقرار هيئة التحرير.

12. يجري ترتيب البحوث عند النشر على وفق مقتضيات فنية حصرًا.

13. لا يدفع مركز الجزيرة للدراسات مكافآت مالية مقابل نشر البحوث في المجلة، اتساقًا مع تقاليد مراكز البحوث.

أسلوب كتابة الهوامش والمراجع

سياسات عامة

- في الأوراق البحثية والدراسات، يجري تدوين الهوامش بشكل يدوي في نهايتها دون استخدام خاصية تنسيق الحواشي السفلية (Footnote). أما في الكتب فتُدوَّن الإحالات في أسفل كل صفحة عبر خاصية تنسيق الحواشي السفلية.

- عند الإحالة إلى مصدر للمرة الأولى، تُدرج المعلومات الكاملة المتعلقة بذلك المصدر وفق السياسات التفصيلية الواردة أدناه.

- عند تكرار المصدر مباشرة توضع العبارة التالية: "المرجع السابق"، وبخصوص الكتب الأجنبية توضع عبارة "Ibid" مع ذكر رقم الصفحة.

- عند تكرار المصدر، بعد ورود مصادر أخرى، يُذكر الاسم العائلي للمؤلف (دون الاسم الأول) متبوعًا بعنوان المصدر بصيغة مختصرة (دون العنوان الفرعي)، ورقم الصفحة.

- في حال عدم معرفة الناشر يُكتب (د. ن) وتعني دون ناشر، وفي حال عدم معرفة تاريخ النشر يُكتب (د. ت) وتعني دون تاريخ.

سياسات تفصيلية

أولًا: الكتب

1. كتاب لمؤلف واحد:

اسم المؤلف، عنوان الكتاب، رقم الطبعة (إن وُجد) (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

عبد الله فيصل علام، العلاقات المدنية-العسكرية والتحول الديمقراطي في مصر: يوليو/ تموز -1952 يوليو/ تموز 2013، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2018)، ص 5.

إذا كان الاقتباس يشمل أكثر من صفحة، يُكتب الهامش كالآتي:

صالح النعامي، العلاقات المصرية–الإسرائيلية بعد ثورة 25 يناير، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2017)، ص 5–7.

George Graham, *Philosophy of Mind: An Introduction*, 2nd ed. (Malden, MA: Blackwell, 1998), 87.

إذا لم توجد إشارة للطبعة، تُوَثَّق بيانات الكتاب كالآتي:

محمد السعيد إدريس، النظام الإقليمي للخليج العربي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000)، ص 24.

Wendy Doniger, *Splitting the Difference: Gender and Myth in Ancient Greece and India* (Chicago: University of Chicago Press, 1999), 23.

2. كتاب لمؤلِّف واحد من عدة أجزاء :

اسم المؤلِّف، عنوان الكتاب، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الجزء، رقم الصفحة.

أبو الفداء بن كثير، البداية والنهاية، (بيروت، مكتبة المعارف، 1977)، ج 12، ص 126.

Manning Clark, *A History of Australia* (Carlton, Vic.: Melbourne University Press, 1962), 1: 243.

3. كتاب لمؤلِّفين اثنين:

اسم المؤلف الأول، اسم المؤلف الثاني، عنوان الكتاب، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

صباح الموسوي، محمد السعيد إدريس، المشروع الإيراني في المنطقة العربية، (عمان، دار العماد، 2013)، ص 135.

Kurt Johnson and Steve Coates, *Nabokov's Blues: The Scientific Odyssey of a Literary Genius* (Cambridge, MA: Zoland Books, 1999), 167.

4. كتاب لأكثر من ثلاثة مؤلِّفين:

اســم المؤلف الأول وآخرون، عنوان الكتاب، (مكان النشــر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

ســيار الجميل وآخرون، الطريق إلى ســايكس-بيكو: الحرب العالمية الأولى بعيون عربية، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2016)، ص 25.

Raymond Evans et al., *1901, Our Future's Past: Documenting Australia's Federation* (Sydney: Macmillan, 1997), 35.

5. كتاب لجهة حكومية أو مؤسسة دولية أو غيرهما:

اســم الجهة أو المؤسســة، عنوان الكتاب، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

وكالة الأنباء القطرية، الإعلام الإلكتروني وتأثيره على الرأي العام، ط 1 (قطر، وكالة الأنباء القطرية، 2010)، ص 22.

World Health Organization, *Abortion Laws: A Survey of Current World Legislation* (Geneva: World Health Organization, 1771), 60-70.

6. كتاب لمحرر واحد:

اســم المحرر (محرر)، عنوان الكتاب، (مكان النشــر، الناشــر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

- فاطمة الصمادي (محررة)، التقارب الإيراني-الأميركي: مستقبل الدور الإيراني، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014)، ص 15.

Ken Stewart, ed., *The 1890s: Australian Literature and Literary Culture* (St Lucia, Qld.: University of Queensland Press, 1996), 97.

7. كتاب لمحررين اثنين:

اســم المحرر الأول، اســم المحرر الثاني (محرران)، عنوان الكتاب، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

عــز الدين عبد المولى، نور الدين الميلادي (محرران)، الجزيرة في عشــرين عامًا: أثرها في الإعلام والسياسة والأكاديميا، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2016)، ص 26.

Arthur J. Knoll and Lewis H. Gann, eds., *Germans in the Topics: Essays in German Colonial History* (New York: Greenwood Press, 1987), 137.

8. كتاب مترجم أو مُترجَم ومحرَّر:

اســم المؤلف، عنوان الكتاب، ترجمة اســم المترجم، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

بشــارة خضر، أوروبا والعالم العربي: رؤية نقدية للسياسات الأوروبية، ترجمة أكرم حمدان، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2016)، ص 15.

Rigoberto Menchú, Crossing Borders, Trans. and ed. Ann Wright (New York: Verso, 1999), 109.

9. كتاب لا يوجد اسم مؤلِّفه أو الجهة المسؤولة عن تحريره:

عنوان الكتاب، بدون مؤلِّف، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

رســائل إخــوان الصفا وخلان الوفاء، بدون مؤلف، (بيــروت، دار صادر، 2004)، ص 39.

Conflict: A Nation Faces the Challenge (Brisbane: Freedom Publishing, 1961), 18.

10. كتاب لا يوجد اسم مؤلِّفه لكن اسم المترجم أو المحرر أو المحقق موجود:

اســم المترجم (مترجم)، أو اســم المحرر (محرر) أو اسم المحقق (محقق) عنوان الكتاب، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

عبــد القادر بوباية (محقق)، تاريــخ الأندلس، (بيروت، دار الكتب العلمية، 2007)، ص 43.

Theodore Silverstein, trans., *Sir Gawain and the Green Knight* (Chicago: University of Chicago Press, 1974), 34.

11. كتاب في سلسلة علمية أو معرفية:

اســـم المؤلف، عنوان الكتاب، عنوان السلسلة ورقمها، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

معتصم بابكر مصطفى، أيديولوجيا شبكات التواصل الاجتماعي وتشكيل الرأي العام، سلسلة كتاب التنوير 12، ط 1 (السودان، مركز التنوير المعرفي، 2014)، ص 121.

Kyriakos Nicolaou, *The Historical Topography of Kition*, Studies in Mediterranean Archaeology 43 (Goteborg: Astrom, 1976), 35.

12. كتاب إلكتروني:

اســـم المؤلف، عنوان الكتاب، (مكان النشر، الناشـــر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة، الرابط (URL) أو مُعَرِّف الوثيقة الرقمي (DOI).

يكتب الرابط أو مُعَرِّف الوثيقة الرقمي مختصرًا بالرجوع إلى مُخْتَصِر الروابط (Bitly.com) أو (Google URL Shortener).

حسن عماد مكاوي، تكنولوجيا الاتصال الحديثة في عصر المعلومات، ط 1 (القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1993)، ص 25، https: / /bit.ly /2DaBEgG

Claudia Schwabe, Ed., *The Fairy Tale and its Uses in Contemporary New Media and Popular Culture* (Basel: MDPI, 2016), 25, https://bit.ly/2RKqtR4.

13. فصل من كتاب محرَّر:

اسم الكاتب، "عنوان الفصل"، في عنوان الكتاب، تحرير: اسم المحرر، (مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

حســـناء حسين، "الجزيرة وتطور تمثلات النساء وأدوارهن في المجال العام: دراسة في مضمون برنامجي للنساء فقط ورائدات"، في الجزيرة في عشرين عامًا: أثرها في الإعلام والسياســـة والأكاديميا، تحرير: عز الدين عبد المولى ونور الدين الميلادي، ط 1 (بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2016)، ص 220.

Sabine Willis, "Made to be Moral: At Parramatta Girls' School, 1898-1923," in *Twentieth Century Sydney: Studies IN Urban & Social History*, ed. Jill Roe (Sydney: Hale & Iremonger, 1980), 180.

14. محرر مقدمة الكتاب:

اســم كاتب المقدمة، عنوان الكتاب، اســم الكاتب، (مكان النشر، درا النشر، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

الوليد آدم مابدو، مقدمة لـ حروب الترابي الشــيخ حســن: سياسي محترف أم مفكر إسلامي؟، صديق محيسي، ط 1 (القاهرة، الحضارة للنشر، 2016)، ص 7.

William Trevor, introduction to *Pride and Prejudice*, by Jane Austen (Oxford: Oxford University Press, 1999), vi.

ثانيًا: الرسائل الجامعية

اســم المؤلف، عنوان الرســالة أو الأطروحة، (نوعها: رســالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه، اسم الجامعة، تاريخ الإجازة أو النشر)، رقم الصفحة (إذا كانت الرسالة أو الأطروحة منشورة على الإنترنت يوثق رابطها في نهاية الإحالة).

فاطمة الزهراء السيد، تقنيات توثيق المعلومات الصحفية في الصحافة المصرية (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 2011)، ص 83.

Neville Douglas Buch, "American Influence on Protestantism in Queensland since 1945" (PhD thesis, University of Queensland, 1994), 42.

ثالثًا: الوثائق الرسمية

وثائق حكومية أو تقارير منظمات حكومية وغير حكومية.

اســم المنظمة أو الجهة الحكومية، "عنوان الوثيقة"، رقمها التسلسلي، (مكان النشر: تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

منظمة العفو الدولية، "حالة حقوق الإنســان فــي العالم،" PLO 10/ 6700/ 2018، (بريطانيا: منظمة العفو الدولية، 2018)، 31.

Transparency International, "Corruption Perceptions Index 2019," CC BY-ND 4.0, (2018), 13, https://bit.ly/2SxUVlH.

رابعًا: المؤتمرات والندوات

اســم المؤلف، "عنــوان الورقة"، (قُدِّمت في/ إلى عنوان النــدوة أو المؤتمر، مكان الانعقاد، تاريخ الانعقاد)، الرابط إذا كانت الورقة منشورة على الإنترنت.

محمود فهمي حجازي، "علم اللغة الاجتماعي وتنمية الاستخدام اللغوي في المجتمع المدنــي المعاصــر"، (بحث أو ورقة قُدِّمت في/ إلى ندوة اللغة العربية ومؤسســات المجتمع المدني، القاهرة، 28 مارس/ آذار- 4 أبريل/ نيسان 2011).

Ronald A. Francisco, "The Dictator's Dilemma" (paper presented at the Conference on Repression and Mobilization, University of Maryland, June 21-24, 2001), https://bit.ly/2WMMNNK.

خامسًا: الدوريات والمجلات

1. دراسة من دورية أو مجلة:

اســم الكاتب، "عنوان الدراسة"، اسم المجلة (جهة النشر، البلد، المجلد و/ أو رقم العدد، تاريخ النشر)، رقم الصفحة.

معتز ســلامة، "الدور السياسي للنخبة العسكرية في مصر الثورة"، مجلة الديمقراطية (مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، مصر، العدد 53، 2014)، ص 63.

Roland Quinault, "Afghanistan and Gladstone's Moral Foreign Policy," *History Today* 52, no. 12 (2002): 29.

2. إذا كانت الدراسة منشورة على الإنترنت يُنَوَّه إلى الرابط أو مُعَرِّف الوثيقة الرقمي كالآتي:

علــي عبد الهادي، "مصداقية المتحدث الرســمي للحكومة لدى الجمهور العراقي: دراســة مسحية"، مجلة الباحث الإعلامي (جامعة بغداد، العراق، العدد 41، 2018): 115، https: / /bit.ly /2t7no3J

Robert Dessaix, "Russia: The End of an Affair," Australian Humanities Review 6 (1997), https://bit.ly/2BmTdtI.

سادسًا: مقالات الصحف

اسم الكاتب، "عنوان المقال"، اسم الصحيفة، تاريخ النشر.

شفيق ناظم الغبرا، "شروط الاستقرار العربي"، القدس العربي، 7 فبراير/ شباط 2019.

Tony Stephens, "The Stain on Redfern's Past," *Sydney Morning Herald*, Spectrum, February 28-29, 2004.

سابعًا: صفحات المواقع والمنشورات الإلكترونية

اسم الكاتب، "عنوان المقال أو التقرير"، اسم الموقع الإلكتروني، تاريخ النشر (تاريخ الدخول:...)، الرابط.

سـعيد الحاج، "تركيا وتحديات الانسحاب العسكري الأميركي من سوريا،" الجزيرة نت، 1 يناير/ كانون الثاني 2019 (تاريخ الدخول: 7 فبراير/ شباط 2019)، https: / / bit.ly /2DdLy12.

Dana Milbank, "The Democratic apology tour is a sorry spectacle," *The Washington Post*, February 6, 2019, "accessed February 24, 2019". https://wapo.st/2BnpYXS.

ثامنًا: المقابلات

1. مقابلة خاصة أجراها الباحث/ المؤلف مع المنصف شيخ روحه، عضو المجلس الوطني التأسيسي، 2 يونيو/ حزيران 2014، تونس.

2. مقابلة عبر الهاتف/ البريد الإلكتروني/ السـكايب أجراها الباحث مع عماد بشير، مدير كلية الإعلام والتوثيق، 24 نوفمبر/ تشرين الثاني 2018.

من إصدارات المركز

لباب

للدراسات الاستراتيجية

دورية محكمة تصدر عن مركز الجزيرة للدراسات

العنوان

وادي السيل، الدوحة، قطر

صندوق البريد: 23123

للتواصل

lubab@aljazeera.net

هاتف: 40158384 974+

فاكس: 44831346 974+

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTRE FOR STUDIES

سعر النسخة: 15 ريالاً أو 4 دولارات